عالمية الإسلام

رجائى عطية

الأهرام
مركز الأهرام
للترجمة و النشر

عالمية الإسلام

رجائى عطية

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م

الطبعة الثانية
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٥٧٨٦٠٨٣ - فاكس : ٥٧٨٦٨٣٣

المحتويات

تقديم

يتعرض الإسلام فى هذا الزمان لهجوم متوحش جهول ، يجاوز فى توحشه وضلاله ما سبق أن تعرض له منذ سنين من هجمات ضالة ساهم فيها كتاب وفلاسفة وملوك وأباطرة ، وجيوش !! الهجوم على الإسلام كان ضريبة احتملها الإسلام منذ كان .. لم تفت فيه الحملات الشرسة الضارية التى ازدادت هذه الأيام وبلغت أقصى درجات التوحش والضراوة ، تبتغى تصوير الإسلام بأنه دين بغى وعدوان ، وتصوير المسلمين بأنهم دعاة قنبلة وخنجر ومدفع .. يلوون النصوص ، وينتزعونها من سياقها ،ويستغلون بعض حركات غالية لم يخلُ من أشباهها دين من الأديان ، ولكنهم يريدون هنا أن يحسبوها على الإسلام ، وأن يخلطوا بينها وبين الدين ، والدين ، منها براء !!! لذلك فلا وقت أنسب من هذا الوقت ، ولا زمان أدعى من هذا الزمان - للفت الأنظار إلى"عالمية الإسلام".. الأنظار الحولاء التى تنظر إلى الإسلام على أنه مدفع وقنبلة وخنجر ، ولا تدرك أن "عالمية الإسلام" - وهى حقيقة فيه لا يتجبى بها عليه أحد،تمنع أن تكون لغة خطابه للدنيا لغة المدفع والقنبلة والخنجر .. إن لفت الأنظار إلى " عالمية الإسلام " غاية تتجه إلى أبناء الإسلام مثلما تتجه إلى من بقلوبهم مرض وعداء ، أو بعيونهم عوار ، أو بأفهامهم التباس

.. ليس الداخل بأغنى حاجة إلى العلم الحقيقى بجوهر الإسلام، وحجته البينة التي يطاول بها الدنيا .. هذه تبصرة واجبة بجوهر ما جعل هذا الدين ديناً عالمياً، وبموجبات هذه "العالمية" بعناصرها - التى جعلت من هذه العقيدة بنية حية .. لم توجد بالأمس واليوم لتنبذ غداً، ولم توجد لقوم دون أقوام، ولا لمكان دون أمكنة، ولا لزمان دون زمان أو أزمنة .. هى للفقراء والأغنياء، للأقوياء والضعفاء .. هى بنية حية قوامها دهور وأمم، ومعايش وآمال، ونفوس خلقت ورحلت، ونفوس لم تخلق بعد .. سوف يأتى بها الغد .. هى عقيدة عالمية لأنها خالدة باقية للدنيا بأسرها .. بكل عناصر البقاء .. ما بقيت الحياة .

إدراك "عالمية الإسلام"وموجباتها، لازم للمسلمين قبل أن يلزم غير من يدينون بديانة الإسلام .. واجب عليهم أن يفهموها، وأن يفهموا أن لها أسسا وعناصر وأركاناً قبل أن تكون شعاراً يرفع أو كلمة تبذل للوجاهة والسلطان .. أن يخلصوا من هذا الفهم إلى إدراك موجباتها وما تستلزمه فى سلوك المسلم وأخلاقه وشمائله وسجاياه ، وفى لغة خطاب الإسلام والمسلمين إلى الدنيا بأسرها .

حين دعيت فى رمضان (١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م) للحديث، فى ملتقى الفكر الإسلامى بساحة الإمام الحسين، اخترت" عالمية الإسلام " موضوعاً ، قاصداً أن أطرح نموذجا لورقة عمل لما ينبغى فى تصورى أن يكون عليه الخطاب الدينى إزاء الهجمات الظالمة

الشرسة المحشودة ضد الإسلام والمسلمين .. بيد أن الحديث كثر بعدها عن تجديد الخطاب الديني، دون التفات إلى بث مضمون هذا الخطاب إلى الناس .. والخطاب الديني الذى أعنيه ليس تغيير الدين كما يأمل الشاردون، أو يخشى المتوجسون ! .. الخطاب الذى أعنيه خطاب نابع من الإسلام منصرف إلى استخراج جواهره وبثها للناس، لا يصرف همه ولا جهده لتتبع الشوارد أو المرجوحات، ولا للدخول فى مقارعات مع من يندفعون عن عمد أو جهل فى تيار تشويه وجه الإسلام والمسلمين، أو يعطون فرصة للمغرضين لتشويهه .. ما قصدته أن نتجه بالخطاب مباشرة إلى الإسلام نفسه وإلى الناس، نعرض عليهم بلا مقارعات ولا مناظرات حقيقة جوهر الإسلام .. إن بسط مقومات عالمية الإسلام كفيل بذاته بالرد على دعاوى ومغالطات وتشويهات المغرضين .. فالدين العالمى جاذب لا طارد .. وعالميته تستوجب - وهو حاصل - قبول الآخر والتعامل معه ، فهى لا يمكن أن تتحقق أو تنتشر بالعدوان .. يدرك الإسلام أن الأديان لا تفرض بالقسر والإرغام ، وإنما أساسها الهداية والرضا والاقتناع .. ويدرك أن العدوان ينفر ولا يجذب.. وقد أراد الله تعالى للإسلام الخاتم أن يكون عالميا جاذبا، مجمعا لا طارداً .. من يفهم عالمية الإسلام يفهم معها بالضرورة أنه محال أن ينبنى على كراهية

أو عدوان ، أو أن تكون لغته السيف أو القنبلة أو المدفع أو الخنجر .. عالمية الإسلام ، وهى حقيقة فيه لا يتفضل بها عليه أحد، تعنى أنه دين مفتوح ، يخاطب العالمين ، غايته هداية الدنيا ورشاد الناس .. وذلك يمنع أن تكون لغة خطابه لغة المدفع والقنبلة والخنجر.. فموجبات عالمية الإسلام اقتضته - ولا تزال - أن يتجه بخطابه - بالحكمة والموعظة الحسنة - إلى الدنيا بأسرها، وإلى الناس كافة ، داعيا إياهم إلى رب واحد هو رب العالمين، لا رب قوم ولا أقوام .. فالإسلام لم يترل إلى عرق دون أعراق، ولا لقوم دون أقوام، ولا لمكان دون مكان، ولالزمان معين دون زمان .. الإسلام بنية حية قوامها دهور وأمم، باق خالد - بكل عناصر البقاء - للدنيا وللناس كافة ما بقيت الحياة، ولأنه دعوة عالمية فقد شمل فى حناياه كافة الرسالات، ولم يدر لها ظهره أو يعادها، وحض على الإيمان بكافة الرسل ، ونبه إلى وحدة الرسالات الإلهية واكتمالها بالإسلام الخاتم .

عالمية الإسلام التى أعنيها ، وأدعو المسلمين وغير المسلمين إلى الالتفات إليها ، هى الصلاحية والقدرة على الامتداد فى المكان وفى الزمان .. لا يوصف ولا يصلح للعالمية ما انغلق على مكان أو عرق أوافتقد مقومات القدرة على الانتشار فى المكان ليعم الدنيا بأسرها .. ولا يوصف ولا يصلح للعالمية ما اقتصر نظره على مساحة آنية

أو زمنية أو على ظروف وقتية وافتقد مقومات القدرة على صـــلاحية الامتداد فى الزمان امتداداً لا تحده حدود ، تقعده حبيس زمـــن غـــابر مضى ، ولذلك فإن هذه الصلاحية والقدرة ليست كلمـــة تقال، أو وصفاً يسبغ ، وإنما هى" مقومـــات " قائمـــة وموجـــودة ينبـــغى التفـــات الأنظار إليها فى الإسلام ..

روح الإسلام ، هو هذا الجوهر الدائم الباقى ، فى روح هـــذا الزمان وآتى الأزمنة ، مثلما كان فى روح الـــزمن الغـــابر .. قيمـــة الإسلام هى فى كونه ديناً حياً لحـــاضر حى ومستقبل أكثـــر حيـــاة – وليس مجرد جزء من ماض تليد انصرم ننظر إليه بحســـرة وإشـــفاق .. قيمة التراث المجيد ، ليست فى إلزامـــه وتقييده لعقول جديدة ونفوس جديدة مزودة مع الإسلام - بالضرورة - بزادها الحاضـــر مـــن علـــوم عصرها ومعارفه وأفكاره وأذواقه، وإنما قيمة هذا التراث المجيد فى أنه خطوات خطاها المسلمون فى رحاب هذا الدين ســـبقوا بهـــا زمـــانهم وعالمهم نحو مزيد – حققوه – من الإستنارة والمعرفة والعلم ، ولم يكـــن المسلمون الماضون قادرين على تحقيق ما حققوه – لولا الروح العظـــيم الذى حمله هذا الدين، والمقومات السرمدية التى تدفع المسلم دائـــما إلى الله .. والحق .

رجائى عطية

دين العالمين من رب العالمين
إلى الناس كافة

الإسلام ممتحن هذه الأيام بأبنائه ، مثلما هو مبتلى بأعدائه .. تصطرع حوله ، تيارات شتى ، بين داع ومتحفظ ، ومقبل ومدبر، ومرحب ورافض ، ومدافع ومهاجم .. وتلك فى ذاتها مظاهر صحة، وضريبة على كل الدعوات الكبرى فى كل زمان ومكان، بل هى كانت الضريبة التى احتملها الإسلام منذ كان، .. ويستطيع المتابع للحملة الشرسة الضارية هذه الأيام على الإسلام والمسلمين – يستطيع ، وبغير عناء ، أن يشم رائحة الأغراض والأهواء والسياسة .. يبغى المغرضون تصوير الإسلام بأنه دين بغى وعدوان ، وتصوير المسلمين بأنهم دعاة قنبلة وخنجر ومدفع ..وتتجاهل هذه الهجمات الضارية أن الإسلام نزل دينا للعالمين، وأن دعوته بذلك دعوة مفتوحة، تتجه بخطابها إلى الناس كافة، وسيلتها اجتذاب وتأليف القلوب، تتغيا هداية الإنسانية، وعمار الحياة ، وأن هذه الغاية التى تنشدها، اقتضت أن يتسم الدين بالعالمية ، وأن يكون خطابه وواحته إلى الدنيا بأسرها .. هذه الغاية يستحيل معها أن يكون هذا الدين دين بغى أو

عدوان ، أو أن تكون لغته إلى الناس لغة السيف والمدفع والقنبله .. والخنجر .. القلوب التى ينشد الإسلام بعالميته تأليفها وجمعها ، لا تأتلف ولا تتجمع بالإرهاب والعدوان والإخافة ، وإنما تجذبها الهداية والدوحة المعطوة التى تغيا الإسلام أن يشمل بها العالمين .

الإسلام دين "عالمى" لأنه لم يترل لزمان معين دون زمان ، ولا لقوم بأعينهم دون أقوام ..قبل الإسلام كانت النبوّات لأقوام .. لم تعرف البشرية قبل الإسلام ديانة للناس كافة ، فكانت جميع النبوات قبله إلى أعراق وقبائل ، منهم وإليهم يبعث النبى برسالة محدودة مقصورة على قومه .. يروى القرآن المجيد عن هذه النبوات التى كانت محدودة بهذه الأعراق والأقوام " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ " .. (الأعراف /٥٩) ...." وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ".. (الأعراف /٦٥) .."وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ" .. (الأعراف/٧٣) .."وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ " .. (الأعراف /٨٠) .. " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا " .. (الأعراف /٨٥) .. " ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ" .. (الأعراف /١٠٣) .. وإلى بنى إسرائيل كانت

نبوة موسى عليه السلام والأنبياء من بعده .. والـرب يسـمونه عندهم إله إسرائيل ، ويخصون بالذكر من أبنـاء إبـراهيم عليـه السلام ذرية يعقوب ابن إسحق دون سائر العبريين .. وفى سـفر الأيام من العهد القـديم .. " مبـارك الرب إله إسـرائيل مـن الأزل إلى الأبد .. " .

أما النبوة المحمدية فنبوة للعالمين .. للدنيا بأسرها .. نبوة شاملة للبشر جميعاً وللناس كافة ، - .. وفى القرآن الكريم أكثر من سبعين موضعاً يذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين .. ومحمـد عليه السلام رسول من رب العالمين إلى جميع خلقه .. إلى كل بـنى الإنسان من عرب وعجم .. من بيض وسود - من أغنياء وفقـراء .. من أقوياء وضعفاء .. من سادة ومستعبدين .. لا فضل لعـربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود - ولا لقرشى على حبشى - إلا بالتقوى والعمل الصالح ..

فبعد أن كانت النبوات لأقوام بأعينهم ، يبعث سبحانه وتعالى لكل قرية رسولاً ينذرهم ويبشرهم .. إذ بالرسالة المحمدية رسـالة للعالمين .. بها بعث الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسـلام فى " أم

القرى " .. مكة المكرمة ، لا للمكيين وحدهم، ولا للقرشيين دون سواهم ، ولا لأهل الجزيرة العربية خاصة .. وإنما للعالمين..

.. " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا" .. (الفرقان / ١) ..

.. " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا " .. (سبأ/٢٨) ..

.. " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا".. (الأعراف /١٥٨) ..

.. " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ " .. (التوبة /٣٣) ..

ولأن الدعوة الإسلامية " دعوة عالمية " ، فإنها شملت فى حناياها ما أتت به الرسالات التى قبلها .. فلم تدر لها ظهرها ، – ولم تعادها بل وحضت على الإيمان بالرسل كافة ، ونبهت إلى وحدة الرسالات الإلهية ، – وإلى اكتمالها بالإسلام " الدعوة الخاتمة " .. " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ . وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " ..

(النحل ٤٣ ، ٤٤) .. فى الإسلام ، إن رقى الإنسان الروحى والخلقى والاجتماعى والسلوكى - هو الحكمة الإلهية من الرسالات التى تعاقبت على بنى البشر أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل .. كلها ذات هدف واحد هو توجيه الإنسان إلى طريق الكمال .. أصول الرسالات والعقائد واحدة من خلال منظومة ختمت بالإسلام .."الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِينًا "..(المائدة/٣) .

من عالمية الإسلام . ــ المنزلة السامقة التى أقرها لجميع الرسل والأنبياء قبل الرسالة المحمدية ، احتفى بهم ووقرهم وباركهم ونوه بنبواتهم ورسالتهم ، وبلغ من احتفاء القرآن المجيد بهم أن سوراً كاملة فيه قد حملت أسماء لهؤلاء الرسل والأنبياء .. مثل سور: الأنبياء، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ونوح، ولم يتحدث القرآن الحكيم عن الأنبياء السابقين ، إلاّ بكل توقير وتكريم .. " إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ من بَعْده" .. (النساء/١٦٣) .. " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمه فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ " .. (الأعراف/٥٩) .. " فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي

الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ .." (الأعراف /٦٤) ..،"إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ".. (آل عمران/ ٣٣) .. " شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ".. (الشورى / ١٣) .."سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ" ..(الصافات / ٧٩) .. وفى رعايته سبحانه وتعالى لنبيه هود وقد حمل دعوة التوحيد إلى قومه عاد :"فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ " .. (الأعراف/ ٧٢ ، وهود/ ٥٨) .. – كذلك رعايته سبحانه وتعالى لنبيه صالح الذى حمل دعوة الهداية والتوحيد إلى قومه ثمود " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ

أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُــونَ . قَــالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَــا تَعِــدُنَا إِن كُنــتَ مِــنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ " (الأعراف/٧٣ ــ ٧٩) يصف القرآن المجيد كيف نجّا الله نبيه صالحا والذين آمنوا معه فيقول .. " فَلَمَّا جَــاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ " .. (هود /٦٦) – يمضى القرآن فيورد كيف كانت رعاية الله تعالى لأنبيائه وكيف كانــت لنبيه لوط الذى نجاه وأهله الا امرأته التى كانت مــن الغــابرين (الأعراف /٨٣) – ولنبيه شعيب الذى كذبه قومه .. " فَأَخَــذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِــمْ جَــاثِمِينَ "..(الأعــراف/٩١) .. " وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّــا " .. (هود /٩٤) ..

وعن أبى الأنبياء ابراهيم الخليــل يقول عــز مــن قائــل : .. "وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِــرَةِ لَمِــنَ الصَّــالِحِينَ" .. (البقرة/١٣٠) .." وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً " .. (النساء /١٢٥)

.. " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ" .. (هود /٧٥) .. "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا" .. (مريم/٤١) .. " سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ" .. (الصافات /١٠٩) .. " إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى"..(الأعلى/١٨،١٩) .. وموسى الكليم الذى ذكر فيه القرآن الحكيم .. "وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ من بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" .. (البقرة /٥١ ــ ٥٣) .. وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ من بَعْدِهِ " .. (البقرة /٩٢) .. " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا" .. (مريم /٥١) .. " وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" .. (النساء /٦٤) .. "سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ" .. (الصافات /١٢٠) .. " وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ" .. (الأنعام /٨٦) .. " وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ من قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ " .. (غافر /٣٤) .." وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ " .. (يوسف /٢١ ، ٥٦) .." وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي " .. (ص / ٤٥) .." وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ" ..(الأنعام /٨٥) .." وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" ..

(الصافات / ١٢٣) .. "سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ" ..(الصافات / ١٣٠).. "وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ"..(ص /١٧).."وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا"..(الإسراء /٥٥).."وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ " .. (الأنبياء/٨١) .." وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا " .. (النمل /١٥) .." إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا . وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" .. (النساء/١٦٤،١٦٣) .. ويخاطب القرآن المسلمين فيوصيهم : ـ .." قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" .. (البقرة /١٣٦ ، آل عمران /٨٤) ..

ولم يتحدث كتاب من الكتب السماوية عن زكريا ويحيى ومريم والمسيح بمثل الحديث البليغ الرائع الذى ورد عنهم فى القرآن الكريم .. " إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا

فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّـمِيعُ الْعَلِـيمُ . فَلَمَّـا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِـنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَـنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَـرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ، هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِـي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الـدُّعَاء ، فَنَادَتْـهُ الْمَلآئِكَـةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى مُصَـدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَـيِّدًا وَحَصُـورًا وَنَبِيًّـا مِّـنَ الصَّـالِحِينَ" .. (آل عمران/ ٣٥ ـ ٣٩) "وَإِذْ قَالَـتِ الْمَلاَئِكَـةُ يَـا مَـرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَـى نِسَـاء الْعَـالَمِينَ ".. (آل عمران/ ٤٢) .. " إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًـا فِـي الـدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْـلاً وَمِـنَ الصَّالِحِينَ ".. (آل عمران / ٤٥ ـ ٤٦) .." وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْـنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ".. (الحديد /٢٧) .."إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ".. (النساء /١٧١) ..

" وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ"..(البقرة /٨٧،٢٥٣) ..

والمسيح فى القرآن الحكيم أعز من أن يقتل أو يناله ما ينال البشر ، فيقول القرآن .." إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ " .. (آل عمران /٥٥) ..

وعمن افتروا من بنى اسرائيل على مريم والمسيح كذبا .. " وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا " .. (النساء/١٥٦ ــ ١٥٨)

هذا الاحتفال فى الذكر الحكيم بأنبياء الله ، قد انحفر فى وجدان المسلمين ، فلا تجد أبناء ديانة من الديانات يوقرون الأنبياء جميعا مثلما يوقرهم المسلمون .. ولا تجد من أبناء هذه الديانات أو الملل والنحل من يسمون أبناءهم بأسماء الأنبياء مثلما يفعل المسلمون .. فمن أسماء المسلمين التى درجوا عليها منذ نزل الإسلام نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، وعيسى ،

وموسى ، ويحيى ، وشعيب ، وأيوب ، وهارون ، وزكريا ، – ومريم .. وهذا الاحتفال بالنبوات والرسالات والأنبياء ، هو صدى حقيقى وعميق لعالمية الإسلام الذى استوعب كل هذه الرسالات وأتى بالدين الخاتم الذى شمل فى حناياه ما أتت به باقى الرسالات وقدم للإنسانية الدين الشامل الذى يتسع للبشر جميعا وللناس كافة .

فالرسل فى شرعة الإسلام .. فروع شجرة واحدة وبناة بيت واحد يؤسس السابق للاحق ويكمل اللاحق ما سبق إليه السالف .. لذلك كان من " عالمية الإسلام " .. .. وعناصر " العالمية " وموجباتها فيه ، أمر قرآنه المجيد بالإيمان بجميع الرسل وما أنزل إليهم جميعا ، ـ فقال سبحانه وتعالى فى تعريف المؤمنين " والَّـذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. " (البقرة ٤ ، ٥) .. ولأن الرسالة المحمدية هى الرسالة الخاتمة، فإنها أرشدت إلى ما تكمل به الإنسانية فى عالم الروح والمادة ، وعمم الخطاب فيها للناس كافة بلا تفرقة لجنس أو لون أو عصبية أو جاه أو سلطان .. وإنما العبرة بالتقوى والعمل الصالح ..

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ".. (الحجرات/١٣)

عالمية الإسلام تتجلى فى هذا الخطاب الواحد إلى " الناس " كافة .. فى لفتها الأنظار وقيام بنيانها على أن الإنسانية ترجع فى أصلها إلى أصل واحد ، وإلى خلقة واحدة .. فى القرآن المجيد : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا " (النساء ١) .. " أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ" (الأنعام ٨٩) .. " هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ " (الأعراف ١٨٩) .. الأسرة الإنسانية أسرة واحدة لا فرق بين جنس وجنس ، ولا بين شعب وشعب .. وإنما جعلهم تعالت حكمته أمما وشعوباً ليتعارفوا.. ويتواصلوا ، ويتعاونوا .. وليعرف بعضهم بعضا فى قرب القرابة وفى بعدها ، فى قوة

الآصرة وفى ضعفها .. ليتواصلوا وليقووا الوشائج ويتبادلوا المنافع ويتعاونوا على البر والخير لا على الإثم والعدوان ..

الإسلام "عالمى" يحمل مقومات العالميـــة .. ومن مقومات عالميته أنه لا ينغلق على بنيه ، ـ ولا يجعل الرب رباً لقوم ، وإنما هو خطاب السماء إلى الدنيا .. بأمكنتها وأزمانها وشـــعوبها وقبائلـــها . كرامة الآدمى ليست رهناً ولا وقفاً على عنصر ولا نسب ، وإنمـــا الآدمى أمام الله تعالى فرد بذاته .. قيمته بتقاه وعمله ، لا بجنســـه وحسبه ونسبه .. وأبواب السماء هى أبواب الله ..رب العالمين .. مفتوحة على مصاريعها تستقبل ابتـــهالات المـــؤمنين ولا تغلـــق مصاريعها دون ضراعات التائهين ولا توبة التائبين .. هـــذه هـــى " العالمية " التى تميزت بها الدعوة المحمدية التى حرص رسولها ـ عليه الصلاة والسلام ـ على لفت الأنظار إلى معانيهـــا وموجبـــاتها ومسئولياتها .. عنه عليه أفضل الصلوات أنه قال " الناس رجـــلان .. بر تقى كريم على الله (ببره وتقاه) ، وفاجر شقى هين على الله (بفجوره وشقوته) ـ الناس كلهم بنو آدم ، وخلق الله آدم مـــن تراب " .. ثم تلا عليه الصلاة والسلام .. " يَا أَيُّهَـــا النَّـــاسُ إِنَّـــا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِـــلَ لِتَعَـــارَفُوا إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" .. (الحجرات /١٣) .. ويسمعه الناس يقول لهم فى حجة الوداع :" ألاّ إن ربكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود – إلاّ بالتقوى .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .. لذلك كانت الأمة الإسلامية أمة وسطا ، لا لتتفاخر بذلك على الناس ، – ولا لتتباهى على الناس ، – وإنما لتحمل"مسئولية " هذه الوسطية إلى الدنيا .. " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا " .. (البقرة /١٤٣) .. نعم .. الأمة الإسلامية فى موقع الشهادة على الناس ، ثم هى مشهود عليها من الرسول عليه السلام – وهى لا تكون فى موقع الشهادة على الناس ، ولا تأمن شهادة الرسول لها ، ما لم تتقدم إلى الإسلام .. إلى كل ما فيه من أسس لهذه العالمية .. ما لم ترتفع فهماً وعملاً وسلوكاً إلى الإسلام وقيم ومبادئ وأحكام الإسلام التى لو فهمها المسلمون حق فهمها لاستقامت لغة خطابهم وصدروا " الإسلام " إلى الدنيا تصديراً تعرف به أنه بالفعل أكمل الرسالات وأحقها بعالمية تحترم كرامة الإنسان حيث كان ..

روح الإسلام
القرآن معجزته الممدودة
إلى الدنيا إلى يوم الدين

عالمية الإسلام التى أعنيها ، وأدعو المسلمين إلى الالتفات إليها ، هى الصلاحية والقدرة على الامتداد فى المكان وفى الزمان .. لا يوصف ولا يصلح للعالمية ما انغلق على مكان وافتقد مقومات القدرة على الانتشار فى المكان ليعم الدنيا بأسرها .. ولا يوصف ولا يصلح للعالمية ما اقتصر نظره على مساحة آنية أو زمنية أو على ظروف وقتية أو عابرة وافتقد مقومات القدرة على صلاحية الامتداد فى الزمان امتداداً لا تحده حدود تقعده حبيس زمن غابر مضى ، ولذلك فإن هذه الصلاحية والقدرة ليست كلمة تقال ، أو وصفاً يسبغ ، وإنما هى " مقومات " قائمة وموجودة يجب التفات الأنظار إليها فى الإسلام ..

روح الإسلام ، هو هذا الجوهر الدائم الباقى ، فى روح هذا الزمان وآتى الأزمنة مثلما كان فى روح الزمن الغابر .. قيمة الإسلام هى فى كونه دينا حيا لحاضر حى ومستقبل أكثر حياة - وليس مجرد جزء من ماض تليد انصرم ننظر إليه بحسرة وإشفاق..

قيمة التراث المجيد ، ليست فى إلزامه وتقييده لعقول جديدة ونفوس جديدة مزودة مع الإسلام - بالضرورة - بزادها الحاضر من علوم عصرها ومعارفه وأفكاره وأذواقه ، وإنما قيمة هذا التراث المجيد فى أنه خطوات خطاها المسلمون فى رحاب هذا الدين سبقوا بها زمانهم وعالمهم نحو مزيد حققوه ، من الاستنارة والمعرفة والعلم -. ولم يكن المسلمون الماضون قادرين على تحقيق ما حققوه ، لولا الروح العظيم الذى حمله هذا الدين ، والمقومات السرمدية التى تدفع المسلم دائما إلى الله .. والحق .

عاش الإسلام ، وسيعيش ، لأن جوهره ومقوماته خطاب ونظام للدنيا بأسرها على امتداد الزمان والمكان .. فالدين لا يستطيع أن يعيش طويلاً على مجرد الإلزام والقسر أو الإرغام ، ولا أن يمتد زماناً ولا مكاناً مالم يكن صالحاً لاستيعاب وتنظيم حياة الأحياء - جميع الأحياء - على اتساع المكان وامتداد الزمان ..

القرآن . معجزة الإسلام إلى الدنيا ، آية ناطقة على هذه القدرة الهائلة ، ووجوه إعجاز هذا القرآن عديدة ملأت ملايين الصفحات لفقهاء عظام استقصوها ودرسوها وتأملوها وكتبوا فيها آلاف المصنفات يجمع بينها جوهر لا أريد أن أفلته ، هو أنه يغنى

الإنسانية فى باب الاعتقاد ، ولا يصدها عن سبيل المعرفة والتقدم .. يعطيها كل ما يعطيه الدين من خير ، ولا يحرمها شيئا من خيرات العلم والحضارة ..

القرآن معجز فى بلاغته ورصفه وبيانه ـ فى جرسه ومعماره الموسيقى ، فى الشحنة الغامضة التى تتغشى القارئ له ، فى إنبائه بالغيب .. فى هدايته إلى الإيمان والتوحيد .. فى احترامه للعقل .. فى دقة ونظام أحكامه فى العبادات والمعاملات وشتى شئون الحياة .

هذا وغيره من إعجاز القرآن ، مقوم أساسى من مقومات عالميته .. إلاّ أن إعجازه الأكبر – حتى فى معنى المعجزة فيه – هو ما طوى عليه من صلاحية تعم الدنيا وتخترق الزمان بلا انقطاع ..

فى دعوة النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى الإقبال على مأدبة القرآن ، ذكر فيما وصفه به أنه : " لا تنقضى عجائبه ، ولايخلق من كثرة الرد " . خذ مثالا لذلك منطق المعجزة فيه والتى كانت إحدى لوازم الإقناع والدعوة إلى الإيمان ...

كانت مشكلة الدعوات تتجلى فى مقاومة العقول لكل جديد لم تألفه ومسارعتها إلى التكذيب ، فكان " خرق " المألوف المعتاد ، و " الخوارق الحسية " المخالفة للعادة وسنن الأسباب

والمسببات ـ " حجة الصدق " التى أيد الله بها الأنبياء والرسل قبل النبوة المحمدية .. وأحصى القرآن الحكيم هذه الخوارق والمعجزات ، فروى معجزة نوح عليه السلام والسفينة التى أمر بصنعها ونجته والذين آمنوا معه من الطوفان " وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ . وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ . وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ . وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (هود /٣٦ ـــ ٤٤)، وهود الذى حاجه قومه بأنه لم يأت إليهم ببينة

.. " قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ" (هود/٥٣ــ٥٤) .. عاقبهم الله بريح صرصر عاتيه ــ تدمر كل شئ بأمر ربها .. يروى القرآن المجيد ذلك فيورد فى سورة الأحقاف : " فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ " (الأحقاف ٢٤، ٢٥) .. وجاء فى سورة الحاقة قوله عز وجل : "فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ" (الحاقة ٥ ــ ٨) ..وصالح الذى سأله قومه ثمود أن يخرج لهم من صخرة ناقة ، فأيده الله ــ بعد أن أخذ صالح عليهم العهد ــ بناقة انشق عنها الصخر لتكون لهم آية ، وأمرهم ألاّ يمسوها بسوء ، ــ فلما فعلوا وعقروها ــ أخذ الذين ظلموا " الصيحة " فأصبحو فى ديارهم جاثمين .. " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ

رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ . قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـــذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيــب . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ . وَيَـــا قَـــوْمِ هَــذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّــوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ . فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُــمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ . فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَــالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَــوِيُّ الْعَزِيزُ . وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ " (هود ٦١ــ ٦٨) ..وقوم لوط الذين كانوا يعملون السيئات ، فجــاءهم أمر ربهم الذى جعل سبحانه عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود .. "وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَــاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَــذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَــؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ . قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَــدِيدٍ .

قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ" (هود /٧٧–٨٣) .. ومدين ، قوم شعيب الذين حذرهم من نقصهم الكيل والميزان أن يصيبهم مثل ما أصاب أقوام نوح وهود وصالح ولوط – فلما أبوا واعتدوا وجاء أمر ربهم اخذتهم الصيحة مثلما أخذت ثمود .. وإبراهيم الخليل الذى أيده الله بمعجزة حمل امرأته وهى عجوز .. " وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ . وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ . فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ

مَرْدُود " (هود/ ٦٩ــ٧٦) .. والنار التى جعلها سبحانه برداً وسلاماً عليه .. " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ . قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ " (الأنبياء ٥١ــ٧٠) ، والطير الأربعة التى أمره ربه سبحانه وتعالى ففرقها أجزاء على قمم الجبال ودعاهن

فأتينه سعيا بأمر ربه .. " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـــي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَـالَ فَخُـذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُـزْءًا ثُمَّ ادْعُهُـنَّ يَأْتِينَـكَ سَـعْيًا وَاعْلَـمْ أَنَّ اللّـهَ عَزِيـزٌ حَكِـيمٌ " (البقرة / ٢٦٠) .. وموسى الذى كلمه الله تكليما وآتاه تســع آيات بينات فما ظنوه إلاّ مسحورا .. " قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُـواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَـلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً " (الإسراء / ١١٠) .. آتاه الله آية العصا التى لقفت ما يأفكه السحرة فبطلت أفعالهم وانقلبـوا صاغرين .. فى سورة الشعراء يقول الحق سبحانه وتعالى : " فَـأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ " .. (الشعراء / ٤٥ ــ ٤٦) يروى القرآن المجيد ما كان بين موسى والسحرة فيقول فى سورة الاعراف .. " قَالُواْ يَا مُوسَـى إِمَّـا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ . قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَـوْاْ سَـحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَـلَ مَـا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ . وَأُلْقِيَ السَّـحَرَةُ سَاجِدِينَ"..(الأعراف/١١٥ــ١٢٠) .. وآتى الله تعالى موسـى

آية يده التى وضعها فخرجت من جيبه بيضاء بغير سوء (النمــل / ٧ ــ ١٢، الأعراف ١٠٨) - . وأيده بأن أخذ آل فرعون بالجدب ونقص الأموال والأنفس والثمرات (الأعراف / ١٣٠) ، - إلى آخر ما قصه القرآن من الآيات المفصلات فلم يواجهها الضــالون إلاّ بالإستكبار والإنكار .. ثم لم يمنع بنى إسرائيل من عصيانهم لموسى آية البحر الذى فرقه لهم وأغرق المطاردين فى اليم ،ولا منعتهم كل هذه الخوارق الحسية من أن يتنكروا له ويتخذوا العجل من بعده .. (البقرة / ٩٢) .. والخوارق التى أيد الله بها ســليمان الذى أعطاه الله العلم والحكمة والسلطان ، وأعطاه العلــم بلغــة الحيوان ، والنمل والطير .. وسخر له الــريح والطــير والجــن .. (النمل ١٥ــ٤٤، سبأ /١٢ ــ ١٤).. ومع ذلــك فــإن هــذه الخوارق الهائلة لم تمنع من تكرار مشاهد الإنكار والعصيان .. ثم بعد نبوة يحيى ، وآية ميلاده لأبوين شيخين طاعنين ، أيد الله المســيح عيسى بن مريم منذ الحمل فيه حتى رفعــه الله بآيــات معجــزات هائلات : حمل مريم فيه بغيرأب ، وكلامه فى المهد ، وجعلــه المــاء خمراً فى عرس" قانا الجليل " ، وتصويره الطين على هيئة طير ونفخه فيه فتكون طيراً بإذن الله ، وابراؤه الأكمه والأبــرص ، واحيــاؤه الموتى بإذن الله ، وإخباره بنى إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون فى

بيوتهم ، – ومع ذلك أحس عيسى منهم الكفر ، ومكروا لصلبه وقتله ومكر الله والله خير الماكرين . " إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ (آل عمران / ٥٥) .

يروى لنا القرآن أن " حجج الصدق " هذه ، بما تضمنته من خوارق الماديات والحسيات ، قد قابلها الكثيرون بالإنكار فى زمان حدوثها ، وازداد النكران لها والاستهزاء بها بانصرام الزمن وتباعد وخفوت الصور التى يختلف من تلقاها بالسماع – اختلافاً مؤكداً – عمن استقبلها وعاينها بالمشاهدة .. بل إن المعاينة والمشاهدة لم تمنع الكفار المكذبين عن الصد والإمعان فى الإنكار والهزء والكفر . وما إن تمضى دورة ، وتبدأ أخرى .. حتى يظهر ويعم الفساد فى البر والبحر بما ألفه واعتاده الناس من صد وعقوق وإلحاد .. فيخاطب القرآن نبيه المصطفى داعيا له أن يلفت نظر الكفار والمشركين إلى تأمل ما كان من عاقبة مشركى الأمم السابقة الذين كذبوا بالله ، وعصوا رسله وأنبياءه ، وأوصدوا قلوبهم ظلما فى وجه كل دعوة ترشدهم إلى الحق وتروم هدايتهم إلى سواء السبيل ..يقول القرآن لمحمد عليه السلام: "قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ "(الروم ٤٢) .

المعجزات المادية أو الحسية ، - محدودة بطبيعتها – بحدود المكان والزمان .. يبتعد تأثيرها بابتعاد المكان مثلما يبتعد بابتعاد الزمان .. ولا تعدم أن يأتيها الإنكار ممن عاين وشاهد .. فالمشاهدة والملاحظة محصلة تفاعل مركب بين الحدث وذاتية المشاهد المراقب التى تختلف من شخص لآخر ، سواء فى قدرات رصده أم فى صدقه أم فى نواياه .. وقياس الوقائع الحادثة على النواميس هى بدورها مسألة نسبية ، وقد لا يعتبر خارقا للعادة والناموس فى زمان ما كان فى نظر الناس خارقا للعادة فى زمان سابق ... ومن يسبق إلى خارقة بمقياس زمانه بحكم العلم المتاح فيه ، قد يكشف ما يتاح فى العلم من بعدها أنها لم تكن خارقة فى الحقيقة ، يضاف الى ذلك أن الخارقة المادية أو الحسية ليست حجة إلا على من رآها وشاهدها فى مكان وزمان حدوثها، وتفقد بالضرورة قوة تأثيرها وحجم مصداقيتها بطول الشقة أو مرور الزمن ... وتآكل وخفوت صورها وأثرها ومقدرة الناس على قبولها والاقتناع بها ناهيك بالتسليم والإيمان !!

لذلك كان القرآن ذاته هو معجزة الإسلام إلى الدنيا .. معجزة يصدق عليها ما قاله المصطفى من أنه " لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق

من كثرة الرد " .. فآياته وأحكامه فيه .. باقية إلى أبد الآبدين ، يلم بها من يطالعه اليوم كما ألم بها من استقبله بأمس .. ورصفه وجرسه ومعماره الموسيقى يتغشى من يتلوه اليوم مثلما تغشى من تلوه بأمس .. وحكمة ودقة ما طوى عليه من نظام للحياة والأحياء ، وللعبـــادات والمعاملات ، وشتى شئون الحياة .. فى نظام بديع لم يفرط فيه مـــن شيء .. هى حقائق يلم بها من يدرسه اليوم بمثل ما ألم بها من درسه أمس .. ثم هو بفلسفته لم يصادر على تطور الحياة وأعطاها حقها من الالتفات فى إطار الأصول والثوابت التى لا تتغير ولا ترد عليهـــا أو تمسها تقلبات الأيام والظروف ..

لذلك فمن مظاهر " العالمية " فى الإســـلام ، ـ أن دعوتـــه لم تلجأ إلى إبهار العقول بالحجج المادية الحسية المقرونة بزمان حصولها فينقضى وقعها بفوات الزمن وينطمر أثرها مع الأيام ويعجز عـــن استحضارها من فاتته - زمانا ومكانا ـ فرصة مشاهدتها ، وإنما جعل الإسلام حجته إلى الدنيا حجة أبدية لا تنطمر ولا تتباعـــد بمـــرور الزمن .. ذلك هو القرآن الحكيم الذى يجليه الزمن ولا يطمره .. يلم بإعجازه من عاصر نزوله ومن لم يعاصره .. من مضى ومـــن يعيش ومن يأتى إلى أبد الآبدين .. لايخلق بمرور الـــزمن ، وإنمـــا

يزداد تجليا بتزايد فهم الناس لآيات إعجازه بما ينضـــاف إلـــيهم ويتراكم لديهم بمضى الوقت من تجارب وعلوم وثقافـــات ورؤى ومشاهدات ... فجعل الله بذلك آيته إلى الناس آية غـــير محـــدودة بزمان ولا بمكان ، وذلك مقوم من مقومات " العالمية " ..

ومن لوازم هذه " العالمية " صلاحية ما طوى عليه الكتـــاب الحكيم من أحكام ومعاملات لكل مكان ولكل زمان ، وتحقيقـــا لذلك قامت الفلسفة القرآنية على تفرقة حكيمة خالـــدة بـــين الأصول والثوابت ، وبين المتغيرات .. فخارج دائـــرة الأصـــول والثوابت من توحيد وعبادات وقيم ومبادىء لا تتغير ولا تتطـــور بتغير الأماكن والأزمنة ، حرصت الفلسفة القرآنية على الاكتفاء بالقواعد العامة دون التفصيلات فيما يتغير أو تختلف تطبيقاتـــه باختلاف الظرف الزمانى أو المكانى ... فالشورى – مـــثلا – وهـــى التعبير الحى عن ديمقراطية – ومن ثم " عالمية " الإسلام ـــ حســـب تعبير هذا الزمان ، ... لم تعرض لجزئيات ولا تفصيلات ، واكتفت بالحض عليها والترغيب فيها وبيان لزومهـــا .. فالشـــورى مـــن صفات المؤمنين ... " وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْـــنَهُمْ " (الشـــورى/٣٨) ..والنبى ذاته – عليه السلام ، مأمور بالشورى ومندوب إليها ..

" وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ " . (آل عمران /١٥٩) ".. فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ " . (الغاشية /٢١ ـــ ٢٢) .." وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ". (ق/٤٥) ، - والمراجعة لا يعز عليها قرار ولا يعز عليها أحد ... حتى النبى نفسه، فقد رأى ورأى المسلمون رأيا فى بدر، وكرهه سعد بن معاذ ، فنزل الذكر الحكيم بمراجعة وعتاب ، ضاربا قمة الأمثال على وجوب المشاورة فى أمور الجماعة .. " مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ".. (الأنفال ٦٧/٦٨) .. وفى التوصية بالشورى قال النبى (ص) : "ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم ... وفى رواية "إلا وعزم الله لهم بالرشد أو الذى ينفع " ...

شاور النبى ، وأخذ بمشورة الحباب بن المنذر فى بدر .. وأخذ بالشورى فى غزوة أحد برغم أنها خالفت ما ارتآه .. وشاور وأخذ بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق بغزوة الأحزاب ...

ومنه عليه السلام تعلم صحابته ، ـ فشاور أبو بكر ، وشاور عمر الذى كان يجمع شيوخ الصحابة حين يحزبه أمر ، وعقد الأمــر فى شأن الولاية من بعده لمجلس الشورى ليختار من بين السبعة واحداً شريطة ألا يكون ابنه عبدالله بن عمر .. وتعددت صور وأشــكال الشورى ، لأن حكمة القرآن اكتفت بالقاعدة العامــة ولم تضــع تفصيلات نظام خاص يقيد الناس ويجمد اجتهادهم الواجــب أن يلاحق تطورات الزمن وظروف الأحوال !

وهذه الفلسفة القرآنية فى " الشورى " واكتفاؤها بالمبدأ العام والخطوط العريضة ، هى معلم من معالم العالمية والتى أتاحت إعمال مبدأ الشورى فى أزمنة متعاقبة وفى ظروف متغيرة ، التــزم فيهــا المسلمون بالمبدأ وان اجتهدوا فى تفصيلات التطبيق ... فإذا خرج تطبيق ما عن مبدأ من المبادىء الاســلامية ، كــــان العيــب فى التطبيق لا فى الإسلام .. ولذلك فإنه يخطىء مــن يحســب كــل التطبيقات التى جرت فى التاريخ على الإسلام .. ويخطىء أكثر من يعتبر الاجتهادات والتفسيرات البشرية من الدين أو جــزءا مــن الدين .. إن الذين يضيفون حاصــل التفســيرات فى التطبيقــات والتأويلات البشرية إلى القرآن كتاب الإسلام ، ينعطفون بــه ـ

دون أن يدروا – من الميدان الواسع الفسيح إلى الزقاق الضيق !! فميزة القرآن – فى الشورى مثلا – أنه اكتفى اكتفاءً رشيدا مقصوداً بالمبدأ العام ، تقديرا لضرورات الظروف المتغيرة التى قد تستدعى تفصيلات بطبيعتها متغيرة أو متطورة ، والتوقف عند إحداها لتعميمه بمقولة إنه صار جزءا من الدين هو فى الواقع تقزيم للدين واقتلاع لأحكم مافيه ، حين رأى فى حكمة ورشاد أن الوقوف عند المبدأ العام أجدى وأنفع للناس فى مسألة ما من الإغراق فى التفاصيل التى إن عدت من الدين لاصطدمت بسنة التطور بينما الإسلام لم يتزل إلى زمان دون زمان ، وإنما للدنيا بأسرها وإلى أبد الآبدين .

والشورى – كمثال، قد اختلفت تفصيلات تطبيقها،فبقيت أحيانا فى دائرة المبدأ العام للشورى ، وخرجت أحيانا عنه ، كما خالطتها السياسة أحيانا مخالطة خرجت بالتطبيق عن بعض المبادىء الأخرى للإسلام ..

كان المسلمون على مبدأ الشورى فى مبايعة أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ، برغم اختلاف الصور والتفصيلات ، أتاح لهم ذلك أن القرآن الحكيم ألزم بالمبدأ فالتزموه ، وترك التفاصيل

فاجتهدوا فيها.. والاجتهاد فى التفاصيل هو اجتهاد فى السياسة .. قد يصيب وقد يخطىء .. وقد يراعى اعتبارات سياسية وقتيـــة فى بعض الأحيان ..

لم يكن من الدين، وإنما كان من السياسة،أن يضاف الانتماء إلى "قريش " كشرط من شروط الولاية .. ولم يكن من الدين ، وإنما من السياسة ما احتج به أبو بكر يوم السقيفة من أن العرب - وقتها - لن ترضى بأحد من غير قريش،فهذا من باب السياسة والتحييد والاستحسان - فى أوانه الموقوت - لا من أحكام الدين ، أجل إن الإسلام حض على محبة وتكريم وتوقير آل البيت ، ولكنه نهى بقرآنه وسنته عن أى تمايز مرده الجنس أو اللون أو النسب .. ومحال أن يكون الانتماء إلى قريش شرطاً للولاية - بينما الرسول عليه السلام يقول " لا فضل القرشى على حبشى "، وبينما آخر ما أثر عن النبى عليه السلام قوله للمسلمين فى خطبة الوداع : " ألا إن ربكم واحد .. كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، - ولا لأسود على أحمر ، - ولا لأحمر على أسود إلاّ بالتقوى .. " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .. لقد أبطل الإسلام حجة التفاضل بالأحساب والأنساب ومنازل الآباء ، وأبطل منطق

الحبين للعصبيات .. إن البشرية فى شرعة الإسلام - الدعوة العالمية - تتسع للناس جميعاً على سنة العدل والمساواة .. ولا تقيم ميزاناً للتفاضل بين الناس إلاّ بمعيار الإيمان والتقوى والعمل الصالح، والقدرة والصلاحية .. يقول عليه السلام : " من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ".. وفى القرآن الكريم : "إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ" .. (القصص/٢٦) - وقال أهل الفقه فيمن يُقدم : هل القوة أم الأمانة " فى تطبيق قول الحق سبحانه وتعالى :"إن خير من استأجرت القوى الأمين" .. قالوا إن كل ولاية بحسبها ، تقدم الأمانة على القوة فيما ترجح فيه الامانة ، وتقدم القوة فيما يحتاج أكثر إلى قوة ، وهى فى جميع الأحوال معايير موضوعية .. فلا تفاضل بحسب ولا بنسب .. وكثيراً ما عقد عليه الصلاة والسلام الإمارة على القرشيين لغير قرشى .. أمر أسامة بن زيد - وهو غير قرشى - على سراة المهاجرين والأنصار ، وفى المهاجرين زعماء من قريش .. ولم نر أبا بكر ولا عمر ولا عثمان بن عفان ولا عبد الرحمن بن عوف أميراً على سرية من السرايا على سابقتهم فى الإسلام ومكانتهم فى قريش وبين المسلمين !!!..

إن على بن أبى طالب كان جـــديراً بالخلافـــة ، لعشـــرات الأسباب الموضوعية ، التى برهنت عليها سابقته ، وجهاده، وبـــلاؤه ، ومواقفه ، ومعدنه ، – وقوته فى الحق ، – إلى غير ذلك من الصـــفات والشمائل والمناقب التى كان جديراً بها أن يستكمل مسيرة أبى بكر وعمر ، ومع ذلك يضيف المؤرخون إلى مناقبه فى مجـــال أحقيتـــه الخلافة – أنه كان ابن عم النبى عليه السلام .. وهذه "إضافة " لا تحتاج إليها مناقب الإمام العديدة .. ثم هى لا تعـــى أن ســـندها " عصبية " نهى الإسلام ورسوله نفسه عنها .. لقد كان من أعمـــام النبى حمزة ، وأبو لهب - ومع ذلك فشتان بـــين الـــرجلين رغـــم قرابتهما العرقية الواحدة من المصطفى عليه السلام .. أولهما أسد الله وأسد رسوله ، وعلى رأس الصحابة المجاهدين وبـــذل روحـــه استشهاداً فى سبيل الله ، .. وثانيهما فى الدرك الأسفل بين غـــلاة المشركين الذين آذوا النبى والمسلمين ، ونزل فيـــه وفى زوجـــه أم جميل قرآن يحمل إلى الدنيا على جميع الأزمان ما أساء به هذا العم - وزوجه – إلى النبى الكريم .. " تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَـــبَّ . مَـــا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَـــبٍ . وَامْرَأَتُـــهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ " .. (المسد) .

" العمومة " إذن - فى ذاتها - لا معنى لها ، فالـــذى رفـــع "حمزة " هو عمله وجهاده وبلاؤه واستشهاده ، والـــذى عصـــف "بأبى لهب " .. وما سيصلاه من نار ذات لهـــب .. هـــو صـــنيعه وأوزاره وشروره !!!!

كذلك ابن نوح - لم تنفعه بنوته للنبى نوح ، ولا عصـــمته هذه النبوة من الشر الذى أوقع نفسه فيه .. وفى القرآن الحكيم : " وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِـــمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَـــانَ مِـــنَ الْمُغْرَقِينَ " .. (هود/٤٢ ــ ٤٣) .. " وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّـــهُ فَقَـــالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَـــا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُـــكَ أَن تَكُـــونَ مِـــنَ الْجَـــاهِلِينَ " .. (هود/٤٥ــ٤٦)

لا عمومة ، ولا بنوة ، ولا قرابة .. لا أعراق ولا أحساب ولا أنساب .. وإنما أعمال .. لذلك لم يكن من الدين ، - وإنما كـــان من السياسة ، - الأسر التى تبوأت سدة الحكم لمجرد الانتســـاب إلى

هذا أو ذاك من ذوى المكانة أو السابقة ... لم يكن من الدين ، بل كان من السياسة المقيتة المشجوبة والبعيدة عن الإسلام – قيام معاوية بتحويل الخلافة إلى ملكية وراثية حين ألزم المسلمين بمبايعة ابنه يزيد فى حياته ، ففتح فى تاريخ الإسلام رتقاً هائلاً وضاراً حاكاه فيه من جاءوا بعده ... لم يكن من الدين ، وإنما كان من السياسة ، قيام الدولة العباسية – وأول خلفائها السفاح !! – انتساباً إلى العباس عم النبى أو ابنه عبد الله بن عباس ، فلم يكن العباس الذى نسبت إليه الدولة فى مكانة متميزة بين السابقين الأولين من الصحابة ، بل وكان ختام ابنه عبد الله بن عباس مع الإمام على ختاماً لا يتفق مع علمه وسابقته وحسن بلائه ... حين سول له غضبه من ابن عمه الإمام ، أن يحمل ما قدر على حمله من بيت المال ويلحق بمعاوية بالشام !! .

لم يكن من الدين ، وإنما كان من السياسة ، قيام الدولة الفاطمية انتساباً إلى السيدة فاطمة الزهراء عليها الرضوان ، على علو مكانتها وقربها من الرسول عليه الصلاة والسلام ... فلم يكن الرسول يعطى ولاية لقرابة ولا لنسب ولا لأعراق ... وإنما كان يقول : " من أمر أحداً محاباة فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين" . .

.. " لا فضل لقرشى على حبشى .. "وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " !!!!

فى القرآن قيمة المرء بعمله وتقواه .. لاحسب ولا نسب ولا أعراق .. القرآن نزل دينا للعالمين ، لذلك فإن من يعجزون عن رؤية هذا الجانب الواضح الجلى القوى فى القرآن المجيد يخرجون به من الميدان الفسيح إلى زقاق .. يسلخون عن الإسلام صفه .. من أجمل وأبلغ وأحكم صفاته .. يرتدون به من " العالمية " إلى عرقيات وعصبيات تخالف حقيقته ومبادئه وجوهره !!!

دين العقل والتفكير

يتسم الدين بالعالمية ، حين يختار " العقل " أداة " لفهمه ، وحين يجعل من التفكير – وأداته العقل – فريضة .. يعول عليهـا فى أمـر العقيدة وفى أمر التبعة والتكليف .. ولأن إرادة الله تعالى قد شـاءت للإسلام أن يكون دينا للعالمين به تختتم الرسالات ، ويعم خطابه إلى الدنيا بغير حد فى المكان أو الزمان ، كان القرآن هو " المعجزة " التى حملها رسول القرآن إلى الناس .. والمعجزة – كـالخلق والاصـطفاء للنبوة – شأن من شئون الله ، يختار منها سبحانه وتعـالى مـا يوافـق المصلحة .. وقد أخبر تعالت حكمته فى سورة الإسـراء أن المعجـزة المادية لم تكن سبيلا إلى تصديق السابقين .. فقال :"وَمَـا مَنَعَنَـا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ "(الإسراء/٥٩) .. وحـين أعطى الله لنبيه محمد القرآن ، فإنه أعطاه وأعطى للدنيا بذلك نبـوة هداية ، ترشد العقل بالبينـة والفهم والموعظة الحسنة ولا تفحمـه بالمعجزة المسكتة ، فالقرآن لم يكن محـض اسـتبدال معجـزة بمعجزة، فإنما هو سبيل لجعل النبوة نبوة هداية تخاطب الوجدان والعقل والضمير، وليست نبوة اسـتطلاع للغيـب وكشـف للأسرار وإفحام للعقول بالخوارق والمعجزات .. أراد الله تعالى

لنبوة الإسلام أن تخاطب " العقل " " والبصيرة " وتعلم الناس أن النبي ما هو الاّ بشر رسول اصطفاه المولى للرسالة .." قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً" ؟؟ (الإسراء/٩٣) .

نبوة القرآن نبوة فهم وهداية بالنظر والتأمل والتفكير، وليست نبوة استطلاع وتنجيم وخوارق وأهوال .. وقد جاءت سمعة المعجزة (المادية) ميسرة لرسول القرآن يوم مات ابنه ابراهيم وكسفت الشمس وظن الناس أنها كسفت لموته ، فأبى عليهم ذلك ، وأعلمهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاتخسفان لموت أحد ولا لحياته .

فى مقال للعقاد ، عن آراء كتاب الغرب فى نبي الإسلام بين الأنبياء ، أشار لكتاب " القادة الدينيين " " *RELIGIOUS LEADARS* " – لمؤلفيه هنرى توماس ودانالى توماس، وفيه تراجم ثلاثة من الأنبياء الكبار : موسى ، وعيسى ، ومحمد ، .. وثلاثة من أئمة الديانات الكبرى فى الهند والصين والشرق : زرادشت ، وبوذا ، وكونفوشيوس .. فضلا عن تراجم البعض المصلحين : بولس ، ولوثر ، وليولا ، زعيم الطائفة اليسوعية .. يبدأ المؤلفان ترجمتهما لنبى الإسلام قائلين: " فى القرن السابع ، حين بدا على الدنيا أنها أصيبت

بالجفاف ، وحين فقدت اليهودية مولدها واختلطت المسيحية بموروثات الأمم الرومانية البربرية ، نبع فى المشرق – فجأة – ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم ... وإن حكمة الله لعجيبة ذات قوة فى قضائها العجيب ، فإن هذا الينبوع الصافى قد انبثق من أجدب بقعة بين بقاع الأرض قاطبة : صحراء الجزيرة العربية " : وتروى الأخبار المأثورة كثيراً من المعجزات والخوارق التى صحبت مولد محمد وطفولته ، ولكن محمداً لم يذكر هذه المعجزات ولم يذكر قط معجزة متصلة بشخصه أو برسالته ، لأنه لم يأت كما قال بغير معجزة واحدة هى معجزة القرآن الذى تلقاه من وحى الله .. وقد جاء بالدين ليدعو إلى ملة إبراهيم وموسى والمسيح على هدى جديد " .

وفى ختام السيرة قالا :"الإسلام لايخاصم الديانات الأخرى ، بل هو دين يجمع ويؤلف ، ولا يطرد أو يستثنى ، ومن أدب المسلم أن يحترم عقائد غيره ، وأن يؤمن بأن العالم أمة واحدة تدين لإله واحد ، هو رب العالمين " .

الإنسان فى عقيدة الإسلام – مخلوق مكلف مسئول ، قيمته بتقواه وبعمله ، لايسأل إلاّ عن عمله ، ولا يسأل عن فعل غيره

.." كل امرئ بما كسب رهين "(الطور/٢١) .."وَكُــلَّ إنسَــان أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِه وَنُخْرِجُ لَهُ يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ كِتَابًــا يَلْقَــاهُ مَنشُورًا" (الإسراء /١٣) .. يثاب وينجو بعمله لا بالوســاطة ولا بشفاعة كهان أو أحبــار أو رهبان .. يحمل وزره لا وزر غيره من مــيراث الآبــاء الأولــين .."وَلاَ تَــزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْــرَى " (الأنعام /١٦٤، الإسراء/١٥) .. والتكليف قوامه ماتسعه الطاقة .." وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" .(المؤمنون/٦٢) ..وكل مفاضلة بين عقيــدة وعقيــدة عند المسلم فمردها الى سبب ، وســببها قــائم علــى فضــيلة يفهمها العقل .

من مزايا القرآن الكثيرة - فيما يقــول العقــاد فى كتابــه : "التفكير فريضة إسلامية .. مزية واضحة ، هى التنويــه بالعقــل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف .. فى كتــب الأديان الأخرى إشارات صــريحة أو ضــمنية إلى العقــل أو إلى التمييز، ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة وقد يلمح فيها القارئ فى بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منــه ، ولكــن القرآن الكريم لا يذكرالعقل إلا فى مقــام التعظــيم والتنبيــه إلى

وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية ، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة " .

فى القرآن الحكيم لاتخطىء العين تكرار الاشارات فيه إلى العقل بكل وظيفة من وظائفه ، سواء فى مسائل العقيدة ، أم فى بدائع الخلق ، أم فى أمور التبعة والتكليف .. فآيات الخلق البديعة المروية .." لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" .. والخطاب فى القرآن يتكرر فيه .. " أَفَلاَ تَعْقِلُونَ" .. " كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" .. "وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ" .. " لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" .. ، وفى خطاب القرآن لذوى الألباب .. " وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ" .." فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ " .. وفى وصف الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه " وأولئك أولوا الألباب " .. " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ " .. " وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ" .. وفى العقل الذى يفكر ويستخلص ، وفى الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية .. تتكرر الإشارات .. " لعلكم تتفكرون ".." الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ"(آل عمران /١٩١).."إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل /١١) .. " انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ" (الأنعام/٦٥) .. " أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ " (الأعراف/١٨٥) .. " قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ " (يونس/١٠١) .. " أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء " (ق/٦) .. " أَفَلاَ تُبْصِرُونَ" .. " أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ " .. " فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ" ... " لعلهم يَذَّكَّرُونَ" .. " قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ" (الأنعام/١٢٦) .. " إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ" (النحل/١٣) .." فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ"(النحل/٤٣) .." أَفَلاَ يَتذَكَّرُونَ"..وفى تعليم الإنسان .. "وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ" (البقرة/١٥١).."قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (الأنعام/٩٧).

وفى أفضلية العلماء والعلم الذى قوامه العقل والفهم ..." قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ " (الزمر/ ٩) .. " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" (المجادلة /١١) .."خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ " (الرحمن ٣/٤) ... "الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " (العلق) ..

" وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِــهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ" (آل عمران/٧) .

بهذه الآيات ، وغيرها ، تقررت فريضة التفكير - وقوامه العقل - فى الإسلام ، لم يستثن القرآن الحكيم من ذلك شيئا فى مســائل العقيدة أو التبعة والتكليف ..

فى آى الذكر الحكيم ما يلفت الأنظار والبصائر والعقول إلى تدبير الخالق المصور فى هذا الكون العظيم الذى يحفل بأبلغ الدلائل على وحدانية الحق تبارك وتعالى وقدرته وعلى آياته الدالة عليــه .. " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْــلِ وَالنَّهَــارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُــودًا وَعَلَــىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْــتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ". (آل عمران ١٩١،١٩٠) - فى هذه الآيات كان نبى القرآن يقول : " ويل لمــن قرأهــا ولم يتفكر " ويوصى فيقول : " تفكروا فى خلق الله . تفكر ســاعة خير من عبادة سنة ".

هذه الدعوة القرآنية ، والوصايا المحمدية - دعوة إلى إعمــال العقل للتأمل فى خلق السموات والأرض ، وإجلاء البصر فيمــا

امتلأ به الكون من البراهين الدامغة التى ترشد إلى جلال الخالق البارئ المصور ، وتهدى إلى قيوم السموات والأرض الذى خلقهما وما بينهما ، وبقدرته التى وسعت كل شىء وعظمته التى لا تدانيها عظمة ، وتدبيره المعجز شئون هذا الخلق الشامل الفسيح ..

إن التفكر والتأمل وإعمال العقل يلفت الآدمى إلى الوجود الإلهى المتجلى بعظمته فى كل ركن من أركان هذا الكون .. فى هذه الأرض التى تدور حول نفسها لتهبنا الليل والنهار .. فى السماء التى أقيمت بغير عمد .. فى الجاذبية المحسوبة بمقدار لتسير الأفلاك فى مسارها لا تتعداه .. فى الشمس التى تهب الأرض الدفء والحياة .. فى مظاهر الوحدة البادية فى كل الكواكب والأجرام ..

إن النفس الإنسانية ، هنا وهناك ، أمس واليوم وغداً ، لابد مدركة بتأملها العقلى المتبصر ـــ أن هذا الكون العظيم وراءه قدرة عاقلة مهيمنة ..ولابد مهتدية بنور اليقين إلى الإله الواحد الأحد الذى خلق هذا كله من العدم .. الصمد الذى لا شريك له . المتره عن مشابهة المخلوقين .. السميع البصير المحيط بكل

شيء . سبحانه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصـــار ، وهـــو اللطيف الخبير .

هذه الدعوة الربانية إلى إعمال العقـــل ، والتأمـــل والتـــدبر والتفكير فى آيات الله فى خلقه ، دعوه تميز بها الإسلام – الـــدين العالمى – عن كافة الديانات والشرائع . وتميز بها القرآن عن كافة الكتب السماوية ، بما أنزل العقل منزلته ، ودعا إلى إيمان العقـــل المتدبر المتأمل بجانب التصديق بالقلب والوجدان ، فأتم للعقيدة فى الإسلام جناحيها..

بل إن فهم الدين نفسه ، والإلمام الصحيح العميق بأحكامـــه، لا غناء فيه عن العقل .. فالنص – أى نص – يلتقى منذ لحظـــة مـــيلاده بعقل أو بعقول بشرية هى التى تعطيه الدلالات والمعانى التى تفهمهـــا .. وهذه بدورها حقيقة تسلس إلى حقيقة أخرى ، هـــى أن الفهـــم البشرى للنص قد يكون غير النص نفسه ، أو دون النص ، أو زيادة على النص .. فالعملية العقلية فى استقبال النص وتحليله وفهمه وتدبر مقاصده ومعانيه ، عملية مركبة تختلف من شخص إلى آخر ، لـــذلك كان النص الدينى أبدياً ، – وكان الفهم أو التأويل البشرى وقتياً يرد عليه قدرة اللاحقين على مزيد من التعمـــق والتحليـــل والفحـــص

والتدقيق مستعينين بما أضيف إلى العلم على مدار السنين من إضافات أو حقائق أو تضاعيف لم تكن موجودة ، أو لم تكن مفهومة كليـة أو بالقدر الكافى حينما تعرض السلف للنص . لذلك فإن إغلاق الفكـر والفهم والاجتهاد ، هو حكم على الدين بـالموت ، والـدين نـزل للحياة ، ولتنظيم حركة الأحياء .. وسنن الحياة لاتتوقف ، وتطوراتها لاتنتهى ، وكل يوم تقذف مستحدثات العلم ، والاقتصاد والسياسـة والاجتماع ، بمستجدات لم يكن لها وجود ، أو تغيرت معالم وجودها عما كانت عليه سلفا .

إن تطور العلم ومبتكراتـه لا يتوقفـان ، ومسـتحدثات القضايا والمشاكل والحلول بدورها لا تتوقـف .. كوكبنـا فى حركة دائمة، والعلم ومخترعاته فى اندفاع لا يتوقف .. اخترق الإنسان الفضاء ، ووصل إلى القمر والمريخ ، وداس كواكب لم يدر بخلد الإنسان بأمس أن يصل إليها .. بات متاحاً الآن معرفة نوع الجنين فى رحم أمه ، بل والتحكم المبكـر فى تحديـده .. طرأت قضايا نقل الأعضاء والقرنية والتلقـيح والاستنسـاخ ..وزادت الحاجة إلى البنـوك والمصـارف ونظـم التـأمين .. وأصبحت هذه وتلك أقضيات تستوجب الحل ، ويريد النـاس

معرفة رأى الدين فيها .. والدين لا يستطيع أن يعطى لواقـــع الحياة وتطوراتها ظهره ، وإلاّ تخلف عنها وصار دينا وقتيـــا لا يصلح للحياة المتجددة .. الأديان ليست كـــالقوانين تســـتمر بالقهر والإلزام ، وإنما بالرضا والإيمان .

قلنا ، ونقول ، إن الإسلام عـــاش ، وســـيعيش .. لأن إرادة الله شاءت أن تجعله دينا عالميا يمتد فى الزمان والمكان ، يحمل حلولـــه إلى الأحياء مهما امتد الزمن ، وتعاقبت الدهور .. من مقومـــات هـــذه القدرة مكانة ومنزلة ودور العقل فيه .. العقل لايعرف الجمـــود، ولا يتوقف عن التفكير والإبداع ، لا للخروج على الدين ، ولا لابتداع يخالف ما أمر الله ، وإنما لتعميق وتجديد الفهـــم البشـــرى للقواعـــد والأصول التى نزل بها القرآن الحكيم والسنة المطهرة ، وتقديم حلوله للبشرية التى لا تتوقف بدورها عن النمو والتطور والتقدم .

التطور المقصود ليس تطور الدين ، فالدين ذاته ثابـــت خالد أبدى ، لا تتطور الوحدانية ولا الصلاة ولا الزكاة ولا الحج ولا القيم الأخلاقية .. فلا يتطور الصدق والأمانة والإخلاص إلى رذيلة كما أسرف أحد الشيوخ الأجلاء فى اعتراضه على التطـــور .. التطـــور فى الحياة ومستجداتها وما تستلزمه من حلول واستنباط للأحكـــام مـــن

قواعدها الشرعية . كذلك الاجتهاد نفسه ، هو ليس إبتداعاً ولا خروجاً على الدين . الإجتهاد هو للبحث عن الحكم الصحيح من خلال فهم النصوص واستنباط الأحكام وإعمال أدوات أصول الفقه من قياس واستحسان ومصالح مرسلة .. ليس التفكير فى الإسلام عوضاً عن النص أو ما يشبه النص فى الأحكام، بل هو فريضة مطلوبة لما يتوقف عليها من الفهم ومزيد من فهم الفرائض الأخرى . والأمثلة على اجتهاد الخلفاء الراشدين والصحابة - بعد اجتهادات النبى - عديدة وثرية تشهد بأن التفكير والاجتهاد ملمح أساسى من مقومات ديانة الإسلام .. كتابة المصحف، وولاية العهد من أبى بكر لعمر، وتدوين الدواوين ، وضرب النقود ، واتخاذ السجن للتعازير ، وهدم الأوقاف التى بإزاء مسجد الرسول وتوسيعه ، وتجديد الأذان فى الجمعة بالسوق ، وأظهر هذه الإجتهادات ما ظنه البعض مخالفة أوتعطيلاً للنص عندما أوقف عمر توزيع سهم الزكاة على المؤلفة قلوبهم .. كان اجتهاد عمر هو اجتهاد فى فهم النص استخلص منه أنه يعطى الخيرة فى التوزيع وفى تفسير معنى مصارف الصدقات الثمانية ..نظر فوجد الواقع القائم يورى بأن " تأليف القلوب " قد زال فى وقته لزوال دواعيه ، فلم تعد هناك " المؤلفة قلوبهم" ، مثلما لم يعد هناك – الآن – رقيق فبطل اليوم مصرف تحرير الرقاب بحكم تطور الحياة وانتهاء الرق تماماً من العالم ..قريب من ذلك

إسقاط حد السرقة فى عام المجاعة ، فلم يكن ذلك مخالفة للنص ولا تعطيلاً له ، وإنما اجتهاد فى استنباط الحكم الصحيح من واقع مبدأ عام مستمد من النصوص القرآنية ذاتها هو مبدأ الضرورة المسقطة للحد عملاً بقوله تعالى : "فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ " .. (البقرة /١٧٣) .."فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (الأنعام ١٤٥)..(أيضاً النحل ١١٥ ، المائدة /٣) .. لم يكن اجتهاد عمر مخالفة ولا تعطيلاً لنص حد السرقة ، وإنما هو استخلاص سديد للقاعدة الشرعية الصحيحة استناداً إلى المبدأ العام الأعلى فى القرآن ذاته والذى يحكم كل صور الضرورة وما قد تدفع أو تضطر الناس إليه .

لم يكن للإسلام غناء عن استخدام العقل الذى أفرد له هذه المكانة فى الدعوة ذاتها .. وقوامها الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة القائمة على العقل والمنطق .. " ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ". (النحل/ ١٢٥) .. " ولاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (العنكبوت / ٤٦) ..

وكان " العقل " هو أداة الإسلام فى مواجهة الموانع الواقفة فى سبيله ، كالعرف المغلوط ، وعبادة السلف ، والاقتداء الأعمى

بأصحاب السلطة الدينية ، والخوف المذل من أصحاب السلطة الدنيوية ..

من إعلاء العقل وأثره ، أن رفض الإسلام كل صور الكهانة والهياكل .. لا هيكل فى الإسلام " فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ " (البقرة / ١١٥) ، ولا كهانة حيث لاهيكل ، ولا واسطة بين العبد وربه ، ويتولى الإنسان هدايته لنفسه بفهمه وعقله ، فإن احتاج فأمامه أهل الذكر .. " فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" (النحل / ٤٣) .. لم يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنة آبائه وأجداده ، أو خنوعاً لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى العقل والدين .. أو رهبة من بطش الطغاة أو جبروت الأشداء .. كل ذلك فى إطار الوسع والاستطاعة .. "لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا " (البقرة / ٢٣٣) " لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا " (الأنعام ١٥٢، الأعراف ٤٢ ، المؤمنون ٦٢)، .. "لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا " (البقرة /٢٨٦) ..

خطاب القرآن للذين قاوموا الدعوة التزاماً او اقتداءً بما وجدوا عليه الآباء والأجداد .. خطاب قوامه العقل ودعوة إلى إعمال الفكر والعقل .. " أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ

يَهْتَدُونَ" (المائدة / ١٠٤) " أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ " (البقرة / ١٧٠) .. " قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء " (الأعراف /٢٨) (الشعراء/٧٤ ، الصافات / ٦٩ ، التوبة / ٢٣ ، الزخرف ٢٢ ، ٢٣) .. كذلك فى إزالة مانع الانقياد الأعمى إلى سلطان الكهانة (التوبة ٣١ ، ٣٤) ، .. أو الخوف الذليل من السلطة الدنيوية .. (النساء /٩٧) .. إعمال العقل فى هذه القضايا يصب فى النهاية فى بر الآباء ولكن فى غير ضلالة ولا كفر. وفى سؤال أهل الذكر " إن كنتم لا تعلمون " ، ولكن فى غير كهانة ولا هياكل . وفى طاعة ولاة الأمر ، ولكن فى غير معصية الخالق . فالإسلام لايعذر العقل الذى ينقاد لمعصية الخالق رهبة أو استسلاما أو خضوعا أو جمودا وقعودا عن التفكر والتدبر والتأمل ، فالتفكر كفيل - بالعقل - لهدايته إلى الصواب.

المسلم بعدما تلقاه من أوامر إلهية ، يتوجب عليه التفكير والتدبر والإحتكام إلى العقل والبصيرة ، فالنص يحتاج إتباعه إلى فهم به ، والفهم واجب على المسلم – وقوامه العقل – فى الأخذ بجميع مصادر الشرع والعمل بها ، ولا تعارض بين النص وبين الفهم والاجتهاد ، لأن الفهم – والاجتهاد ، ليسا بديلين عن النص ، وإنما لفهمه وإستخلاص القواعد

والأحكام بتطبيق كافة الأصول والقواعد الكلية .

وإعمال العقل ، والاجتهاد ، ليس قصراً على زمـــان دون زمان ، ولا هو كان لازماً فى عصر الدعوة المحمدية ، ثم انقضت الحاجة إليه ولم يعد بالناس حاجة إلى التفكير والفهم !!

إن الديانات فى حركتها مع البشرية ، تتعرض لإضافات بعضها من الدين وتأصيل أو شرح أو بيان له ، وبعضـــها شـــوائب مـــن الموروثات أو لغة المصالح التى تتغيا أن تتستر وراء الدين منها مايشيع فيظنه البعض جزءا من الدين ، وماهو من الدين فى شىء .. لـــذلك تحتاج الدعوة إلى إنتباه دائم يدرأ عن الدين ماليس منه من دعـــاوى أو تأويلات أو إضافات النـــاس .. وهى إضافات كثيراً مـــا تتلـــون بمصالح وظروف أو بمقتضيات زمانية وتحجـــب أحيانـــا بســـتارها الكثيف – الدين نفسه .. من المهم أن تلتفت الدعوات وأن تراجـــع وتميز وتفصل بين ماهو جوهرى وأصيل فى الدين ، – وبـــين مـــاهو بشرى إجتهادى أو إضافات إنسانية حكمتها مصالح أو عـــوارض أو ظروف أو مآرب ..

وأداة الدعوات لإتقاء هذا الخلط ، هى العقل .. فهو القادر علـــى الفهم والتحليل والتفرقة والفصل بين الجـــوهرى الأصـــيل ، وبـــين

الشوائب الدخيلة ... وقدرة الدعوات على الإحتكام للعقل ، وإعماله - هى مقياس قدرها على التواصل والاستمرار فى المكـــان والزمـــان .. العقل هو - إن جاز التعبير- اللغة العالمية التى تتفـــق عليهـــا الـــدنيا .. تختلف اللغات واللهجات والعادات من مكان لآخر ، ومن زمـــان إلى زمان .. ولكن العقل - وهو فى مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الفهـــم - لغة عالمية تشترك فيها كل الأجناس وفى كل وقت .. وهذه الملكة لا تنفصم عن الآدمى ، - وهى هى مناط التمايز بينه وبـــين بـــاقى الكائنات ، وآية التكريم الذى حباه به الخالق المصور ، بعقله وبمخيلته على السواء .. بهما يتمايز بقدرته علـــى الفهـــم والتحليل والاستخلاص والحكم ، وأيضا على استحضـــار الماضـــى واستشراف المستقبل .. غير الآدمى من الكائنات لا تاريخ لـــه ، ولا مستقبل أمامه .. حياة الكائنات الأخرى - بغير العقل والمخيلة - تبـــدأ بالميلاد وتنتهى بالموت ، لاقدرة لديها على استحضـــار تـــاريخ جنسها ، ولا على استشراف مستقبله .. ليس فقط لأنها بلا تاريخ وبلا مستقبل ، وإنما لأن هذه القدرة على الاستحضار والاستشـــراف خاصية من خصائص العقل الذى حبى به الإنسان دون باقى الكائنات .. ومن هنا كان احتفاء الإسلام بالعقل مقوماً من مقومات عالمية هـــذا الدين الذى أراده الله تعالى ـــ ديناً للعالمين إلى يوم الدين .

العلم .. روح الإسلام وحياة المسلمين

فضيلة الإسلام الكبرى ، وأحد أبرز مقومات عالميته فى المكان والزمان ، أنه مع احترامه وتقديمه للعقل ، وتعويله عليه فى أمر العقيدة وفى أمر التبعة والتكليف ، فتح للمسلمين أبواب المعرفة ، وحثهم على ولوجها والسعى والتقدم فيها .. فلم يكن مصادفة أن " القراءة " كانت أول مانزل من القرآن الحكيم ، وأن " القلم " كان ما قفى به القرآن تقفية تورى بمكانة ومنزلة العلم والتعلم فى شريعة الإسلام .. فى سورة العلق .. أول ما نزل من قرآن ، يأمر الحق تبارك وتعالى نبيه المصطفى : " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" . فما تكاد تنزل سورة العلق ، حتى تتتابع الآيات تنبه رسول القرآن إلى روح وقوام الرسالة التى اصطفاه ربه للقيام بها .. ما إن توصيه بقيام الليل حتى تأمره "وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً " (أول المزمل) .. ثم يتبعها الحق بسورة من سور القرآن تتخذ من " القلم " إسماً وعنواناً لها .. تبدأ بقوله سبحانه وتعالى :" ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ" (أول القلم) .. ولا غرو – فقد كان العلم أول

ما زود به الله - أبا البشر آدم : " وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ " (البقرة /٣١) .. هو سبحانه وتعالى : " خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" (الرحمن/٤) ..

هذا احتفال بالعلم ، وأدواته ، قد حفر فى الإسلام أبرز مقوماته - مع العقل - لتحقيق العالمية الممتدة فى الزمان والمكان ، وانفتحت به أبواب تلو أبواب ، تحترم العلم وتقدسه ، وتدفع المسلمين إلى النهل والتزود منه ، وتحرضهم على اتخاذه غاية ومنهاج حياة .. حُث على ذلك رسول القرآن نفسه ، فأوصاه القرآن بأن يجعل من طلب العلم دعاءً له إلى رب العالمين .. " وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا" (طه/١١٤) .. وجعل سبحانه من التعليم غايةً للرسالة ذاتها ولرسولها المصطفى .. " كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ" (البقرة /١٥١) .. " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (الجمعة /٢) .. ولا يرتفع المسلم بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم :" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ "

(المجادلة /١١) .. ومع أن " المساواة " مبدأ أساسى من مبـــادئ القرآن ، إلاّ أنه لم يعتبر من المســاواة المساواة الشــكلية بـــين غيرالمتساويين ، .. فذلك ظلم يرتد إلى نقيض المساواة ، ولذلك لم يجعل القاعد المتكاسل كالنشط الباذل ، ولا الجاهــل كالعــالم : " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ" (الزمــر/٩) .. " وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ" (آل عمــران/ ٧) .. ولا يوصف المسلم بفضيلة أعز وأفضل من فضيلة الحكمة التى قوامها العقل والعلم .. " وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِــيَ خَيْــرًا كَثِيرًا " (البقرة / ٢٦٩) .. ومن فضل الله تعالى علــى رســول القرآن ما آتاه من كتاب وعلم وحكمة .. " وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْــكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا "(النساء / ١١٣) .. وليس أعز فى تكريم العلم والعلماء من الآية الكريمة التى تقول :" إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء " (فاطر/٢٨) .. والحق سبحانه وتعالى قرن ذوى العلم بالملائكة فى المعرفة الحقة بألوهيته وربوبيته ووحدانيته .. " شَهِدَ اللّهُ أَنَّــهُ لاَ إِلَــهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ " (آل عمران /١٨) ..

والعلم المندوب إليه ، المحرض على النـــهل منـــه – هـــو فى الإسلام . كل علم .. العلم الذى قوامه التفكير والتأمل بالعقـــل للاهتداء من آيات الكون إلى خالقه .. " الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُـــبْحَانَكَ " (آل عمـــران /١٩١) .. العلم الذى يجعل الآدمى جديراً بأن يستخلف فى الأرض ، وينهض برسالة الله ، ويدرك إدراكاً حقيقياً شاكراً – من واقع علمه وفهمه – أن الخالق سبحانه قد سخر له هذا الكـــون فى أرضـــه وسمائـــه وكواكبه وأجرامه ، وشمسه وقمره ، ومائه وهوائـــه ـــ لحكمـــة عميقة سامية تعبر تعبيراً ناطقاً حيا عن جلالـــه ســـبحانه وجمالـــه وأفضاله .. وتدفع الآدمى عرفاناً وفهما وتقديراً – أن يكون جديراً بهذا الاستخلاف .. بالعلم والفهم والحكمة ، والنشاط والسعى .. لعمار الأرض لا لخرابها .. لإثراء الحياة لا لإفقارها ..

إنه سبحانه القائل فى محكم التنزيل :"تَبَارَكَ الَّذي بِيَده الْمُلْـــكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ . الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُـــوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ"(أول الملك) .."وَإِذْ قَـــالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَـــن

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ" (البقرة / ٣٠ ـــ ٣٣) .. " وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ " (الأنعام /١٦٥) ..

لا نجاح لغاية الاستخلاف وحكمته ، ولا مقياس لإخفاق الآدمى أو فلاحه .. إلاّ بعمله وسعيه وكده وبذله ، محوطا مدفوعاً بالعقل والفهم والعلم .. هذا العلم الذى يمتد إلى كل شيء .. إلى العلم بالكتاب ، وذلك أشهر من أن يحتاج إلى بيان وتدليل .. العلم بالقراءة والكتابة لتنمحى بهما الأمية ويقبل المسلم على العلم فى كل باب ، ما يتلقاه بالمشافهة ، وما يدركه بالمراقبة ، وما يتوجب عليه أن يلم به بالقراءة والبحث والدراسة .. "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ."

(العلق) .. "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ" (القلم) .. العلم الـــذى يحث المسلم على أن يضرب ويفكر فى عالم النفس كما يتفكـــر فى عالم الطبيعة .. " أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ " (الروم /٨) .. العلم المندوب إليه هو كل علم يحارب الجهل والجهالة .. جهـــل الشرك ، والتقليد ، ودوافع الإثم والجرم .. العلم بكل ما ينبـــت الأرض ويستخرج كنوزها .. العلم الـــذى يصـــلح الصـــناعة والزراعة وينمى ثروات الأرض من حيـــوان ونبـــات ومعـــادن وخيرات .. العلم بالبحر وأسراره ، العلم بكل ما تتحقق به نهضة الإنسان وعمارة الدنيا ..

يتجلى عموم العلم المندوب إليه فى سنة وأحاديث الهادى البشـــير (عليه السلام) .. لم يقصر الحث عليه على مجال دون مجال ، وحـــض المسلم على أن يضرب فى الآفاق طلباً لهذا العلم .. يقول عليه الصلاة والسلام للمسلمين :"العلم خزائن مفاتيحها السؤال ، فإنه يؤجر فيـــه أربعة : السائل ، والعالم ، والمستمع ، والمحب لهم" .. " من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله طريقه إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم تورث درهما ولا ديناراً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر

".. " من خرج يطلب باباً من العلم ، فهو فى سبيل الله حتى يرجع " .. نزولاً على هذا العلم ودواعيه ، واحتراماً له ، رجع نبى القرآن عما أبداه فى لقاح النخيل ، وقال للمسلمين " أنتم أعلم بشئون دنياكم " - الإسلام دين عمار وبناء .. يحض على عمار الأرض ، إن الله سبحانه وتعالى القائل .. " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" .. (الملك /١٥) .. يقول رسول القرآن .. " ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة " .. تعمير الأرض ، تعمير للحياة .. وعمارة الأرض والحياة بالعمل الذى يهتدئ بالعلم والدراسة والخبرة بالممارسة والتجربة ومعرفة الصواب .. عمارة الأرض والحياة ليست ضربات عشواء ، - وإنما علم وسعى وعمل .. فى الحديث .. " إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة - أى الشتلة الصغيرة - فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها " .. " من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له بكل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل " .. لذلك كان الحض على التعمير ملمحاً أساسياً من ملامح العمران الذى تغياه الإسلام .. عن جابر بن عبد الله أن رسول القرآن قال .. " من كانت له أرض فليزرعها ، فإن لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم " .. بل ليس

لمحتجز الأرض حق فيها إن لم يعمرها ، خلال سنوات ثلاث .. " ليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين " .. وفى الحديث أيضاً .. " من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها " .. " من أحيا مواتاً فهو له " ..

عمارة الأرض والحياة عمل جاد مخلص دءوب هدايته العلم الواجب أن يضرب فى كل باب ، هذا العلم الذى كرمته السنة كما كرمه القرآن ، وحرك القرآن أشواق الآدمى إليه بما أورده من آيات دالة على بديع خلقه ، ومما حض عليه من التفكير فيها لاكتناه أسرارها والإحاطة بعوالمها ، ولا يكون هذا إلاّ بالعلم والتعلم .. " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ " (فصلت ٥٣) .. " وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ" .. " هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ".." وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ" .. " وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا " .. وهذه الإشارات الربانية تحرك أشواق المسلم إلى المعرفة بالعلم الذى يلم بهذه الآيات ويفسر إشاراتها إلى التقويم وحساب الأفلاك فى عدد الأيام والليالى والشهور والسنين .

كذلك تحريك القرآن للأشواق الإنسانية للإلمام بالعلوم

الطبية بما أورده من آيات عن خلق الإنسان ، وتطورات الجنين .. " نطفة فى قرار مكين " .. " ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً " .. " فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً " .. " فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ " .. أى معظمها .. " عظاماً " .. " فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ " ..

كنوز القرآن ملآنة بإشارات كونية ودلالات هائلة على آيات الله فى خلقه فى العلوم الطبيعية والأفلاك والخلق والطب وغيرها ، تحرك أشواق المسلم وتدفعه إلى محاولة الفهم الذى يجعله يهيم شغفاً بالعلم واكتناه قواعده ومفاتيحه وأسراره .

يدرك المسلم – مما علمه الإسلام – أنه يكون أكثر إخلاصاً وفهماً واندماجاً فى روح الإسلام الباقى الدائم ، حين يكون فى الإسلام شعلة حية عارفة عالمة مدركة لدين حى فى حاضر كله حياة وليس محمولاً فقط على ماض غابر تليد ..

محال ، وغير مقبول ، أن يكون خطاب الدعوة قائماً – الآن !! – على الضجيج اللفظى العالى ، منتمياً إلى عالم آخر ليس بينه وبين عالمنا الحاضر – وجوهر الإسلام – اتصال صحيح ، أكيد ومثمر .. إهمال فى الدعوة ، أن لا نهتم اهتماماً خاصاً كافياً بالشباب المتعلم تعليماً جاداً حقيقياً ، اكتفاء بالتوجيهات اللفظية

العامة إلى الكتل .. إن إعراض العقول الشابة القوية المزودة بـــزاد مهم من العلم والثقافة الحديثين ، هو إعراض خطر وإنذار للدعوة أنها انفصمت عن جوهر الإسلام وأخفقـــت فى تحريـــك كـــوامن إمكانيات الشباب وتفجير طاقاتهم فى الاتجاه الصحيح النابع مـــن الفهم والعلم والمعرفة والحضارة .. خطأ فادح أن نبحر بعيداً عـــن الإسلام ، وأن يحرم الإسلام من العقول القادرة على تحقيق اشتراك الإسلام فى التيار الرئيسى لحياة العصر ، أو على اشتراك هذا التيار الرئيسى فى حياة الإسلام .

من المهم إقناع الشباب المتعلم بأن للإسلام فعـــلاً وظيفـــة حيوية حقيقية فى عالمنا المعاصر ، يستمدها مـــن أصـــوله ، ومـــن مرجعيات الحضارة الهائلة التى أقامها المسلمون وقتمـــا أن كـــانوا متيقظين لأصول وجوهر الدين واهتمامه بالعقل والعلم .. لقد قدم الإسلام فيما مضى ، نماذج واقعية فعلية رفيعـــة اســـتطاع فيهـــا مخلصون أن يقدموا للإنسانية - بالفعل والعمـــل - لا بـــالكلام - حضارة هائلة لا تزال أصداؤها تنعكس على أوربا حتى الآن - مـــن حق هؤلاء الشباب علينا أن يعرفوا منا جوهر وحقيقة الإســـلام ، وأن يجدوا إلى جانب فصاحة المتفاصحين من المتكلمين ، أن هنـــاك

مكانة فعلية وواضحة للإخلاص وشجاعة القائمين علـــى العلـــم والمعرفة والفهم ــ أن نحتاط ونقتصد فى استعمال الصيغ الفقهيـــة وأن نلتفت لروح العصر والأمثلة الواقعية الحيـــة ــ فى محاولتنـــا توصيل حقيقة الإسلام إلى قلوب وعقول وأفهام الشباب .

من المهم أن يلتفت المسلم ، من واقع ما أرشد ودل عليه القرآن والسنة ، أن الغاية من العلم ، هى أن يقـــدم للبشـــرية المزيد من الفهم مع المزيد من المقدرة لكى يتحقق بهما المزيد من الرقى للإنسان نفسه .. إن الله تعالى حين يخبر فى محكم تتريلـــه أن إرادته سبحانه شاءت أن يبلونا أينا " أحسن" عمـــلاً، فـــإن العمـــل الحسن ، ناهيك بالأحسن ، هو الذى تعمر وتتقدم به الحياة، فالقبيح لا يمكن أن يكون عند الله حسناً ، فضلاً عن أن يكون أحســـن ؟! .. وذلك يستوجب من المسلم أن تترقى مقوماته الداخلية مع ترقيـــه فى طلب وتحصيل العلم والعمل به ..

ليس من حقنا كمسلمين ، وهذا هو ديننا فى تنويهه بالعقـــل وحضه على العلم والتعلم ـ أن نرفض زماننا ، ولا أن ندير ظهرنا إلى الحضارة الحالية ونقبع قانعين ـ كسلاً وقعوداً ـ باجترار عظمـــة الماضى الذى كان !! ـــ من واجبنا أن نفهم بإنصاف مواضع النور

والظلام فى حاضر العالم ، دون أن يفوتنا أن نلتفت فى ذات الوقت إلى ميدان فسيح أهمله العلم الوضعى حتى الآن ، وهـو ميـدان الحكمة ــ أى تلك اليقظة إلى العناية بالأمور الأساسية فى حيـاة الإنسان التى تجرى ــ نظراً لثباتها - خارج إطار اختلاف الأذواق والمشارب والآراء والأفكار .. تلك اليقظة الـتى يعطينـا إياهـا الوعى والالتفات إلى قيمة الإنسان ذاتـه ومسـئوليته وحرصـه الواجب على التعامل والتعاون مع الحياة بفهم وإحساس باعتبـار الحياة شيئاً جليلاً باقياً بعدنا إلى ما شاء الله عز وجل .. ألم يقل لنا فى قرآنه المجيد .. إنه سبحانه خلق الموت والحيـاة ليبلونـا أينـا أحسن عملا ؟! .. ألم يأمر رسول القرآن أن يأمرنا بـأن نعمـل فسيرى الله تعالى عملنا ويراه رسوله ويراه المؤمنون ؟! .. ألـيس هذا العمل - وبالفهم والعلم - هو عمـار الحيـاة الـتى أراد الله لها عمراناً ؟! .

إن الإسلام لا يزهد فى الحياة ولا يحتقرها ولا يزدريهـا .. الإسلام يلفت نظر المسلم إلى أن الحياة على هـذه الأرض فرصته الحقيقية ، والوحيدة - والثمينة أيضاً ، لكى ينمى عقله وروحه ويسطر صفحات حياته بعمل مثمر ، لأن هذه الـدار

الدنيا هى الاختبار الوحيد لسعى الإنسان واجتهاده ، بعدها يتزل أو يرفع الستار .. ففى الآخرة جنة ونار .. حساب، وثواب أو عقاب ، السعى كان ولا مجال فى الآخرة لسعى جديد .. لا امتحان ولا ملحق لعمل وسعى فى الآخرة .. من عمل فى الدنيا مثقال ذرة خيراً سيراه ، ومن عمل فيها مثقال ذرة شراً سيراه .. كل مسلم سوى يعلم جيداً مما علمه الله ورسوله أنه من غير هذه الأرض والحياة الصالحة الفاعلة المعطاءة على أديمها ، لا يستطيع أن يرقى إلى السماء . بدون هذه الحياة التى يجب أن يحياها بنجاح وصلاح وفلاح على الأرض ، لا يحق له أن يأمل فى ثواب ولا أن يطمع فى خلود .. ها هنا على هذا الثرى يكسب الآدمى أو يخسر معركة مصيره .. فالحياة فى نظر الإسلام أثمن نعم الله عز وجل ، نفحنا الخالق إياها مجاناً ، لم يتقاض عنها سبحانه قليلاً أو كثيراً ، وأرادت حكمته أن يختبرنا بها .. ماذا سنفعل بها وفيها .. على المسلم السوى أن يلتفت دائماً إلى حياته ماذا صنع وماذا عمل وماذا أعطى فيها للحياة والأحياء ، وللقيم الرفيعة الخالدة التى حضه الإسلام عليها وقوامها العمل الفاهم الواعى المتجه إلى صلاح الدنيا وصلاح الإنسان وعمار الحياة ..

هذه الحياة التى يتغياها المسلم السوى ، ويحرص عليها ليست الصورة غير الإسلامية المتمثلة فى الخواء والوجود المبعثر الخالى من القيمة والمعنى .. الحياة التى يتغياها المسلم السوى ، ويجب أن يحرص عليها ـ هى كما يقول شيخنا العلامة الجليل محمد عبد الله محمد الصورة الإسلامية للحياة ، التى توجد مع وجود المعنى الجامع ، وهو الله عز وجل .. هى هذه الحياة المليئة بالولاء لله عز شأنه ، تبدأ منه سبحانه لتنتهى إليه .. لا يحار فيها المسلم السوى ولا يضل ، وإنما يمضى مشدوداً إلى هذا المعنى الجامع والولاء للخالق البارئ صانعاً بحياته ونواتجها وما يقدمه فيها صفحة نظيفة فاهمة وثرية هى مناط فلاحه عند الوارث الباقى .

لذلك فإن الإسلام ، فى فهمه وعلومه ونواتج حضارته ، لم يعرف تلك العدمية التخريبية والعبثية التى يعيشها كثير من المثقفين وأشباههم فى أوروبا وأمريكا .. هؤلاء الذين يسفهون كل مبدأ يؤمن به الآدمى ويعتمد عليه فى بناء حياته ، ويبلغ بهم ضياعهم إباحة الشذوذ الجنسى وعقد الزواج بين الأماثل من الرجال !! .. لم يعرف الإسلام ، ومحال أن يعرف ـ

هذه النماذج التخريبية التى تسوق حياة هؤلاء العبثيين فى غير اتجاه ، ويرفضون بها الحياة فى عمق وإخلاص ـ محال أن يعرف الإسلام ذلك ، ومحال أن يرتضيه المسلم السوى ، لأنه عرف من إسلامه الذى أراده الله للعالمين ، أن إرادته سبحانه شاءت للحياة كلمة وغاية ، وأن هذه الغاية لا تتحقق بالعبثية والتخريبية ، ولا تنتج عن الضياع والتفاهة والعدمية .. وإنما هى بيان حقيقى جاد يقيمه الآدمى طوبة طوبة ، بفهمه وعقله وعلمه وتعلمه والتزامه منظومة القيم والأخلاق الإسلامية ..

حياة المسلم السوى حياة جادة ، محال أن تكون عبثية عدمية مع التفاته للعقل والعلم الذى لفت الإسلام أنظاره إليهما .. هذه الحياة الجادة ضرورة لازمة لمواجهة هذه الحضارة الحالية القوية جداً وغير إسلامية الجذور والأصول ـ مواجهة هذه الحضارة لا تكون بإطلاق الحسرات على ما كان ، ولا بالبكاء على اللبن المسكوب ، ولا بإعطائها ظهورنا إعطاءً أبله عديم المعنى عديم الجدوى ..

الجد الواجب على المسلم السوى – هو الجد النابع من منظومة الإسلام ، ومن مواجهة الواقع الحادث الجارى مواجهة قوامها العقل والفهم والعلم والإرادة .. هذا العلم الذى أرادت حكمة الله أن تجعله مقوماً أساسياً من مقومات عالمية الإسلام – هو الباب الحقيقى الذى ينبغى على المسلم السوى أن يتقدم إليه – أن يطرقه ، وأن يفتحه ، وأن ينهل مما وراءه ، وأن يمضى فى الحياة جاداً بهذه المقومات جدية لا آخر لها ، فبدون هذا الجد المطلق ، القائم على العقل والفهم والعلم والعمل ، لا تكون الأخلاق أخلاقاً ولا الدين ديناً ولا العلم علماً ولا الفن فناً – هذا الجد المطلق ضرورى جداً لكل النواحى العليا فى الإنسان .. فى دينه وأخلاقه وعلمه .. ولا دعامة لهذا الشعور بالجد المطلق ، إلاّ الشعور بوجود الحق المطلق تبارك وتعالى .. " قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ" .. (الأنعام /٩١) .

ولا يستغنى العلم والبحث العلمى ، أحد مقومات عالمية الإسلام – عن هذا الجد المطلق .. لأن العلم يطلب الحق والمزيد من الحق إلى أقصى مداه ، لا يقبل أنصاف الحلول ، أو التفاسير النسبية .. فإن قبلها فقبول مؤقت إلى أن تجمع عدسته اللامة ما تتغياه لتعاود جولتها الجديدة فى

بحثها الدءوب المتواصل نحو الحق - هنالك يلتقى العلم والدين ، فكلاهما يبحث عن الحق ويتغيا الحق ، قبلة هذا الدين الذى اتجه إلى العالمين .

أصداء العلم
فى الحضارة الإسلامية

لم يكن اهتمام الإسلام بالعلم ، وحثه عليه ـ محض توصية كلامية ذهبت أدراج الرياح . وإنما صار هذا الاهتمام واقعاً حيا مشهوداً وملموساً وبعيد الأثر ، انعكس فى المقابلة اللفظية بين " الجاهلية " و " الإسلام " ..هذا التعبير البالغ الدلالة هو مقابلة بين " الجهالة " وبين " العلم والنور والمعرفة "... ما قبل الإسلام كان جهالة وجاهلية ، فأتى الإسلام فحول الجهالة علماً ونوراً ومعرفة .. حسبك أن تراجع الحياة العقلية والفكرية والأدبية والعلمية فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وحالها بعد الإسلام .. أن تراجع هذه الحياة العقلية والفكرية والأدبية والعلمية فى أى قطر امتدت إليه دعوة الإسلام ، قبل وبعد انتشار هذه الدعوة .. حتى فى الأقطار ذات الحضارات القديمة السابقة ، كحضارة الفرس فى فارس (إيران) .. أو حضارة البابليين والآشوريين فى العراق ، أو الحضارة الفرعونية فى مصر ، أو الحضارات الغابرة فى اليمن والشام والمغرب العربي .. سترى بغير عناء ، أن الإسلام أحدث طفرة هائلة - ليس فقط فى أمور الإيمان والعقيدة ، وإنما

فى الحياة العقلية والفكرية والأدبية والعلمية ..لم يشذ عن هذه الملحوظة قطر من الأقطار التى وصلتها دعوة الإسلام ..

بزغ فى الحياة العقلية والأدبية والعلمية والفكرية نجوم قدموا للحضارة الإنسانية مؤلفات فذة .. " جابر بن حيان " فى الكيمياء .. قال عنه برتيلو " إن لجابر بن حيان فى الكيمياء ما لأرسطو فى المنطق ". " الخوارزمى " واضع علم الجبر وعلم الحساب . " الكندى " الفيلسوف ، وصفه العالم الشهير كاردانو بأنه من الاثنى عشر عبقريا الذين هم من الطراز الأول فى الذكاء ، أو على حد قول ابن النديم : " فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم بأسرها ، وفيلسوف العرب . كان عالما بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وتأليف اللحون وطبائع الأعداد .. " أو على حد تعبير "باكون" " Bacon " أنه مع ابن الهيثم فى الصف الأول مع بطليموس . " الجاحظ " عبقرى الأدب العربى الذى قال فيه ابن العميد " إن كتبه تعلم العقل أولاً والأدب ثانيا ". " ثابت بن قرة " الذى مهد لإيجاد حساب التكامل والتفاضل . "البتانى " صاحب النظريات الهامة والبحوث المبتكرة فى الفلك

والجبر وحساب المثلثات ، وأحد أشهر عشرين فلكيا فى العالم كله . " أبو بكر الرازى " حجة الطب الذى جمع بين الطب والكيمياء وخصصت له جامعة برنستون فى الولايات المتحدة أضخم ناحية فى أجمل أبنيتها لمآثره كأحد أعلام الحضارة الخالدين . "الفارابى" المعلم الثانى فى الفلسفة بعد أرسطو، وصاحب المؤلفات التى ناهزت المائة فى علوم الفلسفة والنجوم والمنطق والعدد والهندسة والموسيقى، وصاحب كتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة " ، وكتاب الموسيقى الكبير . " البوزجانى " صاحب الباع الكبير فى تقدم العلوم الرياضية والفلكية " و "ابن يونس " المصرى الذى سبق جاليليو فى اختراع بندول الساعة .. من مشاهير الرياضيين والفلكيين ، و " الزهراوى " الذى بقى كتابه فى الجراحة العمدة المعتمد عند جراحى أوربا حتى نهاية القرن السابع عشر . و " ابن سينا " الفيلسوف العالم الطبيب الفلكى الذى قال عنه " سارتون " أنه أعظم علماء الإسلام ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين ، صاحب موسوعة القانون فى الطب ، والمؤلفات العريضة فى الفلسفة والطبيعيات والإلهيات والنفس والمنطق والرياضيات والأخلاق ، سحرت عبقريته علماء الشرق والغرب ، ولقبه بعضهم بأرسطو الإسلام وأبقراطه ، وجعله

دانتى بين أبقراط وجالينوس . و " ابن الهيثم " صاحب الآثـار الخالدة فى الطبيعة والرياضيات ، وصاحب الفضل الأول على " علم البصريات " . و " البيرونى " الذى قال عنـه العـالم الألمانى الشهير " سخاو " أنه " أعظم عقلية عرفها التـاريخ " . صاحب البحوث والمبتكرات النادرة فى الرياضيات والفلسـفة والتاريخ . و " ابن حزم " الأندلسى ، الوزير صاحب المواهب والعبقريات فى المعارف والعلوم والفلسـفة والشـعر والأدب والتاريخ . و " الغزالى " حجة الإسلام وحسبه هذا اللقب تعبيراً عن مكانته وما أعطاه . و " إبن ماجه " الفيلسوف الأندلسى المبرز ، صاحب البحوث المشهودة فى الطب والفلك والرياضيات. و " الشريف الإدريسى " أشهر جغرافيى العرب والإسلام ، وصاحب أول نموذج للكرة الأرضية وأقرب خريطـة للعـالم ، وأسـبق الخرائط لمنابع النيل ، دون طائرات ولا مناطيد ، وضع ذلك كله ووضع كتابه الضافى فى الجغرافيـا " نزهـة المشـتاق فى اختراق الآفاق " ، والذى بقى المصدر المعتمد لعلماء أوربـا لأكثر من ثلاثة قرون . و " ابن طفيل " الفيلسوف الأندلسى صاحب " حى بن يقظان " ، و " ابن رشد " الـذى وصـفه بيكون بأنه " الفيلسوف المتين المتعمق الذى صحح كثيراً مـن

أغلاط الفكر الإنسانى ، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة قيمة لا يستغنى عنها" .. و " الخازن " صاحب كتاب ميزان الحكمة الذى وصفه سارتون بأنه من أجل الكتب العلمية وأروع ما أنتجته القريحة البشرية فى القرون الوسطى . و " ابن النفيس " إمام الطب الذى لا يضاهى ولا يضارع وصاحب التصانيف المتميزة فى المنطق والفلسفة وأصول الفقه – و " ابن البيطار " أعظم عالم نباتى ظهر فى القرون الوسطى . و " نصر الدين الطوسى " أحد الأفذاذ ، وصاحب الباع والمؤلفات القيمة فى الفلك والرياضيات و " ابن خلدون " صاحب التاريخ الكبير ، والمقدمة الشهيرة له ، وواضع علم الاجتماع . هذا غير أسماء ضخمة هائلة فى الأدب والفقه والعلوم والتاريخ والشعر .. ابن إسحق ، الواقدى ، ابن سعد ، المسعودى ، البلاذرى ، وحنين ابن إسحق ، وابن ماسويه ، واليهودى موسى بن ميمون ، والصفدى ، وداود الأنطاكى ، وابن حوقل ، المقريزى، ابن تغرى بردى ، وابن إياس ، وابن بطوطة ، والقفطى ، وابن الخطيب ، ومالك ، وأبو حنيفة ، والشافعى ، وابن حنبل ، وابن النديم ، والشهرستانى ، والسهروردى ، والشوكانى ، والبغدادى ، والمعرى ، والمبرد ، وابن عساكر ، والطبرى ، وابن مسكويه ، والقرطبى ،والألوسى،

وابن المقفع ، وابن كثير ، والباقلانى ، وإسحاق ابن سليمان الإسرائيلى ، وابن الأثير ، والجبرتى ، وياقوت الحموى ، وأبو حيان التوحيدى ، والمراكشى ، والمقرى صاحب نفح الطيب ، والقلقشندى ، وابن تيمية ، والقاضى عبد الجبار، والزركشى ، وابن خلكان ، والخليل ، والمتنبى ، وسيبويه ، والأصمعى ، وأبو هلال العسكرى ، وابن هشام ، وابن حجر العسقلانى ، وابن عبد ربه ، وأبو على القالى صاحب الأمالى ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وأبو داود ، والنسائى ، والزمخشرى ، والنسفى ، والبيضاوى ، وأبن رشيق ، والاصطخرى ، والسيوطى ، وشمس الدين الذهبى ، وابن عربى ، وحاجى خليفة ، محمد بن عبد البر الأندلسى ، والثعالبى ، وعيسى المسيحى ، والشيبانى ، وابن القيم الجوزية ، والآبى ، والأصبهانى . هؤلاء النجوم ملئوا العالم الإسلامى على اتساعه .. فى مصر والعراق والشام وآسيا .. وأفريقيا .. والأندلس .

هؤلاء الأعلام وغيرهم كثيرون لا يتسع المقام لمجرد ذكر أسمائهم ، نهضوا بحضارة هائلة شملت جميع الأقطار التى دخلها الإسلام .. فى شبه الجزيرة العربية ، وفى الشام

والعراق ، وفارس، ومصر، والمغرب العربى، والهند ،وهضبة الأناضول ، والأندلس ، وعلى إمتداد الوطن الإسلامى فى آسيا وأفريقيا وعبر البحر إلى الأندلس فى أوربا .. كما ملئوا الحياة الفكرية والعلمية والعقلية والأدبية والطبية والفلكية والفلسفية والموسيقية والجغرافية وعلوم الكتاب والفقه والتاريخ وفنون الأدب .. ملئوها فنوناً وتصانيف وكتباً لم تترك شاردة ولا واردة إلاّ اقتحمتها وبأستاذية وجدية وتمكن وإخلاص عميق .. حسبك أن تتصفح موسوعات أحمد أمين (فجر وضحى وظهر الإسلام) ، ومصطفى صادق الرافعى (تاريخ آداب اللغة العربية) ، أو عالم الإسلام للدكتور حسين مؤنس ، وموسوعات جورجى زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ التمدن الإسلامى) ، وموسوعة الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والاجتماعى .. وتاريخ الحكماء للقفطى ، وفهرست ابن النديم وحاجى خليفة وتاريخ الأدب العربى للمستشرق كارل بروكلمان .. ودائرتى المعارف الإسلامية والبريطانية وغيرها ، لترى رأى العين أن الإسلام باحتفائه بالعقل والعلم ، قد دفع الأقطار التى امتدت إليها دعوته ، ودفع الإنسانية من ورائها ، إلى نهضة وحضارة

هائلة متميزة ظلت نوراً وضاءً للبشرية ومقدمة أساسية للحضارة العالمية التى نراها اليوم .

الكتابة عن الحضارة الإسلامية ، واستقصاء إنتاجها وأعلامه ، تحتاج إلى مجلدات ، وإنما أردت فقط أن ألفت الأنظار إليها .. ولا أدرى ما الذى يقعد خطاب الدعوة الدينى عن تقديم هذه الحضارة إلى شبابنا ، وإلى العالم .. إن الدين الذى يقيم هذه الحضارة ليس ولا يمكن أن يكون دين خنجر وقنبلة ومدفع !! الدين الذى تنمو وتزدهر فى رحابه هذه الحضارة دين يورى بمبادئ وقيم سامية ، ويورى بفهم عميق اعتنقه أبناؤه لجوهر هذا الدين الذى أراده الله تعالى دينا للعالمين ، واتخذ من العقل والعلم سبيلا لعمار الحياة لا لتخريبها .. جاء الإسلام فقضى على الكهانة وفتح الباب للطب الطبيعى على مصراعيه لأنه أبطل المداواة بالسحر والشعوذة ، وفتح الباب للعلم والتعلم واتخاذ الأسباب ، فنبغ فى رحابه أطباء أفذاذ : إبن الهيثم وابن النفيس والزهراوى وغيرهم .. فى عهد المقتدر بالله العباسى ، دعى إلى الامتحان فى بغداد نحو تسعمائة طبيب .. وهم غير الأساتذة الثقات الذين

تجاوزوا مرتبة الامتحان . قدم علماء الحضارة الإسلامية أنفس وأقيم المؤلفات والموسوعات الطبية التى عاشت عليها أوربا قرونا .. " القانون " لابن سينا و " الحاوى " للرازى ، وكتب ابن الهيثم فى البصريات ، ونظريات الزهراوى فى الجراحة ، واقترنت بحوثهم فى الطب ببحوثهم فى الكيمياء ، فلم يعرف العلـــم شـــيئا عـــن "القلويات " المعروفة فى مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربى *ALKALI*، ولم يظهر وصف ماء الفضة ، الحامض المســتخدم فى التجارب الكيمائية ، إلاّ من كتب جابر بن حيان صاحب الفضل أيضا فيما عرفه الأوربيون عن ملح النوشادر ومـــاء الـــذهب والبوتاس وزيت الزاج وبعض السموم ، وكتب الرازى الـــتى تلقى الأوربيون منها تقسيم المواد الكيمائية إلى نباتية وحيوانية ومعدنية، وأدق تقسيمات المواد المعدنية ، والبيرونى الذى كاد يهتدى إلى قانون الجاذبية ولكن آراءه مهدت لنيوتن سبيل الاهتداء إليه . جاء فى كتاب " الحضارة الأوربية " للأساتذة جيمس وســتفال طوسون ، وفرانكلين شارلز بام وفان نوستراند : " فى خلال قـــرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمى على التقريب وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعـــة لدراســـة العلم وتلقينه .. "

الإسلام دعوة " عالمية " ليس فقط لأنه قدم للعالم هـذه الحضارة ، وإنما أيضاً لأنـه يتعـايش مـع كـل الأديـان والحضارات ، - تعايش سلام وتعايش حضارة .. وفى حضارة الإسلام عاش علماء وأطباء ومؤرخون .. ولم تغلق الحضـارة الإسلامية بابها قط قبل عالم ولا عطاء لنفع البشرية .. فمنهم مـن اعتنق الإسلام ، ومنهم من بقى على دينه ، فلم تغلـق الحضـارة الإسلامية فى وجهه الأبواب .. كان الإسلام هو الذى قضى على طب الكهانة والخرافة والتنجيم والسحر والشعوذة ، وفتح الباب على مصراعيه للطب الطبيعى .. دون اشتراط جواز مرور بانتماء دينى أو عرقى .. ففى حجة الوداع ، أمر النبى عليـه السـلام - الحارث بن كلدة - وكان على غير دين الإسلام - بأن يعالج سعد بن أبى وقاص ، - وقال له : "عالج سعداً مما به ".. وذكر القـرآن الكريم لقمان الحكيم فقال : "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّه ". (لقمان /١٢) .. وكثر اشتغال المسيحيين بالطـب فى ظـل الدولة الإسلامية ، - ونبغ الأطباء فيها بين نصارى الشرق فى الوقـت الذى كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب بدعوى أن المرض عقاب من الله لاينبغى للإنسان أن يصرفه عمن استحقه ، وظل الطـب محجورا عليه فى الغرب بهذه الحجة إلى ما بعد انقضاء العهد المسمى بعهد

الايمان فى مستهل القرن الثانى عشر للميلاد إبان الحضارة الأندلسية والإسلامية .. وفى أخبار الحكماء للقفطى من اشتهروا ومن لم يشتهروا من الفلاسفة والحكماء فى صدر الإسلام ، منهم المسلم ومنهم غير المسلم .. بل وبرزت أسماء لعلماء من الغرباء عن السلالة العربية . ومن موسوعات الطب الإسلامية ما لانظير له فى الضخامة وعمق البحث على قدر ماكان متاحاً فى زمانها .. ومنها ما ترجم إلى اللاتينية فنقل علم الطب فى أوربا نقلة هائلة لاينكرها أحد . ترجمت موسوعة كتاب القانون فى الطب لابن سينا ، - " والحاوى " للرازى وهو أكبر من كتاب ابن سينا وأوسع منه مادة وموضوعا . وترجمت كتب ابن الهيثم فى البصريات ، - وكان ابن يونس المصرى هو الذى اخترع "الرقاص "- فى القرن التاسع الميلادى وتوالى من بعده ضبط حركاته وانتظام ذبذباته - .. وترجع معظم الأقوال تاريخ " الإبرة المغناطيسية " إلى ملاحى الدولة الإسلامية مسلمين وغير مسلمين ..واشتهر فى المشرق الإسلامى جغرافيون عظماء أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات عن طريق الأرصاد الفلكية ومشاهد الرحلات وتمحيص الروايات منهم البيرونى وابن بطوطة وابن جبير .. لعل أعظمهم الشريف الإدريسى صاحب أول خريطة للعالم قبل أن

تتوافر الطائرات والمناطيد ووسائل الرصد والقياس الحديثة ، وهو الذى سبق – على غير ما يعرف الكثيرون – إلى بيان الحقيقة عن منابع النيل فى خرائطه المحفوظ بعضها فى المتاحف الأوربية ، ومنها خريطة بمتحف سان مارتين الفرنسي ترسم النيل آتيا من بحيرات إلى جنوب خط الاستواء ..وهذه الحضارة الإسلامية الحية فتحت كنوزها وفرصها للجميع ، وعم فضلها الجميع بغير تمييز لجنس أو دين ، ولم يتح لليهود – رغم غلظة رقابهم وحرصهم بفكرة "الجيتو " على التمايز وعدم الانخراط فى النسيج العام – لم يتح لهم فى حضارة من الحضارات ما أتيح لهم فى ظل الحضارة الإسلامية .. وكان موسى بن ميمون – اليهودى – من أشهر الأطباء الذين لمع نجمهم فى الأندلس .. وكان موسى قطاوى باشا - اليهودى - وزيرا للمالية فى مصر فى القرن الماضى .. وفى عصر الخلافة الفاطمية استوزر العزيز بالله الفاطمى (٩٧٥ – ٩٩٦) واستناب فى الشام رجلا يهوديا يدعى منشا بن ابراهيم . صحيح أنه مال وظلم وأثار السخط ، ومع ذلك تبقى دلالة استخدامه آية على "عالمية " الحضارة الإسلامية واتساعها وسماحتها برغم التاريخ الأسود لليهود مع كل الحضارات بما فيها الحضارة الإسلامية !!

لقد تناول الأوربيون مشعل العلم من يد الحضارة الإسلامية ، فاستضاءوا به بعد ظلمة ، وبلغوا بفضله ما بلغوه من هذا الضياء العميم الذى تتباهى به الآن الحضارة الغربية .. لقد بقى أثر الحضارة الإسلامية شاهدا على ما قدمته للغرب فى آلاف المصطلحات المنحوتة من ألفاظ عربية ـ فى اللغات الأوربية .. فى الملاحة مثل ألفاظ *Felouque* من الفلك ، و *amiral* من أمير البحر ، و *arsenal* من دار الصناعة ، و *avala* من كلمة حوالة .. وفى علم الفلك ، مثل ألفاظ *altaref* من الطرف ، و *curso* من كرسى الجوزاء ، و *caph* من الكف ، و arkab من العرقوب .. أما فى الأسبانية فبلغت الألفاظ العربية فى قاموسها ما يحصى بالمئات .. ناهيك عن أثر الموسوعات الطبية التى ترجمت إلى اللغات اللاتينية ، ورسالة الغفران للمعرى فى الكوميديا الإلهية ، وألف ليلة فى حكايات " بوكاشيو " .. "الصباحات العشرة " ، وسرفانتس صاحب دون كيشوت الذى عاش سنوات فى الجزائر ونضج أسلوبه بما تلقاه من عبارات وأمثال عربية ، وأثر " حى بن يقظان " لابن طفيل إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال لاستقصائه هنا..

أمامى الآن كتاب " العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى" - تأليف العلامة الايطالى آلدوميلى ، ونقله إلى العربيـــة الأســـتاذان الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور محمد يوسف موســـى .. وقـــام بمراجعته على الأصل الفرنسى والتقديم له الدكتور حسين فوزى أحد أعلام التنوير الكبار .. فى هذا الكتاب الضافى الذى قدمتـــه الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية سنة ١٩٦٢ ، وياليتها تعيـــد طبعـــه أو يتولى ذلك مشروع مكتبة الأسرة ، ينوه الدكتور حسين فـــوزى فى تقديمه إلى أن تسمية الكتاب بالعلم العربى – وهى ليست دقيقة علـــى الإطلاق – لاتحجب أن الكتاب يتناول العلم الذى أزدهر من القـــرن الثامن إلى القرن الثالث عشر فى البلاد التى ســـادها الإســـلام . وأن عدم تسمية ذلك بالعلم الإسلامى مرده إلى أنـــه ســـاهم بقســـط فى إنضاج ذلك العلم كثير من المســـيحيين والزرادشـــتيين (المجـــوس) والوثنيين " .. وعندى أن هذه النقطة بالذات هى الأدعـــى للالتـــزام بالتسمية الصحيحة " العلم الإسلامى " .. لأن التسامح الإســـلامى الذى أعطى هذه المساحة لغير المســـلمين فى المســـاهمة فى الحضـــارة الإسلامية ـــ هو أحد أبرز عناصر ومقومات هذه الحضارة والـــدين الإسلامى نفسه ، وأكثرها دلالة على أنه ديـــن عـــالمى .. تعـــايش ويتعايش مع جميع الأديان والحضارات ..

هذا الكتاب ، جامع لتاريخ هذه العلوم التى توهجت فى ظل الحضارة الإسلامية ، وسرد مستفيض لما ألف فيها بالعربية والفارسية والسريانية .. ونظرة على فهرست الكتاب ـ فيما قال الدكتور حسين فوزى فى تقديمه – كفيلة ببيان أهمية هذا الكتاب كسجل كامل لهذه العلوم .. نشأتها ، وأعلامها ، والأصول التى ترتد إليها ، ورجال الدول الذين شجعوا عليها ، وحركة الترجمة من وإلى فى عصر هذه النهضة الإسلامية الكبرى ، وحركة نقل علومها إلى اللغات الأوروبية من أول فجر "الرينسانس" حتى الآن .

وبعد ..

فلعلى أكون قد نجحت فى إثارة أشواق المسلمين ، وضمائر الآخرين ، للانفتاح على هذه الحضارة الإسلامية ، والإلمام بما أنتجته وما قدمته .. هنالك .. سوف يعرف من قد لا يعرف من المسلمين ، ويعرف المتطاولون على الإسلام ، المهاجمون له وللمسلمين ، أن هذا الدين دين عالمى ، قوامه العقل والفهم والعلم ، .. اهتم ولايزال بعمار الحياة .. وصلاح الأحياء.

دين العمل والعاملين

ليس صحيحاً - بل هو البهتان بعينه - إهام الإسلام بأنه يخاصم الدنيا ولا يطلب من المسلم شيئاً سوى الاعتكاف والتعبد ، أو يقبل منه أن ينقطع عن تيار الحياة ولا يدلى بدلوه فيها مستغنيا عن عمل الدنيا مادام يعمل للآخرة ..

الإسلام دين عمل ، وديانة للعاملين ، أراد لبنيه أن يكونوا من صناع الحياة .. لم يكن احتفاء الإسلام بالعقل احتفاءً نظرياً ، أو لمجرد الإغراق فى سبحات الفكر بلا غاية ولا هدف .. الإسلام احتفى بالعقل وعول عليه فى أمر العقيدة وفى أمر التبعة والتكليف ، وفتح للمسلمين فى الوقت نفسه أبواب المعرفة وقوامها العقل ، وحثهم على ولوجها والسعى والتقدم فيها .. هذا التقدم لم يكن فى الإسلام مقطوع الأسباب بعلل وغايات كبرى تتغيا للإنسانية حياة طيبة لا يتوقف فيها الآدمى عن السعى الكريم وجنى الرزق الحلال .. قيمة العلم الذى حض عليه الإسلام أن يكون قاعدة " للعمل" الذى أراد به الإسلام تقدم المسلم وعمار الحياة .. فلا قيمة لعلم مفصول عن العمل ، ولا طائل فى عمل معزول عن قاعدة علمية ترسم له حدوده وعناصره وغاياته وضوابطه ..

العمل لغة الحياة ، ورباط الأحياء .. وهو حجة الإسلام إلى الدنيا التى أراد لأبنائه فيها أن يكونوا بعملهم وسعيهم وبذلهم مكان الريادة فيها تعبيراً عن قيمه الأصيلة وإسهاماً بناءً مثمراً وفاعلاً فى تعمير الدنيا وإثراء الحياة وتجميلها ونفع الإنسان - كل إنسان بلا تفرقة لجنس أو عرق أو دم - بحصاد نبض وعطاء وعرق العاملين صناع الحياة !!

رباط الإسلام وسواعد ونبض وسعى بنيه ، بالحياة .. هو رباط بالأحياء ، واهتمام بأن يكون المسلمون طرفاً فاعلاً منتجاً مفيداً مثمراً لنفسه وللآخرين .. وهذا معلم أساسى من معالم عالمية الإسلام وما طوى من قيم ومبادئ تصله بالدنيا وبعمارة الحياة لجميع الأحياء ..

الإسلام أراد للمسلم أن يكون قوة فاعلة معطاءة ، مفيدة ومؤثرة ، وأن يكون على صلة بالعالم تعطيه مزيداً من القوة الحميدة الطيبة التى أراد بها الإسلام صلاح الحياة والأحياء .. لامحل فى الإسلام للحركات العبثية العدمية ولا معنى للحياة فيه بدون هذا الإسهام الفاعل فى صناعتها وعمارتها والتأثير الإيجابى النافع المجدى الحميد فيها .. الحياة فى الإسلام حياة عملية جادة هادفة غير خاوية

ولاعبثية ، لها غاية قوامها هذا المعنى الجاد .. فى القـرآن المجيـد : "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الَّـذِي خَلَـقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْغَفُـورُ" (الملك ١ ، ٢) .. الآدمى معلق مصيره بعمله ، والحياة كلها ابـتلاء ميزانه ماذا عمل الإنسان وماذا قدم ؟ .. لذلك يوصى القرآن المجيـد النبي المصطفى بأن يدعو المسلمين ويأمرهم بأن يعملوا ولا يكفوا عن العمل .. " وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ " . (التوبة /١٠٥) .. عمل المسلم مراقب مرئى ، ومشهود ، من الله تعالى ، ومن رسوله ، ومن المؤمنين .. به يُنال الثواب ، وتُنال المنزلـة والمكانة .. يدلنا القرآن الحكيم على أن المنزلة عند الحـق سـبحانه وتعالى هى بالعمل ، للدنيا وللآخرة ، " وَفِـي ذَلِـكَ فَلْيَتَنَـافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" (المطففين /٢٦) ... "وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّـا عَمِلُـوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُـونَ" (الأحقـاف /١٩) .. غـير مقبول من المسلم السوى أن يكون عاجزاً ولا أن يكون عالة .. عليه أن يجد ويسعى ويكسـب بعرقه وكده .. والكون أمامه مفتـوح ، ميسر لما يريده كل عامل بضربات سواعده وحبات عرقه .. يقـول له القرآن الحكيم : " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِـن رِّزْقِـهِ وَإِلَيْـهِ النُّشُـورُ" (الملـك /١٥) ..

"إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا" (الكهف /٧) .. العمل ذاته عبادة موصولة بعبادة .. " فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّه " (الجمعة /١٠) .. بل ولا جناح على المسلم إذا ما ابتغى أثناء الحج فضلاً من ربه .. فقد تحرج بعض الصحابة من ممارسة التجارة أثناء فريضة الحج ، فنزل قوله سبحانه وتعالى : " لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ " (البقرة /١٩٨) .. العمل هو مهجة الإسلام وعطاؤه للمسلمين ، وللعالمين .. كان رسول القرآن إماماً للعاملين ، وقدوة للعزم الأكبر ، ومثالاً للتقديس العميق لقيمة العمل وشرفه .. لازَمَه وصاحَبَه من طفولته وصباه إلى شبابه وكهولته وشيخوخته ، ولم تثنه عنه مهام النبوة ولا أعباء الدعوة .. رعى الغنم ، وباشر التجارة فى أمانة وبركة ظلت مضرب الأمثال .. يخصف نعله بيده .. ويشارك المسلمين حفر الخندق حتى يتعفر وجهه الكريم بالتراب ويشفق عليه الصحابة راجين إياه أن يدع ذلك لهم ، مثلما راموا إعفاءه من المشاركة فى إعداد الطعام عندما أخذ يجمع الحطب ، فيقول لهم

فى كلماته الحانية .. "أعلم أنكم تكفوننى ، ولكن الله تعالى يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال" ! ..

لم يكن العمل عنده غاية فقط للمعاش ، وإنما كان أيضاً أسلوب حياة ... يقول عليه السلام لأصحابه ونجباء مدرسته الأبرار .. " من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلاّ الهم فى طلب المعيشة .. " من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له" .. " ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده " .

إن الحياة فى سنة الخالق جل شأنه وسنة نبيه الكريم ، لا تستقيم إلاّ على سنن وأسباب ، ومن هنا كان العمل هو قوام الحياة ومناط الفضل بين الناس .. فالحق تبارك وتعالى قد أخبر فى قرآنه المجيد أنه خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً .. العمل الذى تغياه الإسلام وحرصت على إبرازه مدرسة النبوة .. هو العمل الصادق المخلص المتقن .. فكان عليه السلام يقول لنجباء مدرسته الأبرار : " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".. لقد كان العمل دستور إمام مدرسة النبوة فى حياته ، لم يدعه أو يترفع عنه يوماً وإليه ندب أصحابه حتى وعووا الدرس

جيداً ، تشرفوا بالعمل ودعوا الناس إلى التشرق به .. لا تجد واحداً من كبار الصحابة لم يعطر العرق جبينه .. عبد الله ابن مسعود الراعى ، وسعد بن أبي وقاص صانع النبال .. وخباب ابن الأرت الحداد .. وسلمان الفارسى الحلاق الذى لم تمنعه ولاية المدائن من جدل المكاتل .. وعلى بن أبي طالب الذى كان يسقى بالدلاء على تمرات .. لم يستثن النبى من ذلك أهل بيته ، ولا الزهراء الحبيبة الأثيرة لديه .. يقول لها ولهم .. يا آل محمد اعملوا فإنى لن أغنى عنكم شيئاً .. ويا فاطمة بنت محمد اعملى فإنى لن أغنى عنك شيئا .. !! .. عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لنفر من الناس .. " لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة " وكان يقول أيضاً : " ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب إلىّ من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى " .. ويجمع الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود الأمر كله فى كلمات قصار فيقول : " إنى لأكره من الرجل أن أراه فارغاً ليس فى عمل للدنيا أو الآخرة " .

يعلمنا المصطفى عليه الصلوات ويعلمنا نجباء مدرسته أن المولى تبارك وتعالى إذ جعل النهار معاشاً وخلق الدنيا وجعل لنا

فيها معايش وسبلاً ، فـــإنه قد أمرنـــا بـــأن نضـــرب فى الأرض وننتشر فى ربوعها ونبتغى من فضله .. وأنه سبحانه إنما يريدنا على أن تعطى الحياة كى تعطينا وعلى أن نطلب رزقنا بالحلال .. بكدنا وعرقنا .. نتوسل إلى غايتنا بالكد وبالجهد والعمل .. يظل الإنسان معلقاً بهذا العمل للحياة ، لا يمنعه منه مانع ولو كان قيام الساعة .. يقول رسول القرآن : "إن قامت الساعة وفى يـــد أحـــدكم فسيلة ـــ أى الشتلة الصغيرة - فإن اســـتطاع أن لا يقـــوم حـــتى يغرسها فليغرسها " .. " ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان إلاّ كان له به صدقة " .. لذلك نهانـــا المصطفى عليه أفضل الصلوات ـــ فيما نهانا ـــ عن مذلة السؤال وحذرنا من ذلك فقال فيما روى عنه بإسناد صحيح "من فـــتح على نفسه باباً من السؤال فتـــح الله عليه سبعين بابـــا مـــن الفقر" . " لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له مـــن أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه " ..

بل إنه عليه الصلاة والسلام لم يدع أحداً يعتقد أو يظـــن أن الاستعانة بالله توقف واجب العمل أو تبطل سنة الأسباب ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يقول : " المؤمن القوى خير وأحـــب إلى

الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز " .

فعزة المؤمن وقوته بإيمانه وعمله ، وبتحليه بالهمة والعزيمة ، وباجتهاده المستمر فيما ينفعه وينفع الناس به ، لذلك كان من دعائه عليه السلام : " اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل " .. فعلم صحابته ونجباء مدرسته الأبرار أنه واجب على المؤمن أن يحذر العجز وفتور الهمة وخور العزيمة ، وأن يحرص على الحركة والسعى ، — وعلى العمل والبذل والعطاء .. العمل والعرق هما سبيل الحياة الشريفة الكريمة ، وملجأ كل صاحب نفس عزيزة .. أما السؤال فإنه مذلة وهوان ، ووسيلة الكسالى والمستنيمين والقاعدين .. به يشقى صاحبه بالمهانة فى حياته ، ويشقى بالحساب عند ربه بعد مماته .. يقول صاحب العزم الأكبر عليه الصلاة والسلام : "المسألة كلوح فى وجه صاحبها يوم القيامة .. إياك والمسألة .. فإنما هى رضف من النار ملهبة "..

لقد كان إمام مدرسة النبوة يعمل ولا يكل وكان أصحابه يعملون ولا يقعدون .. وعلى هذه السنة التى أُشربها هؤلاء فى المدرسة المحمدية قال أبوقلابة لرجل : " لأن أراك تطلب معاشك

أحب إلىّ من أن أراك فى زاوية المسجد " . كما لقى الأوزاعى إبراهيم بن أدهم يوماً وعلى عنقه حزمة فقال له : يا أبا إسحق إلى متى هذا ؟ إخوانك يكفونك ! فقال : دعنى من هذا يا أباعمرو .. فإنه بلغنى أنه من وقف موقف مذلة فى طلب الحلال ـ وجبت له الجنة .. هؤلاء المسلمون النجباء ، وعوا ما قاله رسول القرآن : " ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . وإن قوماً غرهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله . وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل " .

ومكانة " العامل " وحقوقه فى الإسلام فرع على اهتمام الإسلام بالعمل ذاته ، وفرع أيضاً على نظرته الإنسانية الشاملة التى لا تقبل أن يتغول قوى على ضعيف ، أو أن يأكل أحد مال أحد أو يتعدى على حقوقه وحرماته .. فى حديث رسول القرآن .. " أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه " .. " أعطوا الأجير أجره ما دام فى رشحه " .. أداء حق العامل أمانة فى الإسلام واجبة القضاء .. يرد عليها وصية القرآن المجيد : " إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا " (النساء/٥٨) –

هذا الأداء لايقوم به وفاء مالم يكن بالحق الواجب بلا بخس ولا نقصان .. يقول عز وجل : " وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ " . (الشعراء /١٨٣) .. وفى الحديث القدسى : "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة .. ومن كنت خصمه خصمته . رجل أعطى بى ثم غدر. ورجل باع حراً فأكل ثمنه .. ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره " .

نظر المسلم ، ووجدانه ، وقلبه ، وعقله .. معلق مشدود إلى رب العالمين .. يذكر الله سبحانه بعظمته وجلاله ، ويذكره بكل اسم من أسمائه الحسنى .. لا ينشغل المسلم العادى كثيراً بما يغرق فيه الفلاسفة وأهل الكلام هل هى صفاته – سبحانه – أم هى عين ذاته ، إنما يدرك فى بساطة مما يستلهمه من القرآن المجيد أن الأسماء الحسنى تعبر عن بعض صفاته عز شأنه .. ويعتقد المسلم السوى أن كماله وسعادته فى محاولة التخلق والتحلى بهذه الصفات بقدر ما يتصور فى حقه .. عند الخالق سبحانه هى المطلق بلا حدود ، وعند الآدمى هى النسبى الذى يسعى قدر طاقته وقدر ما تحتمله بشريته للتحلى به .. عدل الله تعالى هو العدل المطلق بلا حدود ، بينما عدل الآدمى — مهما ارتفع وعلا – عدل نسبى

.. هذه النسبية لا تمنعه ولا يجوز أن تمنعه من محاولة نوال أقصى مايمكنه من هذه الصفة بأوفى نصيب تستطيعه آدميته ..

أسماء الله الحسنى تنطوى على دلالات تشير إلى قيم تضبط السلوك وتوجه مجرى الحياة إلى أهداف تتفق مع الدين الحنيف وتليق بالمسلم كما يرجوه ويطلبه الدين .. هى صفات مطلقة بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى ، ونسبية منقوصة ومتدرجة بالنسبة للآدمى .. نصيبه فى هذا التدرج نحو الكمال على قدر عزمه وصبره وقدرته .. المسلم السوى لا يتوقف بالفطرة عن محاولة التخلق بهذه الصفات ولا ينى عن الاستزادة منها .. من هذه الأسماء الحسنى أسماء .. الحى القيوم .. الخالق البارئ المصور .. الوهاب الرزاق الفتاح .. القوى المتين .. القادر ، النافع .. هذه الأسماء تتفرع إلى صفات موصولة بنحو أو بآخر بالعمل ومعناه اللازم الضرورى النافع المجدى المثمر الذى لا مجال للآدمى لتحقيقه إلاّ بسعى لاينى ولا يهدأ للاقتداء بهذه الصفات التى تدل عليها هذه الأسماء .. هذه الأسماء تطبع فى صفحة وجدان المسلم معانى تثرى إحساسه بقيمة العمل ولزومه .. يدرك – مثلاً – من اسم "الحى" صفة الحياة ، وكيف لا تتحقق – أى الحياة – إلاّ بالإدراك

والفعل .. وأن الإدراك هو فى خدمة الفعل ليكون وعى المسلم بما حوله وعياً كاملاً ، لا يقف موقفاً سلبيا سكونيا ، بل لابد أن يكون "فاعلاً " نشيطاً منتجاً مشاركاً فى دفع تيار الحياة بحياته وعمله وعطائه فيها .. يفهم المسلم من أسماء " الخالق ، البارئ ، المصور " .. أنها صفات خاصة بالله تعالى ، لايتصف بها عبد ، ولا مدخل له إليها إلاّ بنوع من المجاز البعيد حسبه منه أن يفهم معانى الابتكار والإبداع والاختراع والقدرة على استعمال العلم الذى يجنيه إستعمالاً راقيا يتغيا الإتقان وإثراء القدرة الإنسانية على محاولة بلوغ الكمال فى العمل ونواتجه .. يفهم المسلم من اسم " الوهاب " ، أنه بدوره مخصوص بالله تباركت أسماؤه ، لا يتصور فى الآدمى ، ولكنه يعطيه بوصلة الاستشعار بأن القدرة على " المنح " للآخرين ، مرهونة بالاستطاعة .. وهى لا تتحقق - إن تحققت للآدمى — إلاّ إذا عمل وجدّ وتوج هامته بحبات العرق الشريف الذى يمكنه فى النهاية من أن تكون يده فى العطاء هى العليا ، فهى فى الإسلام أفضل من السفلى .. كذلك - تقريباً - اسم " الرزاق " - .. يفهم المسلم أن غاية حظه منه أمران ، أولهما أن يعرف من حقيقة هذا الوصف أنه لايكون إلاّ لله تعالى فلا ينتظر الرزق إلاّ منه ولا يتوكل فيه إلاّ عليه ، والثانى أن يسعى ما احتملته الطاقة ليكون لساناً مرشداً

ومعلماً ويداً منفقة متصدقة وسبيلاً لوصول الأرزاق الشـــريفة إلى القلوب بقوله وعمله مدركاً مترسما أن الرب إذا أحب عبده أكثر حوائج الخلق إليه وقدره على أن يكون معطاء على حظ وافرمن هذه الصفة .. يستوعب من حديث رسول القرآن أن أيدى العباد خزائن الله تعالى ، وأن من جعلت يده - بعمله وعرقـــه - خزانـــة أرزاق الأبدان والقلوب أكرمه الله تعالى بثواب هـــذه الصـــفة .. يفهم المسلم من صفة الحكمة أنها تفضى إلى فهـــم أن الله تعـــالى إستخلف عباده فى الأرض - كما يقول الغزالى فى المقصد الأســـنى فى شرح أسماء الله الحسنى - واستعمرهم فيهـــا لينظـــر كيـــف يعملون .. أما العمل ، فجوابه قول رســـول القرآن عليه السلام: "إعملوا فكل ميسر لما خلق له . " .. يفهم المســـلم مـــن أسمـــاء "الكريم والمجيب والقوى والنافع " ، انها مع اختصاصها بالله جل شأنه ، تورى بصفات توجب على المسلم الساعى للأخذ بأقصـــى ما يستطيعه منها - أن يكون قوة عاملة جادة وفاعلة وقادرة ليتاح له أن يستخدم حصاد عرقه فى منفعة الناس .. فهو يعلـــم مـــن الحديث الشريف أن " خير الناس أنفعهم للنـــاس " .. ويعلـــم أن القدرة على نفع الناس ، والحياة ، لا تدين إن دانت ـــ إلاّ لمـــن يدرك حكمة ومغزى الحياة ، ومعنى أن المؤمن القوى خير وأحـــب

إلى الله من المؤمن الضعيف .. وأن للقوة أسباباً عليه أن يجمعها وسط منظومة إسلامية عاملة منتجة تقدس العمل وتحترم العاملين وتسعى لصنع الحياة بتناغم نبضهم وضربات سواعدهم وحبات العرق الشريف المتفصدة على جبينهم !

موقع ومكانة العمل فى الإسلام ، معلم واضح من معالم عالميته .. لأن العمل لغة مشتركة بين البشر ، تتجاوز حواجز الجنس والعرق واللغة والمكان والأوطان ذاتها ، وليس أدل على هذا من نجاح الحركة العمالية على مستوى العالم فى أن تكون لها جذور وجسور ممدودة بل وملتئمة عبر أمكنة وأوطان ونظم سياسية وإقتصادية واجتماعية مختلفة ..

كذلك ، فإن " العمل " إسهام إنسانى عالمى يعبر عن الانتماء إلى الأسرة الإنسانية ، والشعور الإيجابى بها المتفاعل معها ، فناتج العمل لايحد الانتفاع بثماره حدود .. أى حدود .. حتى القيمة ذاتها ، فهى مترجمة إلى " ثمن " يجعل الناتج متاحاً لمن يشاء .. كما أنه - بالتبادل والتكامل - يعبر عن لغة ديالكتية تتوافق به حركته ومنجزاته فى تنوع يفى بحاجة الأسرة الإنسانية على كافة دوائر النوع والمكان المحلى

والإقليمى والقارى والعالمى .. هذه المعانى المتبلورة فى العنايــة بالآخر ، والتواصل المعطاء مع الأسرة الإنسانية ـ معلم أساسى من معالم الإسلام .. لم يغب عنه قط .. يورى بــه فى صــراحة ووضوح - حديث رسول القرآن : "خير الناس أنفعهم للناس"..
إن المنظومة الإسلامية منظومة متكاملة لهذا الدين العالمى حملت أبلغ آيات اهتمام الإسلام بالآخر ، ومساهمته الفاعلة المعطاءة للحياة وللإنسان حيث كان .

أنداء وعطر الإسلام
منظومته الأخلاقية ورعاية الآخر

الإسلام دين عالمى ، مفتوح ، الرب فيه هو رب العالمين ، وعنايته بالعالمين .. لم يتجاهل الآخر ، ولم يعط للآخر ظهره .. ولا أغلق دونه بابه .. الإسلام دين ندى فواح بمنظومة من السجايا والخصال والشمائل اتجهت إلى المسلم ودعته إلى الاستزادة منها .. بيد أنها للمتأمل فيها صورة مثلى للاهتمام بالأغيار والآخرين .. ما يتحلى به المسلم من الشمائل ، إنما يهتم ويبذل ويعطى الآخر ويعتنى به ويرعاه . إن انعكاس الجمال يكون أكثر على من يراه أو يشاهده أو يتعامل معه .. وانعكاس القبح يكون أكثر وأكثر على من يمسه أو يكتوى بالتعامل معه — لذلك فكل جميل دعا الإسلام المسلم للتحلى به ، هو فى جانب من أهم جوانبه اهتمام وعناية بالآخر واحتفال به ورعاية له على نحو تصح به الحياة والأحياء دون جواز مرور من جنس أو عرق أو عصبية أو دين ! ..

ومن يتأمل حزمة ، أو منظومة الأخلاق والخصال والسجايا الإسلامية ، يدرك أنها تقدم للناس صورة للمسلم تعبر - شكلاً وجوهراً ومضموناً - عن الجمال والكمال .. وتستهدف أن تكون مناقبه بابه وجسره إلى الناس .. الأخلاق والسجايا والخصال والمناقب الإسلامية جمال وكمال لصاحبها ، ثم هي في جوهرها احتفاء وعناية بالآخر ، وعطاؤها يتجه في الواقع إلى الآخر .. ، ليس من شك أن التحلي بخلق ، مزية وتاج لصاحبه ، وسجية محمودة فيه ، إلاّ أن العطاء الحي لهذه الخصال والسجايا إنما يتجه للآخر الذي يتمتع بحصادها ويتلقى عطرها وعبقها في تعاملاته مع المسلم الذي حرص الإسلام على أن يتحلى بها . فالخصال والسجايا الإسلامية هي في حصادها النهائي عناية بالآخر تترجم عن عالمية وغايته في عمار الحياة بدوحة أخلاقية فاضلة ينعم فيها الجميع بأصداء وأنفاس وآثار هذه الخصال .

الصدق سجية يتحلى بها صاحبها ، ويثاب عليها .." يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ" (التوبة/ ١١٩) .. ولكن مرام الصدق يتجه إلى سداد القول وأمانة الشهادة وسلامة النية ، وكلها تتجه إلى الآخر وتعنى به - وترعاه .. " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَــوْلاً سَــدِيدًا" (الأحــزاب /٧٠) .. والصدق قوام الشهادة وغايتها ليحق الحق ولا يظلم أحد ، لذلك كانت إقامة الشهادة واجباً .. ولله .."وَأَقِيمُوا الشَّــهَادَةَ لِلَّــه " . (الطلاق/ ٢) .. ، وكتمانــها ظلم ."وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّه " (البقرة/١٤٠) .."وَلاَ تَكْتُمُــواْ الشَّــهَادَةَ وَمَــن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ".. (البقرة/ ٢٨٣) .."وَلاَ يَأْبَ الشُّــهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ " . (البقرة/ ٢٨٢) .. ولأن الصــدق والشــهادة كلاهما يتغيا الآخر، ويتحرى الآخر ، ويرعى الآخــر، حــض القرآن على الاستشهاد بذوى العدل والإنصاف فقال : "وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّــه " . (الطــلاق/٢): ـــ فالشهادة الصادقة يبذلها الشاهد ـــ المأمور بها ، إنصــافاً لحقــوق الآخرين ورعاية للحق من أن يجرى عليه اعتداء أو تغول..

يدرك المسلم السوى من هذه الوصايا القرآنية والمحمديــة ، أن الصدق ينبع من وجوب الالتزام قبل الحق والناس .. أن يكون ضماناً لسواء صفحة الحياة ، وإنصاف الأحياء .. فى أمانة تُوَفَّى ، أو شهادة تُؤدى ، أو قالــة صدق تنصف أو تصحح أو تحق الحــق الــذى ينشــده للإسلام ولا يجيز للآدمى أن ينشد سواه .

والأمانة .. إبتداءً وانتهاءً ــ أمانة للآخر ، ووفاءً للآخر ، وصيانة لحقوق الآخر ، فالخيانة تمس وتضر الآخر ولا ضرر ولا ضرار فى ديانة الإسلام ، لذلك كانت الأمانة ورعايــة العهد صفة للمؤمنين :"وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ" . (المؤمنون /٨) .. فالأمانة تؤدى لمن ائتمن ، والعهد يرعى لمن أخذ أو أعطى العهد .. لذلك أمر المسلم بأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد .. " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ" . (الأنفال /٢٧) .. " وَأَوْفُواْ بِالْعَهْــدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً " . (الإسراء /٣٤) .. " وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّــهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ " .. (النحل ٩١) .. " الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُــونَ الْمِيثَاقَ" (الرعد / ٢٠) ..

والوفاء بالكيل والوزن ، هو بــدوره وفــاء ورعايــة للآخــر ، وإنصاف للآخر ، ودرء لبخس أو ظلم الآخر ، .. فى القرآن المجيد : " وَأَوْفُواْ الْكَيْــلَ وَالْمِيــزَانَ بِالْقِسْــطِ " (الأنعام/١٥٢) ... " فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُــواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ " (الأعراف/٨٥) .. لايفوت المسلم الســوى من هذه الآيات أن غايتها من الحض علــى الوفــاء بالكيــل والميزان هوحماية الآخرين من المتعاملين من مضار الــبخس أو

الجور فى التعامل .. يقول القرآن للمسلمين : "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" . (الرحمن / ٩) .. "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" . (المطففين /١ـ٣) ..

هذه الخصال ، وبصريح النص القرآنى ، تصب فى الآخر ، وتعتنى به وترعاه وتصونه وتحفظه من الغش والظلم والخداع والخسران .. وهى سمات ملحوظة فى كل سجية قرآنية وخصلة إسلامية ..

" العدل " .. العدل هو عدل مع الناس .. إنصاف يتجه إلى الناس دون ما تفرقة لأعراق أو أحساب أو أنساب أو أديان .. العدل غاية فى ذاته ومهجة أساسية من مهج الإسلام .. فالله تعالى هو العدل ومن أسمائه العدل.. يعرف المسلم أن كماله وسعادته فى محاولة التحلى بأقصى ما يستطيع من هذه الصفة الربانية .. بها أمره ربه فقال فى القرآن المجيد : " إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ" (النحل /٩٠) .. " وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى " . (الأنعام /١٥٢) .. لا يحول بين الشاهد وبين

الإقرار بالحق أن يكون هو المشهود عليه أو على أحد من ذويه وأقاربه الأقربين " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ " .(النساء/١٣٥).. بل إن إنصاف الشانئ واجب ، ولا يسقط شنآنه واجب العدل معه .. " وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " . (المائدة /٨) ..

إحساس الإسلام بالآخر ، وعنايته به ، ورعايته له ، أقتضت فى منظومة أخلاق وسجايا هذا الدين ، أن تكون الشهادة واجبا إيجابيا لا يقبل من المسلم أن يقعد عنه أو يخبئه أو يكتمه .. الإسلام فى رعايته لحقوق الآخرين نهى عن كتمان الشهادة .. يقول القرآن المجيد : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن

تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِه ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّه وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (البقرة / ٢٨٢) .. فى هذه الآية ينهى القرآن عن القعود عن أداء الشهادة ، وفى الآية التالية يحذر من كتمانها فيقول الحق جل شأنه : " وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" (البقرة / ٢٨٣) .. كتمان الشهادة كتمان منكر للحق ، نهى القرآن المجيد عنه .. " وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ " (البقرة / ٤٢) . .. " أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " (البقرة / ١٤٠) .

هذه الشهادة واجب فى جميع الأحوال أن تكون شهادة صدق وحق وعدل ، لا زور فيها ولا تزييف ولابهتان ولا تضليل . " ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ" (الحج/٣٠) والبعد عن شهادة الزور صفة لازمة وحتمية من صفات المؤمنين الذين فيهم قال القرآن المجيد : "وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا" (الفرقان/٧٢)

هذه المنظومة الإلهية ، دعوة ربانية للعناية بالشاهد وبالشهادة ، لأنهما المدخل إلى الحق ، وإلى الباطل أيضاً .. لم تدع الأديان الشاهد إلى الصدق وترغبه فيه وكفى ، ولا دعت الناس إلى الإستشهاد بالعادلين وكفى .. وإنما راعت رشاداً للناس ورشاداً للشاهد ولشهادته ، أن تقيم ضوابط وشروطا للشاهد وللشهادة ، شروطاً بعضها ينصرف إلى تحمله أو أهليته أو صلاحيته للشهادة ، كشرط العقل والبلوغ والحرية وسلامة الحواس والدين والعدالة ، وبعضها ينصرف إلى أداء الشهادة وكيفيتها ..كحلف اليمين ، وصيغة

الشهادة ، وموافقتها للواقع ، ومجلس القضاء وأركانه وتقاليده ضماناً لأمان الشاهد فى رحابه حتى لايشهد بغير الحق والصدق .. فى الحديث : " إذا ابتلى أحدكم بقضاء فلا يجلس أحد الخصمين مجلساً لايجلسه صاحبه " .. ولا تسمح هذه القواعد بدخول عالم الشهادة إلاّ لمن احتاز شروطها ، وإلاّ فهو ممنوع منعاً صريحا من أداء الشهادة ، ومنهى نهيا قاطعاً حاسما عن الاستماع إليه ..الشهادة لاتقبل وإنما ترد بالتهمة ، وجماع أمرها فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم : "لاتقبل شهادة خائن ولا خائنة ولا زان ولا زانية ولا مجلود فى حد ولا خصم ولا مجرب عليه شهادة زور ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة " .. كان من حرص القضاء الإسلامى على الاحتياط للشهادة وضمان حيدة الشاهد ، أن رفض القاضى شريح دعوى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، وهو من هو ، التى خاصم فيها أعرابيا فى سيف طلحة التى أخذت غلولاً يوم البصرة ، ورفض شهادة ابنه الحسن وهو حفيد النبى لأنه ظنين لقرابته من علىّ ، وشهادة غلامه قنبر لأنه ظنين فى ولائه لعلىّ ! .

هذه العناية بالشاهد والشاهادة هى آيـة علـى عنايـة الإسلام بحقوق الناس كافة ، يؤدى إلى كل منهم حقـه ويضـمن الإشهاد عليه فى واجب لازم عن المسلم بذله والوفاء بـه بأمانـة وصدق فى جميع الاحوال مخافة أن يكون فى قعوده عنـه ضـياع لحقوق الآخرين .

والعفو والصفح ، مهجتهما الاخر، وقبلتهما الآخر، المسلـم مأمـور فى القـرآن بالصفـح .. " فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ" .. (الحجر/٨٥) – " وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَـا فَمَـنْ عَفَـا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّـهِ " (الشـورى /٤٠) .." وَلْيَعْفُـوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ " . (النور/٢٢) ..

والتواضع هو تواضع للآخر ، وخفض الجناح هـو بـدوره للآخر .. فالمتواضع لايتواضع لنفسه وإنمـا يتواضـع لغـيره .. "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"..(الشعراء /٢١٥) . " وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِـيظَ الْقَلْـبِ لاَنفَضُّـواْ مِـنْ حَوْلِـكَ " . (آل عمران / ١٥٩) ..

والإحسان بكل صوره وأشكاله .. إحسان للآخر .. للوالدين، وللجيران، ولذوى القربى، ولليتامى، وللمساكين، ولابن السبيل، وللأسير ..ولكل ضعيف ..والدعوة للإحسان للوالدين دعوة متعددة فى آى الذكر الحكيم ... " وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا " . (الإسراء / ٢٣) .. "وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا " (الأحقاف /١٥) .. "وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ " (لقمان /١٤) .. .. ولم تقتصر سجية الإحسان الإسلامية على الإحسان للوالدين ، وإنما هى لكل آدمى .. ولكل ضعيف .. هى للجار ، ولذى القربى ، وللمسكين ، ولليتيم ، ولابن السبيل .. فى القرآن المجيد : "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ " (النساء /٣٦) .. "إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى " . (النحل / ٩٠) .. " وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ " (النور /٢٢) .. " وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ " (البقرة/١٧٧) ..

لم يفرض القرآن شرطاً للإحسان إلى أى من هؤلاء ، ولـــم يضـــع قيوداً تؤثر قـــوماً دون أقوام ، ولا دينـــاً دون أديـــان .. فالإحسان لغير المسلمين واجب .. وليس بشرط للإحسان لليتامى أو المساكين أو الجيران أو أبناء السبيل أو السائلين أن يكون لمـــن على دين الإسلام .. فالإحسان لغير المسلمين مندوب إليه أيضـــاً .. " لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـــاتِلُوكُمْ فِـــي الـــدِّينِ وَلَـــمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِـــبُّ الْمُقْسِطِينَ" . (الممتحنة /٨)..

عمود الإسلام ، الذى غير واقع الدنيا ، هـــو اتجـــاه العبد إلى خالقه بكلياته وجزئياته بإخلاص تام وأمانة كاملة مع الشعور بفيض الرحمة والود الذى يثيره حتما ذلك الاتجـــاه .. هذا الاتجاه لا يتغير إذ الخالق جل وعلا لا يتغير ، وإنما الذى يتغير هو اتجاه الآدميين إليه سبحانه ، وجوداً وعـــدما ، قربـــا وبعدا ، جدا وهزلا ، فهما وغباء ، علما وجهلا .. وذلك على قدر بيت وبيئة الآدمى ووسطه وعصره وزمانه ومحيطه . فكل اتجاه جاد يشعر الآدمى بجده نحو خالقه ـ هو اتجاه مقبول عند

المسلم يصاحبه - لكى يصبح مسلما - الإيمان بالعقائد والاعتراف بالشعائر المقررة على كل مسلم ، ومن هنا توطدت أسس العلاقات السلمية فى القرآن بين المسلمين وبين غير المسلمين وأهل الكتاب .. لم تغمض عيون الإسلام قط عن أن الناس خلقوا مختلفين ، وأن هذا الاختلاف يجرى بين الأفراد عقولهم وقدراتهم وملكاتهم وفهمهم وعقائدهم ومذاهبهم ..فى القرآن المجيد بيانا لهذه السنة الكونية : " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ " . (هود ١١٨) .. روح وعمود الإسلام التفاته المحمود إلى هذا " الاختلاف " وموافاته بما يقتضيه من محافظة على العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين .. فى القرآن الحكيم :" الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " .. (المائدة/٥) ... أباح الإسلام للمسلم طعام أهل الكتاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها

وهو على دينه ، مثلها فى كل شـــىء مثـــل الزوجـــة المســـلمة سواء بسواء ..

الوفاء بالوعد والعهد وبالمواثيق ، مبدأ عـــام أوصـــى بـــه القرآن المـــجيد : " وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـــؤُولاً " (الإسراء ٣٤) .. فى صفات المؤمنين ، " وَالْمُوفُونَ بِعَهْـــدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ " (البقرة /١٧٧) .. العهد المتغيا هو كل عهد .. فى أى صورة من صورة ، وبأى شكل من أشكال إبدائـــه أو إثباتـــه .. العهد الشفوى كالكتابى ، والعهد بصيغته العامة وبـــأى عبـــارة يُقال ، كالعقد الذى يبرم ويعقد بين أطراف.. فى القرآن الحكيم : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ " (المائدة /١) .. يمتد هـــذا الوفاء المأمور به إلى وجوب أن تصادق الأفعال الأقوال ..

حق العهد والوفاء به مقدم فى الإسلام على حـــق الـــدين .. فى القرآن المجيد : " وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَـــوْمٍ بَيْـــنَكُمْ وَبَيْـــنَهُم مِّيثَـــاقٌ " (الأنفـــال ٧٢) .. قدم القرآن بصريح وآمر لفظه ، احترام ورعاية العهـــد والوعـــد

والميثاق على نصرة من يستنصر المسلمين فى الدين .. وفى الحديث النبوى : " إن حسن العهد من الإيمان " .

دل الإسلام على أن الوفاء بالوعد هو خلق الأنبياء والرسل الصالحين : " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا * " (مريم ٥٤) .. الجنة هى ثواب الوفاء بالعهد : " وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ .. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ."(المؤمنون ٨ـ١١) ..

لا شىء يبرر ـ فى أحكام الإسلام ـ نقض العهود والمواثيق ، حتى خيانة من اتفق وعاهد وخان .. لايزين الإسلام للمسلمين ـ بل يأبى عليهم ـ أن يتخذوا من خيانة المعاهد ذريعة للتردى فى مثلها ، وإنما لهم فقط أن يواجهوا خيانته بما يردها عليه ودون أن يتعدوا ذلك إلى الجور والتنكيل .. فى القرآن الحكيم : " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ." (النحل ١٢٦) .. وفى حديث رسول القرآن : " من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا

يحلنّ عهداً ، ولا يشدنه ، حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء . " ..

تقدم الإسلام وعاش ، بوفائه ووفاء رسوله ووفاء المسلمين بالعهد .. وكان هذا الوفاء والإصرار عليه وعلى أمان الجوار للمسلم ـ هو الأداة الرئيسية لنشر وانتشار دعوة الإسلام ..

أمان الجوار للمسلم ، لا يخرج منه أحد .. يعطى ويبذل للمسلم والكتابى ولغير الكتابى ، وللعربى ولغير العربى ، الطريق الفسيح لأولئك أو غيرهم لاعتناق الإسلام والحرص عليه ـ هو الثقة التامة فى كلمة المسلم ووعده وعهده ، وفى جيرة وجوار يمنحه المسلم لإنسان يخاف حتى يبلغ مأمنه .. " وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ " .. (التوبة /٦) .

أى آدمى يدخل إلى هذا العالم ، مصحوبا بهذا الوفاء والأمان، يدخل إلى عالم جديد مختلف عما يتركه وراءه فى العالم الآخر المشوب من قديم بالخديعة والغدر والخسة التى يتداولها الخلق فى دنيا الناس !

والتيسير والتسامح واجبان ، كلاهما يتجه عناية ورعاية إلى الآخر .. كلاهما من حزمة الخصال التى تنصرف معانيها وأصداؤها وعبقها إلى الآخرين .. ففى القرآن " وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ " . (البقرة /٢٨٠) .. وفى الحديث الشريف : " رحم الله رجلا سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا اقتضى " . - وحماية الآخر الضعيف حماية واجبة ، تمتد إلى المسلم وغير المسلم ، ولا تشترط صك تدين معين ، ولا تلفظ من رحابها أبناء الديانات الأخرى ، بل هى لا تطرد الكافر من حظيرتها حتى يسمع كلام الله ثم يُبلغ مأمنه .. " وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ " (التوبة /٦) .

دين مفتوح ، يتعانق مع الدنيا

هذا دين مفتوح ، يتعانق مع الدنيا ، ويفتح أبواب رحمته وعطائه للناس جميعا .. دين أراد لبنيه أن يكونوا نفحة عطاء وعطراً للآخرين .. انظر ماذا يقول القرآن فى وصل الفقير واليتيم والمسكين والأسير.. "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم

مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ". (البقرة ٢١٥). "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً " . (البقرة ٨٣) .. هذا هو الإيمان ، وهذا هو عطاء وصفة المؤمن ..المسلم شحنة عطاء ونفع ومودة للآخرين .. لايلفظ المسلم أحداً ولا يقسو على أحد، وإنما هو عبد ربانى يعلم مما وصاه رسول القرآن أن خير الناس أنفعهم للناس ، وأنه لايبادر أحداً بعداء .. ولا بكراهة ، ولا مقت .. هو نفحة عطاء ورفق ومودة للآخرين ..يصلهم ويعنى بهم ويرعاهم ..يقول القرآن المجيد فى وصف المؤمنين أنهم .."وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا". (الإنسان /٨).."فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ.وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ.فَكُّ رَقَبَةٍ.أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ" . (البلد/١١ ــ ١٦) ..

ومن منظومة الأخلاق الإسلامية التى ترعى الآخر ، الكرم والسخاء والجود .. لايجنب النار وعذابها إلاّ الأتقى الذى يتزكى ويجود بماله على الآخرين .. " وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ

يَتَزَكَّى .وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى . إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْـهِ رَبِّـهِ الأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى" (الليل/١٧ــ٢١) .

ومن هذه السجايا ، إكرام الضيف (الـذاريات / ٢٤ ــ ٢٧ ، هود / ٦٩) .. وغض البصر عن التطلع المـذموم إلى الآخرين .. المسلـم مأمـور بغض البصـر .. " قُـل لِّلْمُـؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ " (النور/ ٣٠) . ، ومأمور بالاستئذان قبـل الدخول على الآخرين : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّـذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْـدِ صَـلاَةِ الْعِشَاء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ " (النور/٥٨) .. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا " . (النور /٢٧) ..

وكما تبدو رعايـة الغـير فى السـجايا والأخـلاق والشمائل المندوب إليها ، تبدو فى الرذائل المنـهى عنـها .. فالمسلم منهى عن الكذب الذى هو عـدوان علـى الحقيقـة وعلى الآخرين ، وجزاء الكاذبين : " أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (المجادلة ١٥) .. وعن

الافتراء على الغير : " وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى" (طه / ٦١) .." وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا " (الأنعام /٢١)

.. وعن التباهي بالصدقات .." يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى "(البقرة/٢٦٤) .. ومنهى أيضاً عن سب وقذف الآخرين أو إشاعة الفاحشة .. " إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (النور /٢٣) .. " لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ " (النساء /١٤٨) .. لا يجوز للمسلم أن يغتاب الناس .. ولا أن يخوض فى حق الناس بما يكرهون .. "وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ " (الحجرات /١٢) .. ولا الهمز واللمز والتنابذ بالألقاب .. "وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ" . (الهمزة /١) .. المسلم بأدبه لا يسخر بالآخرين ، ولا يسيء إليهم .. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ " . (الحجرات / ١١) .. فى النهى عن شهادة

الزور وقـــول الزور ـــ يقول القرآن المجيـــد : "وَاجْتَنِبُـــوا قَوْلَ الزُّورِ"(الحج /٣٠) .. وعن كتمان الشـــهادة .. "وَلاَ تَكْتُـــمُواْ الشَّهـــَادَةَ وَمَـــن يَكْتُـــمْهَا فَإِنَّـــهُ آثِـــمٌ قَلْبُـــهُ" (البقرة/٢٨٣) .. وعن مخالفة الأعمال للأقـــوال .. " كَبُـــرَ مَقْتًـــا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُـــولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ" . (الصـــف /٣) .. وفى النهى عن سوء الظن بالناس .. " يَا أَيُّهَـــا الَّـــذِينَ آمَنُـــوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " (الحجرات /١٢) .. وعن النميمة .."وَلاَ تُطِعْ كُـــلَّ حَلاَّفٍ مَّهِيـــنٍ. هَمَّـــازٍ مَّشَّـــاءٍ بِنَمِيمٍ" . (القلم / ١١،١٠) .. وفى النهى عن الإنـــدفاع فى إتهام الناس بغير بينة وإستيثاق .. " يَا أَيُّـــهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَـــأٍ فَتَبَيَّـــنُوا أَن تُصِـــيبُوا قَوْمًـــا بِجَهَالَـــةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْـــتُمْ نَـــادِمِينَ" (الحجـــرات /٦) .. "وَلاَ تَجَسَّسُوا " .. (الحجرات /١٢) .. وفى النـــهى عن التكبر على الغير .. "أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ" (الزمر /٦٠) ، .. " كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" (غـــافر /٣٥) .. "فَادْخُلُـــواْ أَبْوَابَ جَهَـــنَّمَ خَالِـــدِينَ فِيهَـــا فَلَبِـــئْسَ مَثْـــوَى الْمُتَكَبِّـــرِينَ" (النحل ٢٩) .. " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَـــاتِيَ الَّذِينَ

يَتَكَبَّرُونَ " .. (الأعراف / ١٤٦) .." وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" (إبراهيم / ١٥) ... وفى النهى عن التباهى والخيلاء على الناس . " وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ " (لقمان /١٨) .. " وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً" . (الإسراء / ٣٧) .. وفى الزجر والنهى عن الظلم .. " أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ" (هود /١٨) .. "وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (الإنسان / ٣١) .."أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ" .. (الشورى /٤٢) ..وعن البخل فى البذل والعطاء للآخرين .."وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى.وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى" (الليل/ ٨ ــ ١١) .. "وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . (آل عمران /١٨٠) .. " الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا" (النساء / ٣٧) .. " وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " .. (الحشر/٩) .. وفى

الزجـــر والنهى عن خيانة الغير .. " إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا" (النساء / ١٠٧) .." إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِـــبُّ الخَـــائِنِينَ".. (الأنفال/ ٥٨) .."إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ".. (الحج / ٣٨) .. " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُـــواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ" (الأنفال / ٢٧) .

ما تندح به أسماء الله الحسنى

يدرك المسلم السوى الفاهم العاقل أن أسمـــاء الله الحســـنى معبرة عن صفاته ، تدعوه ويدعوه إيمانـــه بالواحـــد الماجـــد إلى المجاهدة لاكتساب ما يستطيع ببشريته أن يكتسبه منها .. يـــدرك بفهمه أن اسمى " الرحمن الرحيم " مشتقان مـــن الرحمـــة ، وأن الرحمة تستدعى مرحوماً يحتاجها وتبذل إليه ، تكفكف عنه وتحنو عليه .. يفهم المسلم مما هداه القرآن المجيد أن حظ العبد من هذه الصفة الإلهية أن يرحم عباد الله .. لا يستثنى منهم أحدا .. حـــتى الغافلين ، فإن رحمتهم تكون بصرفهم ـــ بـــالرفق والحســـنى ، لا بالبطش والصلف والاستعلاء ـــ عـــن طريق الغفلـــة والضياع .. أن يفتح لهـــم طريقاً إلى الفهم والاتعاظ باللطف لا بالعنف .. بعين الرحمة لا بعين الإيذاء .. يدرك المسلم الفاهم أن حظـــه مـــن هـــذه

الصفة الربانية أن لايدع فرصة للكفكفة عن مكروب أو محتاج أو مريض أو ضعيف أو مظلوم أو مغبون أو ضال أو مضلل أو تائه أو ضائع أو شارد أو محزون - إلاّ اغتنمها نجدة وغوثا ، ورحمة وكفكفة وعطاء ..

يدرك المسلم السوى الفاهم العاقل من اسم " السلام " - أن حظه منه فى سعيه ومجاهدته ، أن يكون سلما للآخرين .. قلبه خال من الغش والغل والحقد والشر .. هذا هو الذى يأتى الله تعالى بقلب سليم ويكون سلاماً يسلم الناس من لسانه ويده ، .. مثلما يدرك من اسم " المؤمن " - أن حظه البشرى منه أن يأمن الآخرون جانبه بل ويرجو أن يلوذ به كل خائف ليعتضد به فى دفع الهلاك عن نفسه فى دينه ودنياه كما قال له رسول القرآن : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأمن جاره بوائقه . " .. - يدرك المسلم الفاهم العاقل أن مناه الذى يرجوه لنفسه من صفة "الغفار" " الستار" أن يستر من غيره ما يحب أن يستر من نفسه .. أليس نبى الإسلام يقول : " من ستر على عبد عورته ستر الله عورته يوم القيامة ".. يدرك المسلم العاقل من صفة "اللطيف" -

أن ينهل منها مستطاعه ليكون على حظ من الرفق بعباد الله تعالى والتلطف بهم فى الدعوة إلى الله والهداية إلى سعادة الآخرة بلا إزدراء ولا عنف ولا تعصب .. هذه السجايا والشمائل بارزة ندية فواحة واضحة للمسلم أينما اتجه بنظره فى واحة الإسلام الوارفة الظليلة ..

أنداء وعطر الأخلاق الإسلامية

هذه المنظومة الأخلاقية الإسلامية ، منظومة بديعة رائعة ، شاملة جامعة مانعة .. أرادت للمسلم ورسمت له وحضته وأكدت عليه وأرشدته كيف يكون فى الدنيا ينبوع خير ومحبة وألفة ورفق وعطاء وتواصل .. كيف يكون نوراً يهدى، وصديقاً يؤاخى ، وصادقاً ينصف ، وأمينا يفى ، وعادلاً يعدل ، وشاهداً يؤتمن ويصدق وينصف .. وتاجراً يقسط ولا يبخس ، ومتعاملاً سمحاً إذا باع سمحاً إذا إشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا اقتضى .. كيف يعدل ويعطى الحق للآخرين من نفسه ولا يدفعه ظلم الآخرين أو شنآنهم ليظلم مثلهم .. كيف يتواضع للناس ولا يتكبر عليهم ، وكيف يخفض لهم الجناح ويألفهم ويؤالفهم فلا خير فى الإسلام فيمن لا يألف ولا

يؤلف .. كيف يكون رفيقاً يحب الرفق فى الأمـــر كلـــه لأن الرفق فيما حدث به رسول القرآن لا يدخل فى شـــيء إلاّ زانه ولا يخرج منه إلاّ شانه .. كيف تكون يـــده للآخـــرين هى العليا منحاً ووصلاً وعطاءً .. كيف يحسن ويبر بالآخرين .. بالوالدين ، والجيران ، والأقربين ، والأبعدين ، واليتامى والمساكين وابن السبيل .. بالمريض والضعيف .

المسلم المعطر بهذه الشمائل والخصال هو رسالة الإســـلام إلى الدنيا .. ورسوله إلى الناس .. يدرك المسلم السوى الفاهم أنه مثلما كانت الرسالة المحمدية رسالة إلى العالمين اصـــطفى الله لهـــا محمداً ، وأدبه سبحانه فأحسن تأديبه ، وقال فيه : " وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم /٤) .. وأرشده تعالت حكمته وأوصاه بأنـــه لو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله .. فإن المسلم الحامل للشمائل الإسلامية هو رسالة الإسلام إلى الدنيا فى كـــل مكـــان وعلى امتداد الزمان .. يفهم أن الإسلام دين جـــاذب جـــامع لا طارد ، ويفهم أنه يخرج بالإسلام عن رسالته الكبرى من يعبث أو يشوه هذا الوجه البهى الجميل البديع الجاذب المعطر لهذا الـــدين

.. يعرف أنه مؤتمن بأخلاقه وخصاله وسجاياه التى زرعها وبثها الإسلام فيه على هذه الصورة الندية الفواحة التى تشد القلوب والأفئدة إلى هذا الدين وبنيه وتجعله حقاً ديناً للعالمين .. يعرف المسلم السوى الفاهم العاقل أن الإسلام لن يكون عالميا للعالمين إذا ما نفّر الناس منه وانعطف به إلى زقاق وشوهه على غير جوهره وروحه وحقيقته وأبداه للناس خنجراً يدمى أو مدفعا يقتل أو قنبلة تدمر وتنسف .. يعرف المسلم الفاهم السوى العاقل أنه رساله فّواحه للإسلام إلى الدنيا ما بقى على هذه السجايا والشمائل التى زرعها ويبثها الإسلام فيه .. آلف ومألوف ، رفيق وحانٍ .. معطاء وغياث .. مهجته محبة الناس وتعطيرالإنسانية والحياة بهذه النفحات الإسلامية التى هى كفيلة بأن تملأ الدنيا ضياءً ونوراً وتنشر الإسلام فى الدنيا بأسرها وإلى آخر الزمان .

الإسلام
دين الحق والسلام

قلنا ، ولا نزال نقول ، وتقول الحقائق قبل وبغير أن نقول ، إن الإسلام دين عالمى ، ودعوته دعوة عالمية .. أراد لها الله تعالى أن تعم العالمين ، وأن يكون امتدادها فى المكان والزمان إلى ماشاء الله .. الله فى الإسلام هو رب العالمين ، لا رب قوم ولا أقوام بعينهم ، ولا أجناس دون أجناس ، ولا بلاد دون بلدان .. هذه العالمية تصافح المتأمل فى الإسلام الذى كرم الإنسان حيث كان .. " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " (الإسراء /٧٠) .. الإنسانية فى الإسلام أسرة واحدة ، تنتمى إلى جذور واحدة ، وإلى أصل واحد .. وتدين لرب واحد هو رب العالمين .. " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات /١٣) .. الخطاب فى الآية الكريمة موجه إلى الناس كافة ، لا إلى المسلمين بخاصة .. الناس أمام رب العالمين هم مخلوقاته التى خلقها سبحانه من نفس واحدة ، وقال فى قرآنه

المجيد : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا " (النساء /١) .. وفى الحديث : " ألا إن ربكم واحد .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

النبوة المحمدية نبوة للعالمين .. "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا " (سبأ /٢٨) .. " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا " (الأعراف ١٥٨) .. والإسلام لا ينغلق على بنيه ويدير للآخرين ظهره ، وإنما هو قد اتسع للرسالات كافة ، ونبه إلى وحدة هذه الرسالات الإلهية وإلى اكتمالها بالإسلام " الدعوة الخاتمة " ، ووقر الرسل والأنبياء .. هم جميعاً فروع شجرة واحدة وبناة بيت واحد اكتمل بنيانه بالإسلام .

رسالة الإسلام هى رسالة للعالمين .. ومهمته مهمة كبرى يصدر فيها عن منظومة ربانية وعن هذا الفهم العميق الذى يؤهله للقيام بهذا الواجب الكبير فى تعطير الحياة وصناعة العمران الخلقى والأدبى والمادى .. يعانق العلم ، وينتصر للحرية ، ويرسى العدل ، والمساواة ، والتسامح ، وهو لا

يستطيـــع أن ينجز هذه الملحمة المعهود بها إليه مالم تمتد الجسور قويـــة دافئة بينه وبين الدنيا بأسرها .. يقاربهم بروحه الســمحة ، وبوجهــه الصبوح ، وبأنفاسه المعطرة ، وبمنظومته العقلية والعلميـــة والحضـــارية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية الـــتى تعانقـــت فى تناغم متدفق لتجعل لحياة الآدمى غاية ومعنى ، وتقربه بالعمـــل الصالح إلى الدوحة الربانية التى أرادها الواحد الماجد - سبحانه - عز شأنه ، للعالمين .

دين المحبة والسلام

أيادى الإسلام الممدودة إلى الدنيا .. ممدودة بالمحبة والســلام .. لأن الإسلام دين الحق والسلام .. لا ينفصل الحق فيــه عــن السلام ، فلا سلام بغير حق .. الحق هو الحامى الحقيقى للسلام .. لا يقدر على السلام ولا يناله إلاّ من كان ملتزماً بالحق ساعيا إليه حريصاً عليه .. والتزام الحق مجاهدة وجهاد ، يبـــذلهما الإســـلام ويتعين أن يبذلهما فى حرصه الدائم على الســـلام مهجـــة وروح ورسالة الإسلام ..

لفظ " السلام " هو تحية الإسلام ، ولفظ الإســـلام ذاتـــه : عنوان الدين ، ـــ منحوت من مادة " الســـلام " ـ لأن الســـلام

والإسلام يلتقيان فى توفير الأمن والطمأنينة والسكينة .. وكان نبى الإسلام بذاته " رحمة مهداة " .. وفى القرآن الحكيم أنـــه عليـــه الصوات هو هدية الرحمة من السماء إلى العالمين .. " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" .. (الأنبياء/١٠٧).. وفى الحديث يقول إمام مدرسة النبوة : " إن الله جعل السلام تحية لأمتنا ، وأمانـــاً لأهـــل أمتنا " . – ويقول : "السلام قبل الكلام " .. " لاتؤمنـــوا حـــتى تحابوا .. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم " .. " إن من عباد الله أناساً ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانتهم مـــن الله تعـــالى : قـــالوا يارسول الله تخبرنا من هم ؟ – قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها . فو الله إن وجـــوههم لنور ، وإنهم لعلى نور .. لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس " .. " لا يدخل الجنة إلاّ رحيم .. من لا يـــرحم لا يرحم " .. " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا مـــن فى الأرض يرحمكم من فى السماء " .. ولم يقتصر بذل الرحمة فى الإسلام على بنى آدم ، وإنما يمتد بذلها إلى الطير والحيوان .." من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة يقول : يارب إن فلاناً قـــتلنى عبثـــاً ولم يقـــتلنى منفعـــة " .. وفى الحـــديث أيضـــا :

" عذبت إمرأة فى هرة حبستها حتى ماتـــت ..لاهـــى أطعمتـــها وسقتها.. ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض " .. وقد أثـــر عن أبي الدرداء أحد نجباء مدرسة النبوة ، أنه كان يتبع الصـــبيان فيشترى منهم العصافير فيرسلها وهو يقول : " اذهب فعش " !

حجة الإسلام إلى الدنيا هى الإقنـــاع بالحكمـــة والموعظـــة الحسنة ، لا يبغّض ولا يشاحن ولايكره – .. " ادْعُ إِلِى سَـــبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ " (النحل ١٢٥) .. "أَفَأَنـــتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ" (يونس /٩٩) .. " لاَ إِكْـــرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْـــدُ مِـــنَ الْغَـــيِّ" (البقـــرة / ٢٥٦) .. " وَلا تُجَـــادِلُوا أَهْـــلَ الْكِتَـــابِ إِلاّ بِـــالَّتِي هِـــيَ أَحْسَـــنُ " (العنكبوت /٤٦) .. " وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَـــابَ وَالأُمِّـــيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْـــكَ الْـــبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" (آل عمران /٢٠) .. " السلام " اسم مـــن أسماء الله الحسنى ، معبر عن بعض صفاته .. يدرك المسلم السـوى بنهجه ووجدانه أنه مدعو لاكتساب مـــا يســـتطيع ببشـــريته أن يكتسبه من هذه الصفة ..يفهم منها أن "السلام" هو مـــن تســـلم ذاته عن العيب وصفاته عن النقص وأفعاله عن الشر .. يدرك أن

سبيله إلى هذه الغاية أن تسلم نفسه وقلبه عن الغش والحقد والحسد .. عن إرادة الشر .. أن يأتى الله بقلب سليم .. أن يتقرب إليه سبحانه بالسلام الذى اتخذه جل جلاله اسما من أسمائه ..أن يسلم الناس من يده ولسانه ، وأن يكون جسرا لإفشاء السلام بين الناس ..

البينة والهداية عماد الإسلام وحجته ، والمحبة والسلام روحه وعطره .. .. المسلم مأمور بالأخذ بروح الإسلام ومهجته وتسامحه .. " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (الأعراف /١٩٩) .. " ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ " (فصلت / ٣٤) .. "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً " (البقرة ٢٠٨) ..

السلام مهجة وروح الإسلام .. تحية الله للمؤمنين تحية سلام : "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ " (الأحزاب /٤٤) ـــ ومستقر الصالحين ـــ دار أمن وسلام : " وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ " (يونس/٢٥) .. " لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ "(الأنعام /١٢٧) ، وأهل الجنة لا يسمعون لغوا من القول ، ـــ ولا يتحدثون بغير لغة السلام : " لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا " (الواقعة /٢٥ ، ٢٦) .

يد الإسلام مدت إلى الدنيا بالسلام

بهذا السلام ، مد الإسلام يده إلى الدنيا .. دعا الناس إلى عبادة الواحد الماجد البارئ المصور رب العالمين .. بدأ الرسول عليه السلام بأهل بيته فدعاهم إلى دين الله ، منهم من أسلم ، ومنهم من صده صداً عنيفا وآذاه فاحتمل الأذى صابرا محتسبا .. وثنى الرسول عليه السلام بقريش ، آمن منهم من آمن ، وأظهر له الباقون الشنف والصد والعدوان .. لاحقوه بالأذى ، وتطاول عليه السفهاء ، وابتدعوا صنوفا فى إعناته وإيذائه هو والمسلمين ، فاحتمل واحتملوا صابرين محتسبين .. لم يردوا على العدوان بعدوان ، ولم يجاوبوا الأذى بأذى مثله أو بأقل أو بأكثر منه .. استعوضوا ما يحدث لهم عند الله ، يدعون إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ..

لذلك فغريب عجيب اتهام الإسلام بأنه دين سيف وقتال ، فذلك هو الباطل بعينه ، تنبه إلى سخفه الكاتب المفكر الغربى الكبير توماس كارليل - صاحب كتاب " الأبطال وعبادة البطولة . " .. هو إذ اتخذ من رسول القرآن مثلاً لبطولة النبوة ، قال ما معناه فيما نقله عنه عباس العقاد فى كتابه : " حقائق الإسلام وأباطيل خصومه " :

" إن اتهام محمد بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم . إذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته ، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها ."

هذه حقيقة لا يختلف عليها منصف .. تنطق بها مراجع وكتب السيرة كافة .. روت جميعها حجم ونوع الإعنات والتنكيل والقسر والعدوان والإيذاء الهائل الذى تعرضت له الدعوة الإسلامية تعرضا لم ينج منه الرسول ذاته .. حتى وصف ذلك فقال : " لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ، وقد أتت علىّ ثلاثون ما بين يوم وليلة وما عندى ما يأكله ذو كبد إلاّ مايوارى إبط بلال ." !!! .

لعل صخور ورمال بطحاء مكة ، لا تزال تروى ملاحم التعذيب التى تعرض لها المسلمون حتى مات بعضهم صبراً على أيدى طواغيت كفار قريش .. لم تحم محمداً ذاته مترلته وسط البطن الهاشمى القرشى ..لم تحمه من أن تشج رأسه ، وتلقى عليه

الأقذار ، ويترصده القرشيون وعلى رأسهم عمه أبو لهب وامرأته حمالة الحطب وأبو جهل وغيرهم بالإيذاء والتكذيب والسخرية والتنكيل .. تطاول عليه الكبار والصغار والسفهاء .. عنفوا به أشد العنف وشجوا رأسه فى الطائف وقذفوه بالأحجار والأقذار حتى أعضل به وسقط إعياءً إلى سور جدار يبكى إلى الله ويشكو ظلم وجبروت وطغيان وعدوان الإنسان .. يدعو ربه فى كلماته الباكية فيقول .. " إليك أشكو قلة حيلتى وضعف قوتى وهوانى على الناس .. أنت رب المستضعفين وأنت ربى .. إلى من تكلنى .. إلى بعيد يتجهمنى أم قريب ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، بيد أن عافيتك أوسع لى . "

أقام رسول الإسلام فى قومه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى دين الله ، يصبر على تكذيبهم وسخريتهم وأذاهم ، ولا يقابل نكيرهم بنكير ، ولا يلين لإغراءاتهم ولا يقبل منهم إلاّ الإيمان .. وهم لا يريدون إيماناً، ولا يسيغون ما يدعو إليه محمد من عدل ومساواة وهجر للأصنام والأوثان ، وإنصاف للعبيد والمستضعفين .. فذلك يقوض دولة الطواغيت وهم لا يقبلون لدولتهم تلك وهناً ولا ضعفاً ولا تقويضا !! ..

لم يتوقف جبروت قريش وإيذاؤها على محمد والمسلمين معه ، وإنما امتد إلى كل بنى هاشم ، ضيقوا عليهم ، وغالبوهم وتظاهروا عليهم ، وحصروهم فى شعاب مكة .. حظروا على قريش أن يكون بينهم وبين بنى هاشم معاملة أو بيع أو شراء أو صهرأو اتصال ما .. وبذلوا فى التنكيل بهم كل سبيل .. حصروهم حتى اشتد عليهم الجهد وعظم عليهم البلاء .. حتى جاع صبيتهم فما ينامون الليل .. ولكنهم صبروا كراماً .. نظر المسلمون المغلوبون على أمرهم فلم يجدوا أمامهم إلاّ الهجرة الأولى ثم الثانية إلى الحبشة .. هجروا وطنهم ، وديارهم ، وأهليهم .. وتغربوا .. شدوا الرحال مهاجرين من الظلم ليأمنوا بعض الأمان على أنفسهم فى الوطن الغريب لدى شعب غريب .. لم تنفعهم مسالمة ، ولم تجدهم هجرتاهم إلى الحبشة ، وإنما لاحقوهم ولاحقوا أسرهم ونبيهم بالإعنات والإيذاء فى كل سبيل ، حتى لم يجدوا بدا من الالتجاء إلى يثرب وترك أعز بقاع الأرض عليهم .. مكة المكرمة والبيت العتيق .

استكثروا على المسلمين الهجرة إلى الحبشة ، فأرسلوا وفودهم فى أعقابهم إلى النجاشى لتحريضه عليهم .. ودفعه لردهم إلى مكة ليواصلوا إعناقهم وإيذاءهم .. بل ولم يدعوا محمداً رسول الإسلام يهاجر إلى يثرب فى سلام .. اجتمع طواغيت قريش فى " دار الندوة " للتآمر عليه واجتمعت كلمتهم على التربص به حول داره وقتله متضافرين ليتفرق دمه بين القبائل !!

مع ذلك كله ، وبرغمه ، لم يبادئ المسلمون أحداً بعداء ، لا حتى ردوا عدواناً بعدوان .. صبروا واحتسبوا .. ، ولم يعمدوا بعد ذلك بدهر إلى القوة إلاّ فى موقف دفاع أو درء فتنة أو لمواجهة قوة باغية متجبرة متعدية تصدهم عن الإقناع والدعوة إلى الله .. هم سالموا الحبشة ، بل وهاجروا إليها ، حين اتجه نبى الإسلام بدعوته إلى الفرس والروم ، اتجه بالحسنى صدوراً عن قاعدة إسلامية عليا .. " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ".. فماذا كان رد كسرى ؟! .. أرسل إلى رسوله فى اليمن يأمر بتأديب النبى أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه (؟!) ، أما الروم فقد بادروا بإرسال طلائعهم إلى تبوك .. ومع ذلك انصرف المسلمون دون قتال حين وضح أن الروم لا يتأهبون

لزحف..أما فى الجزيرة العربية ، فلم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها إلاّ أن تكون دفاعاً أو مبادرة لإتقاء هجوم وشيك أومبيت ! .

يهود المدينة لم يضمروا للمسلمين إلاّ شراً .. " وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ " (المائدة /٦٤) .. بنو قينقاع نقضوا عهدهم بعد غزوة بدر الكبرى وهتكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار .. بنوالنضير نقضوا بدورهم العهد مع المسلمين ودبروا لاغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام بإلقاء حجر عليه غيلة وهو بين ظهرانيهم .. بنوقريظة نقضوا هم الآخرون العهد ، وتآمروا مع الأحزاب على المسلمين .. ولم تقف القبائل العربية المجاملة لقريش أو المتنافسة معها موقف المتفرج .. أغاروا، وقطعوا الطريق ، وتآمروا ، وبادروا المسلمين بالعداوة ، وأصابوا المسلمين فى أنفسهم وأموالهم .. وتعرضوا للحارث بن عمير الأزدى رسول النبى عليه السلام إلى أمير بصرى فقتلوه .. ولم يتخلف يهود خيبر عن الكيد والإيذاء والنكال .. أخذ رئيسهم باين رزام يسعى فى تحريض العرب على المسلمين .. كذلك فعل زعيم

طواغيت قريش أبو سفيان الذى أرسل من يقتل النبى غدراً فى المدينة !!

هذه المطاردة والإعنات والإيذاء ، والمحاصرة والتضييق والتنكيل - كل ذلك لم يكن أمراً عارضاً ولا موقوتا .. بل هى حرب محمومة موصولة أخذت تشتد وتستعر يوما بعد يوم .. تزداد شراسة وتزداد عنفاً .. كانت بالنسبة لطواغيت قريش وطواغيت اليهود والقوى المحيطة بشبه الجزيرة العربية - معركة مصير!!.. نظروا للإسلام فضاقوا به كل الضيق .. ضاقوا بالتوحيد وعبادة الواحد الأحد رب العالمين التى تقوض مكانة الأصنام والأوثان التى إليها الحج بالبيت العتيق .. وضاقوا بالعدل والمساواة وكل ما ينادى به الإسلام من إنصاف للعبيد والمستضعفين .. هذه دعوة تقوض ملكهم وتهز منازلهم ولا محل لقبولها ولا لمهادنتها .. فشنوا هذه الحرب الضروس من جميع الجبهات ..لايدعون شرا ولا نكراً دون أن يتآمروا به على المسلمين ، إعناتاً وإيذاءً وتقتيلاً .. مضيقين عليهم

كل سبيل .. فماذا يفعل المسلمون ؟!!

هنا .. حين يحدق الموت والدمار والعسف من كل جانب - يكون الجهاد مرادفاً لحق الحياة والوجود .. القعود عنه تفريط .. وإيجابه هنا هو إيجاب المضطر الذى لا مخرج له سوى الدفاع بالجهاد .. الجهاد هنا هو من أجل الحياة .. والسلام .. لا ينال السلام إلاّ من كان قادراً على الجهاد .. كان الجهاد الاسلامى لحماية الحق والسلام لا للبغى والعدوان .. من يحب السلام ويعتنقه يجب أن يكون مستعدا قادراً على حمايته .. يروى تاريخ بنى الإنسان أن البغاة لايدعون " المسالم " فى سلامه مالم يكن قادرا بالحق على حمايته والدفاع عنه .. لن يكفى " المسالم " مسالمته مادام فى الدنيا شر وبغى .. ولم يتوقف الشر ولا البغى منذ خلق الله آدم وحواء حتى الآن .. لم يفارق الإسلام سلامه حين قبل الجهاد لضرورة دفع قوى الشر والعدوان عن الإسلام والمسلمين .. الجهاد لم يقرر للعدوان ، وليس حربا للاعتداء والبغى .. الجهاد وسيلة مقدورة حين

لايكون هناك مندوحة عنه لمواجهة ورد الشر المصمم على البغى والظلم والعدوان .. لذلك فهو محكوم بالضرورة الداعية إليه ، وبأحكامه وحدوده وضوابطه .

الإسلام
والجهاد من أجل السلام

الجهاد الإسلامى لم يكن للبغى أو الظلم والعدوان .. الجهاد فى الإسلام هو لمدافعة ورد البغى والجور والظلم وإزالة الصد المتجبر الطاغى عن سبيل الله .. الجهاد قدرّ على صاحب الحق حين يجور عليه البغاة والطغاة ويضيّقون عليه الخناق ويبذلون فى إيذائه والعدوان عليه كل نكير .. حين تكون المدافعة ضد العدوان قدراً مقدوراً ، يفرط صاحب الحق فى حقه وفى وجوده ذاته إذا قعد عن بذلها .. هذه الحقيقة واضحة جلية فى أول ما نزل من القرآن المجيد إذنا بالجهاد بعد أن أعضل البغاة بالإسلام والمسلمين وأذاقوهم الأمرّين وسدوا أمامهم المنافذ وكل سبيل .. بعد أن أعنتوهم وآذوهم وعذبوهم وقتّلوهم وتآمروا عليهم وأخرجوهم مهاجرين من ديارهم ، ولاحقوهم بالكيد فى مهجرهم بالحبشة ، وبالأذى والنكير فى دار هجرهم بيثرب ، وتآمروا عليهم فى تحالف جَمَعَ كل قوى الشر البغى – رغم اختلافهم ! – على هدف واحد هو خنق الإسلام ومطاردة المسلمين !!

هؤلاء المعذبون المطـــاردون الملاحقـــون المـــأذيون المضـــرورون المهاجرون .. لم يبادروا أحداً بعداء ولا بعدوان .. أكرهوا إكراها على مفارقة الوطن والدار والأهل والمال .. احتملوا ما احتملوه فى صبر شديد ، حتى أذن الله تعالى لهم بالدفاع عن أنفســـهم .. هذا الدفاع الذى لم يعد لهم مندوحة عنه ، أو ســـبيل ســـواه .. يقول القرآن المجيد : " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّـــهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَـــقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ " (الحج ٣٩ ، ٤٠) .

العلاقة بين الناس فى شرعة الإسلام علاقـــة ســـلم ، لا يقطعها إلاّ الاضطرار للدفاع لدرء بغى من يبغى على الإسلام أو المسلمين ..ومع أن الجهاد هنا ضرورة ملجوء إليها لا مناص ولا مفر منها ، فإن المسلم مأمور بأن يكتفى فى دفاعه بالقدر الذى يدفع به الأذى ، بل ومأمور بتأخير المواجهة ما بقيت له وسيلة إلى الصبر والمسالمة .

علاقة المسلمين بمن لم يقاتلوهم أو يخرجوهـــم مـــن ديارهـــم ـ علاقة ســـلام وبر ومودة : " لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَـــنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـــوكُم مِّـــن دِيَـــارِكُمْ أَن

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " (الممتحنة /٨) .. النهى عن الموالاة إنما هو عن الذين اعتدوا وقاتلوا المسلمين فى دينهم وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم .." إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (الممتحنة /٩) .. ـ الحرب لا تكون طلبا للنفوذ أو السلطان أو التوسع : " تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا " (القصص/٨٣) .. ولا تكون الحرب للانتقام أو العدوان : " وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ " .(المائدة/٢) .. ولا للتخريب والإتلاف والإفساد : "وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا " (الأعراف/٥٦) ..

والدفاع فى الإسلام ـ دين " العالمية " الخاتم ـ رهين بعلته وغايته .. لايقبل ما استباحته شرائع سابقة من نهب وسلب واستعباد وتسخير .. ففى العهد القديم لليهود ، بالإصحاح العشرين من سفر التثنية ، تقول الشريعة اليهودية لأبنائها المقاتلين !

" حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصـــلح . فإن أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيهـــا يكون لك للتسخير (!!) ويُستعبد لك (!!!) . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يـــدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف (!!) وأما النساء والأطفـــال والبهائم وكل مافى المدينة وكل غنيمتها فتغنمهـــا لنفســـك (!!!) وتأكل غنيمة أعدائك (!!!) التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمـــم هنا . أما مدن الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريما !!! "

(١١ ـــ ١٧ ـــ الإصحاح /٢٠ ـــ سفر التثنية)

وأقسى من هذا الجزاء جزاء المدن التى يـــنجم فيهـــا نـــاجم بالدعوة إلى غير إله إسرائيل ، فإنها كما جاء فى الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية :

" فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف (!!) وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف (!!) تجمع كـــل أمتعتـــها (!!) إلى

وسط ساحتها وتحرق بالنار (!!) .. المدينة وكل أمتعتـــها كاملـــة للرب إلهك ، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعده !! "

(١٦ - ١٧ - الإصحاح /١٣ - سفر التثنية)

أما الإسلام – الدين " العالمى " الخاتم – فلم يعمد إلى القوة إلا لمحاربة القوة التى تطغى أو تجور أو تجتاح الديار أو تصد عـــن سبيل الله ، فإذا كان لامندوحة عن الدفاع ، ففى إطـــار غايتـــه لايتعداها .. حتى أن الإسلام أول الشرائع التى وضعت أسس مـــا يسمى الآن بقانون الحرب .. " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُـــوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ " .. (الحـــج٣٩ ، ٤٠) .. هـــذا الإذن بالدفاع هو فى حدود درء العدوان ولا يبيح الاعتداء .. القتـــال مشروع لضرورة دفع من يقاتل المسلمين ـــ دون بغى ولا تجـــاوز ولا عدوان .. " وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (البقرة /١٩٠) .. " فَمَنِ اعْتَـــدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَـــيْكُمْ وَاتَّقُـــواْ اللّـــهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ " .. (البقرة /١٩٤) فالرد على قدر الحاجة ، والدفاع مقدور بقدر الاعتداء .. لايجاوزه .. بل

والصبر خير للصابرين .. " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُـــوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ" (النحل /١٢٦) .. القتال لضرورات منها درء الصد عـــن ســبيل الله والـــدفاع عـــن المستضعفين المظلومين المقهورين من الرجـــال والنســاء والولدان .. " وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـــذِهِ الْقَرْيَـــةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا " .. (النساء/٧٥) .. المسلمون مأمورون بالتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .. "وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ " (المائدة/٢) ..

الجهاد المباح ـ إذا أبيح ـ هو تجاه المقاتلين لا سواهم إذا كان لا مندوحة عن القتال ، فوصايا الإسلام تقــول : "لا تقتلوا شــيخا فانيا ، ولا طفـــلاً ، ولا صـــغيراً ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وأصـــلحوا ، وأحســنوا إن الله يحـــب المحسنين ." .. فى الوصية إلى يزيد بن أبى سفيان وهـــو شاخص إلى الشام : ـ " أوصيكم بتقوى الله ، ولا تعصوا ولا تغلـــوا، ولا تهدمـــوا بيعـــة، ولاتحرقـــوا نخـــلاً ، ولا زرعاً، ولا تذبحوا بهيمة ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تقتلـــوا

شيخاً ولا صبيا ولا صغيرا ولا امرأة – وستجدون أقواماً قد حبسوا أنفسهم فى الصوامع (يتعبدون) فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له" .

فى واقعة أحد مثلوا بحمزة عم النبى تمثيلاً شنيعا ، بقرت بطنه ولاكت كبده هند بنت عتبة وزوج أبي سفيان آكلة الأكباد .. فلم يرد المسلمون عليهم ولم يمثلوا بأحد من قتلاهم .. بل ونهى عن ذلك رسول القرآن صلى الله عليه وسلم فقال : " إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور . " .. الحرب محكومة بغايتها وضرورتها والمواجهة فيها مقصورة على المقاتلين .. لاعدوان ولا مساس بشيخ أو امرأة أو طفل أو جريح أو أسير .. الأسير مرعيّ ومصون ، " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" (الإنسان /٨) والمن سابق على الفداء فى إطلاق الأسير .. " فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا "(محمد/٤) .. والجهاد إذا شرع فليس للإيذاء ولا للدمار .. فلا تخريب ولا إتلاف .. وخلاصة هذه الوصايا أجملها أبو بكر الصديق فقال : "ألا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا

شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قـــد فرغـــوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . " .. المســـلمون لا يبادرون إلى قتال من يبغون عليهم ، وإنمـــا يـــدعونهم أولا ، بـــل ولا يبادئون بقتال حتى يبدأوا .. فى وصية نبى البر عليه السلام إلى معاذ بن جبل : "لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فإن أبوا ، فـــلا تقـــاتلوهم حـــتى يبدأوكم ـ فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً : ثم أروهم ذلك ، وقولوا لهم : هل إلى خير من هذا السبيل ، فلأن يهـــدى الله على يديك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت " .

الإسلام ـ الدين " العالمى " الخاتم ، يدعو المسلم إلى السلم مادام " الباغى " قد عدل عن بغيه وعدوانه وجنح إلى السلم " .. " فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّـــهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً" (النساء/٩٠) .. " وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (الأنفال /٦١) .. بل إن الجنوح للسلم دعوة مقبولة حتى وإن شابتها مظنة الخديعـــة : "وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ" (الأنفال/٦٢) .

* * *

ضوابط الجهاد لا تؤخذ ولا تستقى من أفكار الخارجين عن نص وروح الإسلام ، ولا من شطحات المغلوطة تصوراقم عن الإسلام ، ولا من مغالاة المغالين الذين لم تتسع رؤيتهم لتستخرج القواعد الصحيحة من الرؤية الكلية الشاملة الكاملة التامة لديانة الإسلام وروحه وأحكامه .. تلك الرؤية التى تفرق بين الأمهات وبين الوقائع الآنية الوقتية المحكومة بمناسبتها أو بظروفها والتى ينبغى أن تكون محكومة فى جميع الأحوال بالآيات اللائى هن أم الكتاب ، وبالأحكام العامة الكلية التى يقوم عليها صرح الدين الحنيف الذى أراده الله سبحانه وتعالى وجعله دينا للعالمين ..

أصاب الشيخ الجليل عبد الوهاب خلاف حين نبه فى كتابه السياسة الشرعية — إلى أن هناك من لا يلتفت إلى أن بعض آيات الجهاد نزلت مقترنة بالسبب الذى من أجله شرع القتال فى مناسبات معينة محددة .. هذا القتال الذى شرع أو حض عليه أو دعى إليه فى تلك المناسبات أو الظروف الآنية المعنية — هو لقطع الفتنة أو حماية الدعوة أو دفع الاعتداء .. يذكر فى القرآن أحياناً مقروناً بسببه ، وأحياناً أخرى تكتفى الآيات بعلم السبب فى آيات أخرى .. فلا موجب فيما يقول الشيخ الإمام – لتقرير تعارض

بين الآيات ، أو القول بنسخ المطلق للمقيد .. فهذا تمزيق للآيات يتجاهل أن الآيات المستند إليها كانت مقرونة بأسبابها لمواجهة حوادث بعينها استوجبت استنفار المسلمين للدفاع .. مثلا : ما نزل من سورة الأنفال فى غزوة بدر الكبرى (الآية ٦٥) .. " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ" (الأنفال /٦٥) .. الكفار المعنيون فى الآية هم كفار وطواغيت قريش ، وكانوا هم المعتدون الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وتابعوهم بالإعنات والنكال .. فالتحريض هنا هو للدفاع لا العدوان .. كذلك فى غزوة أحد ــ كان كفار قريش هم المعتدون ، ونزلت الآية / ١١٨ من سورة آل عمران مقرونة بسببين .. " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ" (آل عمران /١١٨) .. كذلك بعض آيات سورة التوبة أو براءة ــ نزلت فى ناكثى العهد من الكفار والمشركين .. " وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ " (التوبة /٥) .. المحاصرة المطلوبة هى لكفار بعينهم وبذواتهم نكثوا عهدهم وكادوا للمسلمين ..

لذلك قال القرآن المجيد : " فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" (التوبة /٧) .. وقال بعد ذكر نكثهم : " أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ " (التوبة/١٣) .. هذه الآيات وفى مقامها ومناسبتها المحددة لا تفيد القتال على إطلاقه (الشاطبي : الموافقات جـ ٣ /٥٨ ، تفسير المنار – رضا جـ ١١ / ٢٧٩ .. ، شلتوت – الإسلام عقيدة وشريعة ، والدعوة المحمدية والقتال فى الإسلام ص ١٦) – بل لأسباب بعينها يجمع بينها الدفاع أو درء الفتنة وتأمين الجوار ، لا البغى ولا العدوان ..

القرآن المجيد حافل بآيات يستحيل معها أن يكون الجهاد للبغى والعدوان ، أو لنشر الدين .. فى خطاب قرآنى واضح جلى وصريح موجه للمصطفى عليه السلام : " إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ" (فاطر /٢٣) .."وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا " (سبأ /٢٨) .. "إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ " (الشورى /٤٨) .. " فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ" (الغاشية ٢١/٢٢) .. " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ"

(يونس /٩٩) .. " لاَ إِكْرَاهَ فِي الـــدِّينِ " (البقـــرة /٢٥٦)
" ادْعُ إِلـــى سَـــبِيلِ رَبِّـــكَ بِالْحِكْمَـــةِ وَالْمَوْعِظَـــةِ الْحَسَـــنَةِ "
(النحل ١٢٥)

أجل حارب الإسلام وحارب المسلمون ، ولكنهم لم يحـــاربوا لنشر عقيدة ، ولم يحاربوا للعدوان والتغول علـــى عبـــاد الله ، ولم يحاربوا للاستعلاء فى الأرض ، ولا لإفساد فيها .. حارب الإسلام مضطراً إما للدفاع ودرء الفتنة ، وإما لمواجهة ودرء الصد عـــن سبيل الله وضرب الدعوة ، وإما لحماية الجوار فى دولة الإسلام ..

لم يتوقف الهجوم والتعدى على الإسلام والمسلمين قط .. مشاهد التاريخ تؤكد وتروى أن ما صادف الدعوة الإسلامية فى مهدها ظل موصولاً فى إصرار غريب من أعـــدائها .. ترصَّـــدت للإسلام والمسلمين قوى البغى والشر والطغيان فى كـــل أوان .. وتتالت عليهم حملات الطامعين والبغاة .. هاجمهم الروم ، وهاجمهم وناوشهم الفرس ، وهاجمتهم موجات متتالية من التتار .. وغزاهم فى ديارهم ومقدساهم من اتشحوا بوشاح الصليب ، والمســـيحية بريئة بمبادئها السامية مما فعلوا .. إن الذين كتبوا فى " الجهاد " فى هذه الأقطار الإسلامية المعتدى عليها ، كتبوا من وحى مـــا وقـــع

على أقطارهم من ظلم وبغى وعـدوان .. طبيعـى أن تكتـوى آراؤهم بالتجارب المرة التى صادفها الإسلام قديما والـتى ظـل يصادفها إلى الآن، وبالاعتداءات الغاشمة المتتاليـة علـى أهلـهم وناسهم وأقطارهم .. يستطيع المستقرئ للكتابات المختلفـة أن يلمس هذا الاتجاه فى الكتابات التى واجهت غـزو المغـول ، وفى كتابات الشمال الأفريقى الذى اكتوى بالاسـتعمار الفرنسـى وممارساته الباطشة .. وفى كتابات الذين انفعلوا بموجات الحروب الصليبية وما فعلته فى مصر والشام تحت شعار الصليب والصليب منها براء .. هذا الإتجاه تكرسه اليوم هذه الحملات الدامية المتتالية التى تتهجم بها الحضارة الغربية علـى الإسـلام والمسـلمين ، فى البوسنة ، والهرسك ، وألبانيا ، والفيلبين .. فى التحالف المـزرى المؤسف الظالم بينها وعلى قمتها الولايات المتحدة الأمريكيـة — وبين ترسانة السلاح والعدوان والاحتلال الإسرائيلى الاسـتيطانى الذى أتى ويأتى فى فلسطين على الأخضر واليابس ، ويبيد شـعباً مسلماً بأكمله ، لايستثنى من ذلك طفلاً ولا شيخاً ولا امرأةً !!

مواجهة العدوان والحروب العدوانيـة تسـتوجب اسـتنفار نفوس الشعوب المعتدى عليها للدفاع عـن مصـيرها بـل عـن وجودها نفسه..

ذات هذه الأسباب هى التى دعت البعض - فيما أعتقد - إلى عدم التوقف عند أسباب ومناسبات نزول بعض الآيات التى كانت لمواجهة عدوان معين محدد وقع على الإسلام والمسلمين يستوجب استنفاراً وحضاً لمواجهته بالدفاع الذى توجبه كل شريعة من شرائع السماء وقوانين الناس لمواجهة الاعتداء .. لاتوجد شريعة من الشرائع تحرم الآدمى - فرداً أو شعباً - من حق الدفاع إزاء العدوان ، والاستنفار لدفع الاعتداء بالدفاع الشرعى - لا يعنى أن الحرب هى الأصل .

أجل ، هناك من شردوا عن الإسلام وفسروه تفسيرا مغلوطاً .. بيد أن العيب فى نظرهم لا فى الإسلام ، والخطأ فى فهمهم لا فى الإسلام .. لا يسأل الإسلام ولا يحسب عليه إلاّ مافيه .. ما تضمنته أحكامه قرآناً وسنةً ، بغض النظر عن مرايا الآخرين مقعرة أو محدبة .. حتى لو كانوا من المنتسبين إليه أو المحسوبين عليه .. فالحركات الغالية أوالشاردة أو المغلوطة لم تخلُ منها جماعة أو أخرى محسوبة على هذا الدين أو ذاك ، أو على هذه الشريعة أو تلك ، ولولا أن يظن أن مقصدنا هو الإساءة للآخرين لسردنا صحائف سوداء من هذه الممارسات وهى بالغة الكثرة والتنوع ، لم

يترد الإسلام فى سحبها على الشرائع أو الـديانات الأخـرى الـتى خرجت منها أو عليها مثلما يريدون أن يفعلوا به الآن !! .

لا يحقق السلام من لايقدر على الحرب .. الإسـلام لا يبـادر أحداً بعدوان ولا بحرب ، بيد أن حمايته مـن عـدوان الآخـرين واجبة .. لايمكن لجماعة ، ولا لمجتمع ، ولا لنظـام أيـا كانـت مرجعيته .. دينية أو علمانية ، أن يتجاهل الحرب أو القتال حـين يُفرض عليه أو حين يحدث أو حين تقوم دواعيه ولايكون هنـاك محل لتجنبه !!

هل يستطيع الفلسطينى الملاحق بالقتل والتدمير والإبادة أن يتجنب القتال المفروض عليه ، فإذا واجهه بما يجب عليه ، صـار الدين الذى ينتمـى إليـه دينا عدوانيا يحـض على القتال ، وصار الاستشهاد بغيا وعدوانا (؟!) .. هل يستطيع العراقى حين تداهمـه آلـة الحرب الأمريكية / الغربية / الإسرائيلية ــ فى الحرب المجنونة التى شنوها عليه ، أن يتجنب الدفاع عن نفسه ووطنه .. فإذا فعل كان عدوانيا ينتمى إلى دين عدوانى يحرض على الجهـاد ويدعو إليه (؟!) .. هل كان يستطيع مسلمو البوسنة والهرسك وأفغانستان وغيرها ، أن يعطوا - بلا مقاومـة - صـفحات

قلوبهم ورقابهم وأوطانهم إلى آلة الحرب المعتدية المتجبرة لتعمل فيهم التقتيل والإبادة ، فإذا قاوموا دفاعاً عن أنفسهم بات الإسلام دين بغى وعدوان (؟!!) .. !!

إذا كان الآدمى باغيا معتديا فى دفاعه عن حياته ووجوده ومصيره وداره وبلده ووطنه ـ فماذا تكون الحضارة التى امتشقت سلاحها وحركت ترسانتها وآلة حرب هائلة وهاجمت وطناً لتبيد شعباً ، أو تعزل حاكماً اختاره شعبه ، أو تحاصر بلدا وشعبا بأكمله لظن ـ أصاب أم أخطأ ـ بأن حكومته ساهمت فى حادث طائرة ؟!!!!

أليست الدعوة إلى الثبات والصمود ، والتحريض على المقاومة هى الطريق الوحيد للأقلام والدعوات ؟! .. فإن فعلت قيل إن الإسلام يحض على القتل والعدوان ؟!! ..

أمر طبيعى ، وغيره غير معقول ، أن تتأثر الدعوات والكتابات بما هو جار الآن من تغول وحملات على الإسلام والمسلمين ، مثلما تأثرت سالفاً فى الحض على الدفاع أمام الحملات المشنونة كذبا تحت شعار الصليب ، أو تلك الهجمات المضرية التى شنها المغول ، أم تلك الممارسات المؤسفة التى تملأ

دنيانا فى هذه الأيام تحكى غيبة العدل وتعالى الغطرسة وطحن الضعفاء والمغلوبين على أمرهم !! ..

أكثر من هذا شرا ، أن يطلب المعتدى من المعتدى عليه أن يستنيم ، وأن يستخذى ، وأن يقبل الموت .. أو الهوان ، وألاّ تخرج كلماته أو صيحاته أو بالأحرى أناته — عن حد القصد والاعتدال ، وإلاّ بات الإسلام مشجوباً بالعدوان والإرهاب إلى آخر الزمان ؟ !!!

لا نتجنى على الإسلام ، ولا يتجنى عليه أحد ، حين نقول إن دعوته العالمية استوجبت السلام الذى ظل روحه ومهجته منذ كان وإلى آخر الزمان .. حسب المسلم وحسب الآخرين ، أن يراجعوا منظومته فى العدل وكراهة الظلم ، وفى شخصية المسئولية ، وفى السماحة التى اتسعت للجميع ، وفى احترام العهود والمواثيق والعلاقات الدولية ، ليدركوا بغير عناء أن رسالة الإسلام الكبرى رسالة سلام وعمار للعالمين .

دوحة العدالة فى الإسلام

من أركان عالمية الإسلام ، واتساعه لكل زمان ومكان ، وللناس كافة ، أنه بمنظومته السامقة أقام دوحة وارفة يستطيع كل آدمى أن يستظل بظلها الظليل وأن يعيش آمناً مطمئنا فى رحابها علـــى نفسه وماله وحريته وعرضه ، مهما كان عرقه ، أو جنســـيته ، أو دينه ، أو مكانته ، أو نسبه ، أو ماله ، أو غناه ، أو فقره ، أو قوته ، أو ضعفه ..

إقامة العدل ، ليست فضيلة مطلوبة وكفى .. إقامـــة العدل إقامة للحياة ذاتها على أسس صحيحة آمنـــة تســـتقيم وتتواصل وتمضى معها حياة الناس فى ارتياح نفسى وطمأنينـــة وأمان وسلام .. فى هذه الدوحة المشع فيها العدل ، لا يتغول أحد على الآخر ، ولا يضيمه ولا يجور عليه ولا يفتات على حقوقه ولا يتعدى على حدوده ولا يمس كرامته ولا يجرحه ولا يسئ إليه ولا يتجنى عليه .

يعرف المسلم مما علمه الإسلام وطالعه فى القرآن المجيـــد أن "العدل " هو اسم من أسماء الله الحسنى ، وصفة مـــن صـــفاته .. ويعلم فيما يعلم أن عدل الحق سبحانه وتعالى مطلق ، ولكنه يدرك

أنه يتوجب عليه أن يتطلع على الدوام إلى ما اتصـف بـه المثـل القدسى الأعلى ، محاولاً فى سعيه جميعا أن يجمـع مـن صـفات ومعالم العدل ما تتسع له طاقته وتتيحه وتقدر عليه بشريته .. لاينى فى ذلك ولا يقصر - يمضى إلى غايته السامقة متطلعاً إلى السـماء راجيا من الله أن يفىء عليه من الهدى وأن يمنحه من العـزم مـا يكون به مستقيماً عادلاً ، وأن يكون بعدله نفحة وهابـة تعطـر الحياة بالعدل والإنصاف ..

يعرف المسلم من قرآنه المجيد ، أن الله تعالى قد أنزل كتبه ورسله وشريعته بالعدل ، ولإقامة الحق والقسط .. يتلو فى محكم التنزيل قوله سبحانه : " لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . " (الحديـد/٢٥) .. بالعدل أقام الخالق البارئ هـذا الكـون وخلـق سمواتـه وأرضينه، على ميزان دقيق معجز .. هذا الميزان الذى يرنو إليه المسلم ببصره وبصيرته ، فيعدل عدل الميزان ، ولا يظلم ولا يتجـبر ولا يطغى .. يقيم علاقاته مع الناس بالقسط ، ولا يخسر معهم ولا يخل فى الميزان .. " وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُـوا الْـوَزْنَ بِالْقِسْـطِ وَلا تُخْسِـرُوا الْمِيـزَانَ . "

(الرحمن ٧ــ٩) .. وكيف يفارق المسلم عدله مع الناس ، وهو يرى من قرآنه المجيد ، ومن سنة وسيرة نبيه المصطفى صـــلى الله عليه وسلم ، أن إقامة العدل كانت إحدى دعائم وأركان رسالته العالمية العظمى التى اتجهت إلى العالمين .. يردد المسلم فى صـــلواته كلام ربه إلى الهادى البشير موصياً له:" وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّـــهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِـــيرُ. " (الشورى /١٥) .. يراجع المسلم سيرة النبى الخاتم فيجد فيهـــا العدل مجسداً بكل معانيه .. وكيف لايكون ذلك وهـــو هـــو ــــ صلى الله عليه وسلم ــــ الذى مافتئ ينادى فى المسلمين بكلمـــات رب العزة فى حديثه القدسى .. " يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً .. فلا تظلموا . "..ويقول للمؤمنين من آيات القرآن المجيد : "يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْـــــوَى .. " (المائدة / ٨) ..

لاغرو أن يكون محمد المصطفى إمام العـــادلين ، فى أكنافـــه قامت واحة العدل ودوحته المعطرة ، يضرب للناس - كل الناس -

المثل بنفسه فى العدل والقسط والإنصاف .. يعدل ، ويقسط ، وينصف .. من نفسه ومن الناس ، ولايقبل لأحد أن يُظلم أو يُضام أو يجُار عليه .. كان صلى الله عليه وسلم أعدل الناس وأقسط الناس وأعف الناس وأصدقهم لهجة .. عرف فيه الناس ذلك قبل الدعوة مثلما عرفوه وعاينوه بعد الدعوة .. شهد له بذلك محادوه وأعداؤه ، وكان يسمى قبل النبوة الصادق الأمين . وقال ابن إسحق فى السيرة النبوية لابن هشام - إنه عليه الصلوات كان يسمى بذلك بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة ، وبأمانته وعدله .. من تواضعه الجم ورفقه ولينه .. اجترأ عليه يوماً أحد الجفاة ، فما نهره ولا أساء إليه ، وإنما قال له : " ويحك : فمن يعدل إن لم أعدل .. خبتُ وخسرتُ إنْ لم أعدل . " ..

جُبل الناس على كراهة الحق والعدل .. فى القرآن المجيد : " لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ " (الزخرف /٧٨) .. وفى سورة "المؤمنون" : " وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ " (المؤمنون /٧٠) .. فشاءت حكمة الحكم العدل ـــ سبحانه ، أن يرسل رسوله المصطفى ليهدى الناس إلى الحق ودين الحق : "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ . (الصف /٩)..

وأن يبلغهم رسالة ربه بأنه سبحانه وتعالى يأمر بالعدل والإحسان :
" إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ " (النحل /٩٠) .. المؤمن مأمور بالعدل والقسط وإنصاف الناس من نفسه ، وعلى نفسه .. فى الحديث الشريف : " لو أنصف المتقاضى لاستراح القاضى " .. وفى الذكر الحكيم : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ " (النساء ١٣٥) ..

لم تقف شريعة من الشرائع ضد الظلم والبغى كما وقف الإسلام .. الإسلام لا يحمى المسلم فقط من الظلم ، وإنما يحمى منه الناس كافة .. ديانة الإسلام - العالمى ، لا تقبل ولا تقر ظلماً لمسلم أو لغير مسلم .. القرآن المجيد حين أفصح عن كراهة الظلم ورفضه ، لم يقل إن الظلم المنهى عنه هو ظلم المسلمين ، ولا قال - حتى - إنه ظلم المؤمنين ، وإنما قال ظلم العباد .. كل العباد .. فى سورة غافر : " وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ " (الآية/٣١) .. فى واحة الإسلام يعلم نبى الرحمة نجباء مدرسة النبوة ويحذرهم من الظلم فيقول لهم : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم

القيامة " .. ويخوفهم بما أنبأ به القرآن المجيد : " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ .. " (يونس /١٣) ..

من آفات الآدمى أن يخبو فيه الالتفات إلى الحق والصواب حين تمهله الأيام أو لا يلاحقه الجزاء .. يخلد إلى ذلك ويعتاده متوهماً أن الأمور ما دامت تجرى فى أعنتها ، فلا عليه إلاّ أن يبيت خالى البال !!.. الظالم تزين له نفسه ما دامت العقوبة لم تعجل له ، أنه بمأمن من حساب السماء .. إلى هؤلاء ، يقول لهم الذكر الحكيم : " وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء"(إبراهيم /٤٢ ، ٤٣) .. هؤلاء يتوعدهم القرآن ، ويمعن فى توعدهم ووعيدهم، فيذكرهم: "وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً " (الفرقان / ٢٧) .. " يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ " (غافر /٥٢) .. وما أخوف وعيد رب العزة فى قوله – "غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ " .. (غافر /٣) – مساويا الظالمين بالكافرين : "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ

طَرِيقاً ."(النساء / ١٦٨) .. "إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (يونس /٤٤) .

والعدل عملا وحقيقة وواقعا ، غير العدل شعارا أو مجرد كلمة تقال .. العدل فى الإسلام من " عزم الأمور " الذى تجمل فيه سجايا وأخلاق وشمائل الإسلام .. هذا العدل يتسع فى الإسلام ليحقق دوحة حقيقية ، راعى الإسلام أن تشمل كافة المجالات ، لا تترك شاردة ولا واردة إلا تدفع إليها وتوافيها وتظللها بالعدل ، وتحقق فيها العدل ، وتصونها وتصون بنى الإنسان وقيمه وحقوقه ومصالحه بهذا العدل الذى لا يفرق بين مسلم وغير مسلم ، أو بين قوى وضعيف ، أو بين غنى وفقير ، أو بين ذى نفوذ ومفتقد له .. هذا العدل لا يستقيم مالم يبدأ من أول الشجرة ماضيا منها إلى فروعها .. العدل فى الحكم أساس وركن بالغ الأهمية من أركان الإسلام .. هو رسالة وواجب الأنبياء والرسل ، وواجب الحكام والولاة وكل من يتولى سلطة أو مسئولية إدارة أمور الناس - الحكم والولاية والوظائف العامة أمانة ، يرد عليها كلها وصية الحكم العدل فى القرآن المجيد : "إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ

النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا " (النساء/٥٨) .. وفى سورة ص : " فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ " (ص/٢٦) .. العدل الإسلامى فى الحكم لا يستثنى من واحته أحدا .. حتى من التوت نواياهم وعقائدهم ... يقول القرآن المجيد : " سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . " (المائدة /٤٢) .

الله الحكم العدل ، سبحانه وتعالى ، قد جعل إقامة العدل قانونا عاما فى خلقه وفى الوجود كله ، وعبر القرآن المجيد عن ذلك أبلغ تعبير حين قال : " اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ " .. (الشورى /١٧) .. الكتاب المعنى فى الآية الكريمة هو كل الكتب السماوية وختامها القرآن الحكيم .. فيه يقول عز من قائل : " لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ " .. (الحديد/٢٥) ..

العدل الذى يرعاه الإسلام لايتجزأ لأن النفس العادلة تصدر فى كل ما تأتيه عن سجية العدل .. تصدر عنه فى معاملاتها ، وفى تصرفاتها ، وفى خصوماتها .. المسلم العادل لايفارقه عدلـــه .. إذا شهد يشهد بالعدل ، .. " يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّـــهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ " (المائدة/٨) .. بل ولا يصرفه عن الشـــهادة بالحق والعدل ـــ شنآن شانئ ولا إساءة مسيء .. " وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " (المائدة /٨) .. المسلم ينضح عدلـــه فى كافة معاملاته .. يفى للناس بحقوقهم ، ويفى بالكيل والميزان ، ولا يخسر الناس أشياءهم .. "فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيـــزَانَ وَلاَ تَبْخَسُـــواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ " (الأعراف /٨٥) لا يفوت المسلم السوى مـــن هذه الآيات أن غايتها من الحض على الوفاء بالكيل والميزان هى رعاية وحماية المتعاملين من الجور والظلم فى التعامـــل .. يقـــول القرآن للمسلمين رعاية لهذا العدل الواجب : " وَأَقِيمُوا الْـــوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِـــرُوا الْمِيزَانَ " (الرحمن /٩) .. " وَيْـــلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَـــالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ " (المطففين ١ ـــ ٣) .. المسلم الســـوى أمين عادل يصون مال اليتيم ويرعاه وينميه له ، ويحفظـــه مـــن

اغتياله أو اغتيال سواه .. " وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ " (الأنعام /١٥٢) .. المسلم السوى لا يمارى ولا يجادل فى الحق ولا ينازع فيه ، ولا ينتصر لباطل .. لا يحب أن يكون ممن قال فيهم القرآن الحكيم : " وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ " (الكهف/٥٦) .. "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِير " (الحج /٨) .. أو يتبع فى ذلك " كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ " (الحج/٣) .. " مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ " (غافر/٤) .. من العدل أن يفى العادل بعقوده وعهوده .. فالمؤمنون هم الذين " لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * " (المؤمنون /٨) .. مأمورون بذلك فى القرآن المجيد : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ " (المائدة /١) .. " وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً " (الإسراء /٣٤) .

أينما نظر الناظر فى دوحة الإسلام ، يلمح سجية العدل واضحة فى كل شيء .. فى معاملات الناس وفى الأحكام .. فى التكليف وعناصر المسئولية . من عدالة الإسلام أنه لا تكليف

بغير بلاغ وعلم ، فلا تحق التبعة على أحد فى شرعة الإسلام ، مـــالم تبلغه الدعوة ويصله البلاغ ، سواء فى مســـائل الغيب ومسائل الإيمان ، أم فى مجال العلاقات والمعاملات .."وَلِكُلِّ أُمَّة رَّسُــولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْــطِ وَهُــمْ لاَ يُظْلَمُــونَ " (يونس/٤٧) .."إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّــةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ " (فاطر /٢٤) .." مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً " (الإسراء /١٥) .. ولا يُســاءل الإنسان إلا على قدر استطاعته ، فلا تكليف - عدلا - بمستحيل .. " لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا "(البقرة/٢٨٦) (البقرة ٢٣٣، الأنعام/١٥٢ ، الأعراف ٤٢) .. " وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ " (المؤمنــون /٦٢) ومن الظلم الذى نبه القرآن المجيد إلى نبذه وتلافيــه ، أن يُحَمَّــل المرء بوزر أو خطأ غيره .. الإنسان فى القـــرآن هـــو المخلـــوق المسئول .. هذه المسئولية محكومة - عدالة - بضوابطها ، وأولها أن مصير الإنسان معلق بيده وفعله ، لايسأل إلاّ عما يبدر منـــه ، ولا يُسأل - عدلاً - عن فعل غيره .. إذا أصاب فاز بثـــواب مـــا أصاب فيه ، وإذا أخطأ لحقت به - دون سواه - جريرة خطيئتــه ..

يقول الحكم العدل "وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا " (الإسراء /١٣) .. "كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ " (الطور/٢١) .. يثاب الإنسان وينجو بعمله لا بالوساطة ولا بشفاعة كهان أو أحبار أو رهبان .. .. يحمل وزره لا وزر غيره .. " وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى " (الأنعام ١٦٤، فاطر ١٨ ، الإسراء ١٥ ، النجم ٣٨ ، ٣٩) .. فى القرآن أيضا : " فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ "(الزلزلة ٧ ، ٨) .. من عدل الإسلام أنه التفت - عدلاً - إلى ما قد يعرض لمكنة الآدمى وقدراته واختياراته - من عوارض وضرورات وقوى قاهرة لا قبل له بها ولا قدرة له على توقيها .. فأقام من حالة الضرورة عذراً عاما يقيل المكلف من تقصيره .. بل من خطيئته .. ففى القرآن المجيد : " فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ " (البقرة / ١٧٣).. وفيه أيضا : " فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .." (النحل ١١٥ ، الأنعام ١٤٥) .. ويقول رسول القرآن صلى الله عليه وسلم : " الضرورات تبيح المحظورات . "

من حرص الإسلام على تحقيق العدالة ، أنه يحمى الآدمى - مسلماً كان أو غير مسلم ، من ظنون الناس ، ومن الاندفاع والتهور فى الاتهام بغير تبين ودون تثبت .. التفت الإسلام إلى أن سوء الظن ، والاستسلام غير المتبصر له ، يؤدى إلى مظالم ، وينقض العدل الذى يتغياه الإسلام .. وأن الحكمة عدوة الاندفاع ، وأن الحق والرشد والصواب إنما يأتيهم الخطر والمساس من الاندفاع والتهور والمعاجلة إلى الاتهام دون تروٍّ ودون تحرٍّ ودون تثبت .. فى النهى عن سوء الظن يقول القرآن المجيد : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ." (الحجرات/١٢) .. وفى إيجاب التروى والتبين والتحرى والتثبت وتجنب الاندفاع الأعمى ، يقول الذكر الحكيم : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ " (الحجرات /٦) .

من ضمان الإسلام ورعايته للعدل ، أنه لم يتعامل معه على أنه مجرد شعار يرفع ، أو " حلية " يتباهى بها ، وإنما حرص على أن يكون واقعاً فعليا يشمل حياة الناس فى كل

نواحيها .. لذلك لاينادى الإسلام بالعدل ثم ينفض يــده مــن ضمان تطبيقه ، وإنما يبذل لذلك كل عناية ، ويطرق لتحقيقــه كل سبيل ، ويلاحق الحياة والأحياء بما يضمن أن يكون العدل واقعا حقيقيا فى حياهم وحياة مجتمع الإسلام الذى أراده سبحانه وتعالى ديناً للعالمين ..

فالإنسان مجبول على الخير والشر.."وَنَفْسٍ وَمَــا سَــوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَــا "(الشمس ٧، ٨) .. والنــاس ليســو على شاكلة واحدة .. وقد لايفارق البعض أطماعهم ، أو يحيدون عن الحق أو يمارون ويجادلون فيه ، أو يبغون الجور والإفتئات طمعا أو عدوانا على حقوق الآخرين .. يعتنق الإسلام أن إحقاق الحق والعدل بين الناس واجب يتعين على المسلم أن يلتزمه ويحرص على تحقيقه . والقضاء هو الحكم العدل بين الناس فيما فيه يختلفــون أو يتصارعون ..الشاهد – عادة – هو عين العدالة .. لذلك عنى به الإسلام ، فاشترط الأهلية أولاً لأداء الشهادة واشترط فيه العدل وحضه على التزامه .. وفى شرط العدالة يقول القرآن :"وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ "(الطلاق/٢) ..فالعدالة شرط للشــهادة ، ولا يكتفى القاضى فى الإسلام بظاهرها ، وإنما يستوثق ويستقصى حال

الشاهد ، ولا ينفذ الحكم بشـــهادته حـــتى يتـــبين لـــه عدلـــه فى الظاهر والباطن .. الشاهد لاتقبل شهادته فى الإســـلام ، لأنـــه لايتحقق فيه العدل والحياد ، إذا كان ذا هـــوى أو مصـــلحة أو خصومة أو عداوة .. وفى حديث رسول القرآن :" لا تقبل شهادة خصم ولا ظنين فى ولاء ولا قرابـــة ولاذى إحنـــة (أى عـــداوة) "فالشبهة مسقطة للعدالة ، وبالتالى للشهادة ، والعدالة – فيمـــا يقول الفقهاء - شرط لقبول الشهادة لا يثبت القبول أصلاًبدونها .

الإسلام لايدع الشاهد لشأنه ورغباته يؤدى الشهادة أو لا يؤديها ! ، فالشهادة واجب ، ولله ، والحق .. لايجوز للشاهد أن يتخلف عن أداء الشهادة ، ولا يقبل منه حجبها .. الإسلام هنـــا لايتخذ موقفاً سلبياً مكتفياً بوصيته فى شروط الشاهد واشـــتراط عدله ، ولا يكتفى بطلب العدل منه ، وإنما يتخذ موقفاً إيجابيا فى توخيه تحقيق العدالة فعلاً وواقعاً .. فيحض الشاهد على القيـــام بواجبه وأداء الشهادة .. ويحذره ويرهبه ويخوفـــه مـــن حجبـــها والقعود عنها ، فيقول القرآن الحكيم فى ذنـــب ووزر وخطيئـــة حجب الشهادة :" وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ" (البقرة ٢٨٣) .. كتمان الشهادة كتمـــان للحـــق ، والحـــق

سبحانه وتعالى يقـول : " وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِـلِ وَتَكْتُمُـواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ " (البقرة ٤٢) .

الإسـلام لايرضى للشـاهد إلاّ أن يكـون عـادلاً فى شهادته ، ولا يعذره فى ذلك مهما بلغ .. لا شنآن أحد الأخصـام يعذره ، ولا قرابة قريب تعفيه ، ولا كون المشهود به يقع عليـه يقيله من واجب التزام العدل .. فى القرآن المجيد : " وَإِذَا قُلْـتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى " (الأنعام ١٥٢) .. " يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَـى أَنفُسِـكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ (النساء / ١٣٥) .. " وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " (المائـدة /٨) .. فالشهادة شهادة للحق ، ولله .. " وَأَقِيمُـوا الشَّـهَادَةَ لِلَّـه " (الطلاق /٢) .. الشهادة التى تقام لله ، لابد أن تكون شهادة صدق وعدل ، لذلك كان وزر الشهادة الزور وزراً عظيمـاً .. المسـلم مأمور باجتنابها : " فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ" (الحج ٣٠) .. والبعد عن الشهادة الزور صفات لازمة وحتميـة من صفات المؤمنين الذين فيهم قال القرآن : " وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا " (الفرقان / ٧٢) .

حرص الإسلام على تحقيق العدل اقتضى منظومة شـــاملة جامعة .. تعقبت النشاط الإنسانى فى كافة صورة وأشكاله بـــل ومظانه ولم تترك شاردة ولا واردة دون أن تضع دســـتورا لهـــا يضمن السواء والعدل والإنصاف بين الناس .. من هذا الحـــرص الذى يحمى الآدمى من طمعه أو جموحه ، وضع الإسلام ضمانات فى المعاملات المدنية ، فأمر بالكتابـــة لغلـــق أبـــواب الخـــلاف والخصام ، ودرء الظلم والجـــور .. واشـــترط " العـــدل " فى الكاتب مثلما اشترطه فى الشاهد .. يقول عز من قائل : " يَـــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـــمًّى فَـــاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ . " (البقرة ٢٨٢) .

واحة العدل فى الإسلام تتبعت كل مظـــان الخـــلاف أو التطاحن أو التخاصم ، وحضت المسلم فرداً كان أو جماعة ، على أن يكون قوة فاعلة معطاءة لإصلاح ذات البين .. والإصلاح بين المتخاصمين أو المتقاتلين بالعدل والقسطاس .. فالعدل وحده هو الكفيل بنزع أسباب الفرقة والخصام والصراع والقتال ، وإحلال السلام ... " وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَـــا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى

أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " (الحجرات /٩) .

القضاء فى الإسلام ، حصن العدالة الحصين ، وركنها الركين .. وظيفة القضاء فيه وظيفه جليلة ، لا يُختار لها ولا ينهض عليها إلا الأكفاء المشهود لهم بالعلم والعدالة .. يقول رسول القرآن : " القضاة ثلاثة ، قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار . فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، وأما الذى فى النار فرجل عرف الحق فجار فى الحكم ، ورجل قضى على جهل . قالوا : فما ذنب الذى يجهل ؟ قال : ذنبه ألاّ يكون قاضيا حتى يعلم .!! " .

والقاضى مأمور فوق ذلك بمراعاة العدل والمساواة حتى الشكلية فى مجلسه ، ضماناً لسعى ووصول الدليل إليه فى سهولة بلا مشقة من رهبة أو خوف أو مظنة غياب أو قلة العدل ، ففى الحديث النبوى : " إذا ابتلى أحدكم بقضاء فلا يجلس أحد الخصمين مجلساً لايجلسه صاحبه ، وليبق الله فى مجلسه وفى لحظه وفى إشارته " .. فى وصية الفاروق عمر إلى أحد ولاته – وكان له

القضاء فى الولاية : " آس بين الناس فى مجلسك حتى لايطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف فى عدلك " .

هذا الاحتياط كله ، هو احتياط للعدالة التى أراد الإسلام أن تشيع فى المجتمع الإسلامى شاملة المسلم وغير المسلم .. فى مدرسة النبوة المحمدية ، شرب الصحابة والتابعون من بعدهم من هذا النبع الفياض.. قصص عدلهم ملاحم .. والتزامهم بالعدل حاكمين أو محكومين ، آية ناطقة على ما حفره الإسلام فيهم وعطّرهم به من سجايا الحق والعدل والإنصاف .. هؤلاء الأخيار - فى الواحة المحمدية - سمعوا صاحب العزم الأكبر عليه الصلاة والسلام يقول لهم : " أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة ، وأدناهم منه مجلساً : إمام عادل " .. كانت سيرته عليه السلام مصداقاً لهذا كله ، من ذلك أن عمر بن الخطاب همّ يوماً برجل أغلظ القول للرسول بعد أن تقاضى دينه منه عليه السلام ، بيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهاه ، وقال له : "مه ، ياعمر . كنت أحوج إلى أن تأمرنى بالوفاء ، وكان أحوج إلى تأمره بالصبر" .

هذا العطر المحمدى ، شرب منه نجباء مدرسة النبوة .. سمع الناس من علىّ كرم الله وجهه وصية قمة فى الروعة والعدالة

إلى أحد عماله .. يقول له : " أنصف الله ، وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى من رعيتك .. فإنك إن لم تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه . " .. ملاحم الصحابة فى العدل لا تقع تحت حصر ، هذا أبوبكر الصديق يخطب يوم مبايعته :"إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى " .. عدل عمر كان ولا يزال مضرب الأمثال حتى تغنى بذلك الشعراء فقال شاعر النيل حافظ إبراهيم :" أمنت لما أقمت العدل بينهُمُ فنمت نوم قرير العين هانيها ".. العدل العمرى امتد لينال الحيوان الأعجم نصيباً منه بل أوفى نصيب .. يستعيد المسلمون مسيرة عمر قاصداً بيت المقدس ليصالح أهلها ، فيرون صورة رائعة لوالٍ عظيم يعدل بنفسه ــ غلامه والراحلة ، فلا يميز نفسه ــ عدلاً ، لا على غلامه ، ولا على الراحلة .. ويقول للغلام وقد أصبحوا ثلاثتهم بظاهر المدينة : " نحن اثنان كما ترى ، والراحلة واحدة ، ولا زال بيننا وبين بيت المقدس سفر طويل ، وإننى إن ركبت أنا ومشيت أنت ظلمتك ، وإن ركبت أنت ومشيت أنا ظلمتنى ، وإن ركبنا نحن الاثنين ظلمنا الراحلة وقصمنا ظهرها . فلنقسم الطريق مثالثة : أركب مرحلة ، وتركب مرحلة ، وندع الراحلة تسير متخففة

مرحلة واحدة ! .. وقد كان ، فلما اقتربوا من بيت المقدس ، وجاء دور الغلام فى الركوب .. تحرج واستعطف الفاروق أن يبقى راكباً ، لأنهم قد أشرفوا على مدينة فيها الخيول المطهمة ، والعربات المذهبة ، ويخشى أن يسخر الناس من أمير المؤمنين إذا رأوه آخذا بمقود الراحلة ، فما زاد عمر الفاروق أن قال له فى حزم وعدل : "دورك .. لو كان الدور دورى مانزلت وما ركبت ، أما والدور دورك فو الله لأنزلن ولتركبن . " .. هذا هو الفاروق ، نجيب مدرسة النبوة الإسلامية ، الذى كان يقتص للبسطاء من الأمراء ، ويخضع للمساكين والفقراء .. لم يكن ولن يكون ذلك غريباً لأنه زرع ونبت الإسلام ، العدل العمرى من ندح الإسلام وقيم وشمائل وسجايا وأخلاق الإسلام .. ذلك الدين العالمى الذى حمل من بشارات الهداية وسجايا العدل والإنصاف ما أقام ويقيم للناس فى واحته العاطرة مجتمعاً لا يقبل للآدمى ــ أى آدمى ــ أن يُقهر أو يُظلم أو يُضام أو يُجار عليه ..هذه هى آية الآيات على عالمية هذا الدين واتساعه للناس كافة وإلى يوم الدين .

قدسية الروح فى الإسلام

تقديس الإسلام للروح الإنسانية ، هو فرع على تكريمه للإنسان ، ومعلم أساسى من معالم عالميته .. لا يطلب الآدمى من الدين أكثر من أن تكون روحه فيه – وروح سواه – روحاً عزيزة مقدسة محل احترام ورعاية وحماية .. " الحياة " فى الإسلام هى هبة الخالق البارئ جل شأنه .. وهى نفحته للإنسان الذى كرمه سبحانه وتعالى واجتباه وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً ... فى القرآن المجيد : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ".. (الإسراء/ ٧٠) .. هذه الروح التى خلقها الله ملك لله ، أمرها بيد الله ، لا يجوز لغير الله أن يعترض وجودها أو يجهضها أو يمسها أو ينهيها .. فى الإسلام ، روح الآدمى – أى آدمى مهما كان عرقه أو ديانته – هى روح الناس جميعاً ، هى الحياة كلها .. إجهاضها هو إجهاض للحياة ، وإزهاقها هو اعتداء على الحياة الإنسانية التى أوجدها الله ولا موجد ولا منهى لها سواه .. من هنا ، نوه القرآن الحكيم إلى أن القتل ليس حسبه أنه عدوان على حياة المقتول وكفى ، وليس إزهاقاً لروح أزهقت

بغير حق وكفى ، وإنما هو اعتداء على الحياة الإنسانية كلـــها !!! .. القاتل لا يقتل نفساً ـــ وإن قتل واحداً ، وإنما يعتدى فى واقــع الأمر على الحياة الإنسانية ، ويغتالها ، شأنه فى ذلك كمـــن قتــل الناس جميعاً .. ومن يحترم الروح الإنسانية ، ولا يمسها ، ولا يزهق الحياة فيها ، فكأنه أحيا الناس جميعاً .. فى القرآن المجيد يقول رب العزة : " أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَـــا النَّـــاسَ جَمِيعًـــا " .. (المائدة/٣٢) .

هذه الحياة - المنحة الربانية ـــ المقدسة ، محوطـــة برعايـــة وحماية محكمة فى الإسلام .. إزهاق الروح - أى روح - من أكـــبر الكبائر فى الإسلام ، ومن أبشع الجرائم فى شريعة الله .. فرض الله تعالى لها قصاصاً يرهب ويثنى الناس عن استباحتها أو الاســـتهانة بحرمتها .. يقول الحكم العدل : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى" (البقرة / ١٧٨) .. القصاص لغـــة يعـــنى المساواة ، أى أن الجزاء من جنس العمل أو الجـــرم .. القصـــاص تتبع للجانى بالجزاء العادل ، وللمجنى عليه أو ذويه بالشـــفاء .. القصاص عدالة .. وجزاء وفاق للجريمة ، فالقتل اعتداء متعمـــد

أزهق روحاً خلقها الله ، فتكون العدالة أن يؤخذ الجانى القاتل بمثل فعله - عدم القصاص من القاتل هو استفزاز لذوى القتيل ، ثم هو تضحية حمقاء بالردع الواجب لسواه عن فعل ذات الصنيع الممقوت الذى صنع !! هذا القصاص لم يفرض للنكاية أو الانتقـام ، وإنمـا عقاباً عادلاً ورادعاً ، حكيماً واعياً ، وأحكم ما فيه ونبـه إليـه القرآن المجيد أنه فى واقعه سبيل للحياة ، لأنه حماية لها - بـالردع والجزاء - من تغول المتغولين وعدوان المستهينين بالحرمات الإنسانية وبأرواح عباد الله .. فى القرآن المجيد : .. " وَلَكُمْ فِي الْقِصَـاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة /١٧٩) .. الردع فى العقاب يجرى على محورين ، ردع خاص يتجه إلى الجانى الذى أخطـأ وتعدى على حقوق الناس أو على حيوات الناس ، والـردع العـام الذى يحذر الناس .. كل الناس ، ويقترب تحذيره ونذيره أكثر إلى من به أو بهم استعداد للاستهانة بالجرم والاعتداء على الحرمات أو الأرواح .. الجانى الملاحق بعقاب الدنيا والسلطة الحاكمة ، ملاحق أيضاً بعقاب السماء .. قد يستطيع الجانـى أن يتوارى عـن الناس بجرمه ، وأن يفلت - استخفاءً - بجريرتـه ، وأن يفلـت بالتالى من عقاب الدنيا .. والناس ، ولكنه لا يستطيع أبـداً أن يفلت من عقاب الله الذى - سبحانه وتعالى - يعلم السـر ومـا

يخفى .. فى القرآن المجيد : "وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا" .. (النساء/٩٣) .. لا ينجيه من هذا العذاب المقيم أن يلقى جزاءه فى الدنيا بعقاب يتزل به ، أو بفدية يقبلها أهل المجنى عليه منه ، أو بعفو يبذلونه له !! .. وفى صحيحى البخارى ومسلم ، عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم - بياناً منه لبشاعة القتل وفداحة جرمه الذى ينتزع روحاً خلقها الله ـــ كان يقول : " ليس من نفسٍ تُقتل ظلماً ـــ إلاّ كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل " .. فى الحديث الشريف أن كل الآدمى على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ، يقول عليه الصلاة والسلام لأصحابه : " لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق " .. " لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار . " .. يحذرهم عليه الصلاة والسلام فيقول لهم : " إن قتل النفس التى حرم الله " - من السبع الموبقات !!

ملاحقة القاتل بهذا الترهيب متعددة فى الإسلام - فى القرآن المجيد :.. " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ " ..

(المائدة / ٤٥) .. نفس الآدمى كما هى عزيزة عليه فإنها عزيـــزة على سواه ، وكما هى غالية عنده فإنها غالية على غيره .. احترام الآدمى لروحه وحرصه عليها ، يجب أن يردعه عن المساس بأرواح الآخرين .. إذا علم أن قبض روحه الغالية عليه هـــو هـــو ذات الجزاء العادل على إزهاقه روحاً أخرى ، ردعه هذا عن المســـاس بأرواح الناس ! .

يحلو لغير العارفين ، أو لغير المتعمقين ـــ أو للمتحذلقين أو أصحاب الهوى فى مهاجمة الإســـلام ، أن يتنـــادوا بـــأن عقوبـــة "القصاص" عقوبة غليظة غير إنسانية .. وهـــم فيما يتنادون به لا يلتفتون إلى عقوبة " الإعدام " المقررة فى قوانين كثير من البلـــدان ومنها بلدان بعض المهاجمين ، علـــى أن أهم ما لا يلتفتون إليه أن تشديد العقاب فى أحوال كثيرة يكون نعمة ورحمة لأن به يتحقـــق الردع بشقيه الخاص والعام ، وهو هدف العقوبة فى كل الشـــرائع والقوانين .. الإسلام لم يقرر القصاص عقوبة للقتل العمد من باب الغلظة والقسوة ، وإنما من باب الرحمة والحرص علـــى حيـــوات الناس من شطحات وتغولات المســـتهينين بـــأرواح عبـــاد الله .. القرآن المجيد ذاته هو الذى يقول لفتاً لهذا المعنى الرفيع الحكيم :

" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ " (البقرة / ١٧٩) .. وليس أدل على صدق ما تغياه الإسلام ولفت إليه الانتباه من أنه أخذ " بالعفو " جناحاً آخر لمواجهة هذه الآفة المدمرة للحياة التي خلقها الله تعالى وأمرنا بالمحافظة عليها ، فى أنفسنا وفى الآخرين .. عقوبة الإعدام لقاء القتل موجودة فى الشريعة الموسوية ، بل تشددت التوراه وجعلته عقوبة للضرب المفضى إلى الموت مع أن إزهاق الروح لا يكون فى قصد الجانى أو الضارب .. ففى سفر الخروج ـ الإصحاح / ٢١ ـ (١٢) : " من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً " .. بل وقررت الشريعة الموسوية الإعدام بالقتل جزاء لأخطاء بسيطة دون القتل ، فورد فى سفر الخروج ـ الإصحاح / ٢١ : " ومن ضرب أباه وأمه يقتل قتلاً " . (١٦) " ومن سرق إنساناً وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلاً ". (١٧) . " ومن شتم أباه وأمه يقتل قتلاً "(١٨) .. بل وعاقبت مالك الثور بالقتل على خطأ الثور الذى يملكه .. ففى سفر الخروج أيضاً . الإصحاح/٢١ ـ (٣٠) . " إن كان ثوراً نطاحاً من قبل وأشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلاً أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه يقتل " . عند الرومان كانوا يعاقبون العامة والعبيد على القتل بالقتل ولكن يعفون منه الأشراف وذوى الوظائف ، ويكتفون

بالنفي . فى الجاهلية العربية كانوا يقتلون العدد بالواحد ، والإنسان بالبهيمة ، ولا يتحرجون فى الثأر من قتل بريء لا ذنب له ولا جريرة .

الإسلام عاقب بالقصاص على القتل العمد ، وتغيا بالقصاص أن يكون حياة للناس ، لأنه يحفظ حيواتهم من تعديات القتلة المستهينين بالأرواح التى خلقها الله .. هذا القصاص المقرون بالعفو إذا اختاره ذوو المجنى عليه ، هو رحمة وليس غلظة ولا قسوة .. هو كما قال القرآن الحكيم للحياة والحفاظ عليها ..

كانت العقوبات قبل الإسلام باباً هائلا للانتقام والتنكيل بلا هدف ولا غاية ، تتفنن المجتمعات والعوائل والعشائر والقبائل فى صنوف شنيعة لشحنها بأكبر قدر من التعذيب والتنكيل والقسوة والانتقام .. يقتلون بالحرق ، وبالخازوق ، ويمثلون بالقتيل شر تمثيل !! فسمعت البشرية لأول مرة عقوبة مقدرة .. تتغيا فى حكمها " حياة الناس " ، ولا تستهدف انتقاماً ولا ثأراً .. وإنما قررها المولى تبارك وتعالى لتكون حافظة لحيوات الناس جميعاً وأرشدهم لذلك صراحة فقال لهم فى محكم تنزيله : .. " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ " ..

عناية الإسلام بمواجهة آفة الثأر ، ومحاصرتها ، عناية تنبع من تقديسه للروح الآدمية .. صحيح أن الإسلام لاتواجهه مشكلة " الثأر" فى المجتمعات المتحضرة المتنورة التى لا تنخر فيها عصبية "القبليات " وما تؤدى إليه من تعصبات ضريرة عمياء كانت ولا تزال وراء نار الثأر ، بيد أن " القبليات " معضلة تعانى منها المجتمعات ، وكانت تعانى منها شبه الجزيرة العربية وما حولها ، ولا تزال تعانى منها مجتمعات أخرى هنا أو هناك .. ولأن الإسلام دين عالمى أراد الله تعالى له امتداداً فى المكان والزمان ، كان ولا يزال عليه أن يواجه هذه الآفة وما تؤدى إليه حيث كانت .. كان على الإسلام أن يواجه - وقد واجه .. هذه المعضلة التى كانت شائعة بمجتمعات منها الجاهلية العربية .. لأنها مجتمعات قبلية ضربت القبليات بعمق فى عاداتها وموروثاتها وتملكت من الناس فيها حتى صار التغنى بالقبلية والانتصار لها فى الحق وفى الباطل هو الصورة السامقة المعتقدة للبطولة، لا علاقة لها بالحق ولا موجباته ، ولا بالعدل ومعادلته ، ولا بالعقل وما يهدى إليه .. يعبر عن ذلك شاعرهم عمرو بن كلثوم حين يقول :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً
ملأنا البر حتى ضاق عنـــا كذاك البحر نملؤه سفينـــا
إذا بلغ الرضيع لنا فطامـــاً تخر له الجبـــابر ساجدينـــا

لايلتفت الثأر فى شره وعماه وضلاله بهذه القبليـــات ـ لا يلتفت إلى الحق والعدل ، ولا إلى البرىء والمذنب ، وإنما هو ثأر ضرير لا يميز ولا يعنيه أن يميز ، فإن ميز ـ فليس لإيقاع الثأر بمـــن فعل وتجنى وقتل ، وإنما بمن تكون "الوجيعة"فيه أثقل من الوجيعة فى غيره .. سواء فعل أم لم يفعل..فلا شأن للثأر بمن فعل ، وإنمـــا هو الانتقام الأعمى الذى يختار الضحية الموجعة للقبيلة المضادة لا للفرد .. لذلك كانت قضايا الثأر قضايا قبائل وعائلات لا أفراد ، وعرفت من أجل ذلك ما يسمى بالاتهامات الثأرية !! .. لا شأن للاتهام فى واقعات الثأر ، بمن ثأر وقتل ، وإنمـــا يـــتخير المتهم أو المتهمين بقرار قبلى من أسرة الضحية .. يتجه بدوره إلى ما يؤلم ويوجع أكثر ـ .. بغض النظر عما يكون حقيقة قد حدث . أما الشهود ، فمسألة توفيق وتحضير ، ولذلك تكثر نسبة أحكام البراَءة فى قضايا الثأر ، لأن أحداً لا يعنى بما حدث ، وإنما هو قتل ثـــأرى

تقابله اتهامات ثأرية .. لا شـأن لأيهمـا بموازيـن العـدل ولا بشخصية المذنب .. إلى أن يحين الحين لواقعة ثـأر مضادة ، لتتوالى الواقعات على نظام الكراسى الموسيقية . الطالب اليوم مطلـوب غداً ، وهكذا دواليك !! دون ما نهاية منظـورة ، إلاّ العقـل الغائب ، والدماء المسفوحة ، والغل الـذى يمـلأ النفـوس بالأحقاد ، ويورد الجميع موارد الهلاك !! .

جذور هذا الانتقام الأعمى ترجع إلى الجاهلية العربيـة ، لم يكـن جنون الثأر يتوقف بهم عند معنى العدل ، فلا شأن لهم به ، يطلبـون غير القاتل بالقاتل ، والعدد أو الكثرة بالواحد .. يروى أن واحداً قتل آخر من الأشراف ، فاجتمع أقارب القاتل عند والد القتيل لاسترضائه. وقالوا له : ماذا تريد ؟ قال : إحدى ثلاث . قالوا : وماهى ؟ . قـال : إما أن تحيوا ولدى . أو تملأوا دارى من نجوم السماء ، أو تـدفعوا إلىّ جملة قومكم حتى أقتلهم ، ثم لا أرى أنى أخذت عوضاً !

* * *

أغرب الغرابة - وقد حل نور الإسلام محل ظلام الجاهليـة .. أن يحسب الغارقون فى بحور الدم جريـا وراء الثـأر ، أنهـم يصدرون فيما يتردون فيه عن منظور إسلامى ، لا يستوقفهم أنهم

يتجهون بالثأر إلى غير جانٍ ، ويبيحون قتل برىء أو حتى مشتبه فيه بغير بينة - لغير ما جريرة شخصية إلاّ قرابة أو انتماء لأسرة .. لايعظهم الدين الذى يؤمنون به .. ولايردعهم أن الحياة التى يتجرأون على اغتيالها - هى هبة الخالق البارئ جل شأنه لكائناته ومخلوقاته ، ومنحته للإنسان الذى كرمه سبحانه وتعالى واجتباه وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً . فى القرآن المجيد : "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً "(الإسراء/٧٠) .. فى القرآن أن القتل ليس حسبه أنه اعتداء على حياة المقتول وكفى - وإنما هو اعتداء على الحياة الإنسانية كلها !! ..

لايفرق الإسلام فى حرصه على قداسة الروح الانسانية وتحريم القتل ، بين من يقتل ابتداء ، وبين من يقتل ثأراً .. لايعفيه الثأر الذى يدفعه - لا من عذاب الله ، ولا من عقوبة القانون . لا يقتصر ذلك على من يقتل بريئاً وهو عالم ببراءته ، ولا على من يقتل مشتبها فيه بغير بينة ، وإنما يمتد إلى كل إزهاق للروح التى حرم الله قتلها إلاّ بالحق - مهما بلغ اعتقاد الآخذ بالثأر بأنه يترل ثأره على " شخص " من يستحقه . فهيهات أن يكون لآحاد

الناس سلطة ولا مقدرة ولا إمكانية تحديد الجانى المطلوب الاستيفاء منه تحديدا يبتعد عن الهوى ويتوسد الدليل والبينة .. إن القضاء ليس ترفاً ، ولا هو ميدان للهواة ، ناهيك بأصحاب المصالح أو الواقعين تحت نير الغضب أو حافز الانتقام .. إن رسول القرآن يقول للقاضى ذاته ، على حيدته وعلمة ، " ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلمين مخرجاً فخلوا سبيلهم ، فلأن يخطئ الوالى فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة " .. هذا القاضى المخاطب ، أصبح فى زماننا عبئه أكثر وتأهيله لأداء هذه المهمة المقدسة أوجب ـ قديماً كان القاضى محذراً من الظن أو الأخذ بالظن : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " . (الحجرات / ١٢) .. ومحذراً أيضاً من الاندفاع : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" . (الحجرات /٦) .. ومأمورا بتوخى تحقق العدالة فى شهوده .."وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ " (الطلاق/٢) .. ومنبهاً إلى وجوب الاتقاء والاحتراس باستبعاد ذوى الشبهة من الشهادة عملاً بحديث رسول القرآن : "لا تقبل شهادة خصم ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة ولا ذى إحنه (أى عداوة) ".فالشبهة

مسقطة للعدالة وبالتالى للشـــهادة،ويقول الحنفيـــة والشـــافعى: "إن العدالـــة شـــرط لقبـــول الشهـــــادة ولا يثبـــت القبـــول أصلاً بدونها".

والقاضى مأمور فوق ذلـــك بمراعـــاة العـــدل والمســـاواة حتىالشكلية فى مجلسه ، ضماناً لسعى ووصول الدليل إليه فى سهولة بلا مشقة من رهبة أو خوف أو مظنة غياب أو قلة العـــدل ، ففـــى الحديث النبـــوى : " إذا ابتلى أحدكم بقضاء فلا يجلـــس أحـــد الخصمين مجلسا لا يجلسه صاحبه ، وليتق الله فى مجلسه وفى لحظه وفى إشاراته " .. وفى وصية الفاروق عمر إلى أحد ولاتـــه – وكـــان لـــه القضاء فى الولاية : " آس بين الناس فى مجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف فى عدلك " . ثم على القاضى بعد ذلك وقبله ، أن يتسلح بالإخلاص وبالعلم ، فالعلم هـــو ســـبيل دراســـة النزاع أو الأقضية ، ومعرفة وجه الصواب ، والحكم فيها بالعدل . قال رسول القرآن : " القضاة ثلاثة ، قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار . فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، وأما الذى فى النار فرجل عرف الحق فجار فى الحكم ، ورجل قضـــى

على جهل . قالوا : فما ذنب الذى يجهل ؟ قال : ذنبه ألا يكـــون قاضيا حتى يعلم " !! .

فمع أن مهمة القاضى قديما كانت أيسر وأســـهل ، لبســـاطة الحياة ، ومعرفته بالناس لمحدودية المجتمعات ، إلاّ أن هذه المهمة الجليلة أحيطت من قديم بهذا السياج من الضمانات والشروط ـ ضماناً لقدرة القاضى بعلمه وعدله ، وبعدالة الشهود وحيدتهم ، وبضوابط سمـــاعهم فى مجلس القضاء ـ على معرفة الحقيقة والحكم بالعدل على مقتضـــاها . فأين ذلك مما صارت عليه الحياة الآن من تعقيدات ، وما آلـــت إليـــه أحوال الناس من منعطفات أقامت أستاراً كثيفة أمام القاضـــى المحايـــد العالم تحول بينه وبين أن يعرف من الشهود حقيقة ماحدث وشـــاهدوه ـ لا سواه ؟!!

هل يمكن للمطالب بالثأر ، على غضبه وشـــهوته وميلـــه وهواه واندفاعه وربما نقص أو انعدام علمه ، أن يحل محل القاضى ليحدد بدلاً منه من فعل من واقع أدلة وبينات صحيحة مشـــروعة مقبولة تؤدى إلى القطع والجزم بأنه الجـــانى الـــذى يحـــق عليـــه القصاص؟! . إن استفصاء هذه الحقيقة قد بات شاقاً عسيراً علـــى القاضى المحايد العالم ، ولا يقبل بحال من الأحوال أن يحـــل محلـــه

المطالب بالثأر فينتهك باندفاعه وتهوره ، وبشـــهوة الانتقـــام المعمية ، أرواحاً بريئة لم تقارف ذنباً ولم ترتكب وزراً ، ناهيك بما يستبيحه - تحت شعار الثأر - من أرواح يعلم علم اليقين أنها بريئة من أى ذنب ، وإنما هو يروم باغتيالها الإيجاع والإيلام ؟!!

إن هذه الحقيقة الواضحة الجلية ، تغلق غلقاً باب الحديث المغلوط عن " الاستيفاء " ، ليس فقط لأنه مرجوح ، ولا فقط لما أورده الراجحون من الفقهاء ، ومنهم الإمام شـــلتوت ، مـــن أن الآية /٣٣ من سورة الإسراء آية مكية ، تتجه نحو الأحكام الكلية تاركة التفصيلات والتتميم للآيات المدنية ، والـــتى يظهـــر مـــن تكاملها أحكام القصاص وضـــوابطه ، ومنـــها أن " الاســـتيفاء " موكول إلى الوالى (السلطة الحاكمـــة) أو القاضـــى (الســـلطة القضائية) ـــ وإنما ، وهو الأهم ، وهو القـــاطع الحاســـم ، لأن " الاستيفاء " لا يتجه إلاّ إلى الجانى الفاعل شخصيا ، ومحال وغير مقبول شرعاً وقانوناً أن يتجه إلى سواه ، أو يجزم بتحقـــق مســـئوليته الموجبه للاستيفاء منه بغير أدلة معتبرة وبينات جازمة قاطعة ، ومـــادام الأمر كذلك ، وهو كذلك ويجب أن يكـــون كـــذلك ، فـــإن " الاستيفاء " يعنى فى حقيقته " طلب الاســـتيفاء " ويســـتحيل أن

يكون لغير السلطة القائمة .. القضائية والتنفيذية ، وإلاّ شــاركنا جميعاً فى كبيرة قتل الأبرياء بغير حق ، وإهدار الحيوات التى خلقها الله ، والاعتداء على كل سنن الحق والعدل والإنصاف .!!

* * *

إن الثأر الذى حاربه الإسلام – الدين العالمى – هو استســلام لعادات اجتماعية موروثة من الجاهلية – ضــالة وخاطئــة ، ولمفــاهيم مغلوطة عن الرجولة والشجاعة .. يتصور البسطاء ، ومن أسف بعض المتعلمين ، أن الثأر بطولة وشجاعة ورجولة ترفع عاراً .. مــع أن الثأر هو العار نفسه ، لا بطولة ولا شجاعة فيه .. الآدمى لايركبه العار لكونه قويا ذا عزم استطاع بقوته وعزمه أن يكبح جمــاح غضبه ولم يستسلم لضلالة عمياء تدفع إلى إغضاب الله بمخالفة دينه وشريعته وإعمــال التقتيــل فى أرواح خلقهــــا الله ولا يملكهــا سواه .. الآدمــى لا يركبــه العار بتركه ما لقيصــر لقيصر (القاضى والسلطــة الشرعية) . وما لله لله .. لايركبــه العار لاحترام القانون وتفهمه أن تحديد الجانى وعقابــه منــوط بسلطة القضاء الذى يبحث ويدقق وينزل العقاب حيــث ينبغــى أن ينزل ، .. وإنما العار يركب فى الواقع من يخالف دين الله وأوامــر الله

ويغتال الأرواح بضربات عشواء تعمل التقتيل فى الأبرياء إشفاءً لغليل ضال مضلل .. العار أن يكفر الآدمى ويقدم على هذه الكبائر وينهى حيوات خلقها ويملكها الله !! ..

يعلمنا الإسلام ، الدين العالمى ، الذى يقدس الروح الإنسانية ـ أنه لا ينتمى للشجاعة والبطولة قتل الناس غيلةً .. القتل ثأراً هو فى واقعه اغتيال مباغت - فى معظم الأحوال لأعزل ـ لا مواجهة ولا منازلة ولا مخاطرة ولا شجاعة ولا رجولة فيه . مهم جداً أن يفهم البسطاء ، وأن يوقظ فى المتعلمين ، أن هذا العمل هو العار ذاته ، وأنه لا ينتمى لشجرة البطولة أوالرجولة أوالشجاعة . إذا فهم الناس ذلك ، لم يبق إلاّ سلطان العادات الاجتماعية الجهولة الموروثة ، ولا يقدر على منازلة هذه العادات والمفاهيم الخاطئة الضالة - سوى الدين . الدين هداية تستقر فى القلب والوجدان والضمير . الدين الإسلامى ، بنوره وهدايته ، هو الذى قضى سلفاً على كفر وشرك الآباء والأجداد ، وهو الذى خرج بالناس من دياجير الظلام إلى نور الهداية .. الدين بما فيه من نور وهداية ، وقواعد وأحكام ، وبما له من قوة ومن تأثير على النفوس والعقول والأفئدة ، قادر على أن يواجه هذا الواقع

الاجتماعى الجهول الأعمى - وعلى هزيمته .. ولو ارتفع الإسلام فى نفوس هؤلاء لتآكلت وسقطت من تلقاء نفسها هذه المفاهيم المغلوطة الضالة التى تدفعهم إلى الثأر المجنون .. المهم أن يصل الإسلام إلى عقول ووجدانات وأفئدة وضمائر الناس ليستخرجهم من هذه الجهالة العمياء ويبين لهم ماهم فيه من ضلالة جزاؤها عند الله نار جهنم خالدين فيها أبداً وبئس المصير .. أن يعلموا من واقع الدين ، أن القوة الحقة ، والبطولة الحقة ، هى فى الصبر والعزم وكظم الغضب والإيمان بأن الله تعالى .. المهيمن العزيز ، الفتاح العليم ،السميع البصير ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير .. هو سبحانه الكفيل بإحقاق الحق والعدل ، وأن الجانى أيا كان احتياطه، لابد ملاق جزاءه .. فى الدنيا وفى الآخرة ، وأنه إذا كان عذابه فى الآخرة مقطوعاً به ، أخبر عنه القرآن المجيد ، فإن الالتفات الجاد إلى معاونة العدالة بدلاً من تجاهلها ، كفيل بأن تصل السلطة القضائية إلى غايتها ، وأن تحدد الجانى ، وأن تنزل به العقاب الواجب ، بدلاً من أنهار الدم المسفوكة هنا وهناك فى دائرة من العنف والثأر المجنون لانهاية لها !!

كان على الإسلام أن يواجه – وقد واجه بحكمة ورشـــاد – القبليات المقيتة التى شاعت فى الجاهلية ليقتلعها ويداوى آثارها – وقد فعل .. لفت الأنظار أولاً - فى سعيه لهدم القبليـــات ـــ إلى أن الناس جميعاً أبناء أصل واحد وأسرة واحدة .. خلقهم الله تعالى من نفس واحدة .. ، وقال فى قرآنه المجيد : .." يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـــواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَـــا وَبَـــثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء " .. (النساء /١) .. أصل الإنسانية أمة واحدة " وَمَا كَـــانَ النَّـــاسُ إِلاَّ أُمَّـــةً وَاحِـــدَةً فَـــاخْتَلَفُواْ " (يونس/١٩) .. " كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّـــهُ النَّبِـــيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ " (البقرة /٢١٣) .. " يَا أَيُّهَا النَّـــاسُ إِنَّـــا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِـــلَ لِتَعَـــارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات /١٣).

حرص الإسلام فى محاربته لآفة الثأر على أن يلفت نظـــر الآدمى إلى الأخوة الإنسانية التى تسمو على ما عداها ، ولا محـــل إزاءها للتمسك بقبليات لأنها على ضوء " الأسرة الواحدة " التى تنتمى إليها البشرية ـــ لا تعدو أن تكون قرابات وقتية عارضة فى زمن ما ، تنحسر لتصب فى النهاية فى الأسرة الإنسانية الكـــبرى

التى تضم الناس جميعاً بلا عصبيات ولا قبليات ولا أعراق ـــ هذه الأخوة الإنسانية تشكل معلماً أساسياً من معالم احتـــرام الإســـلام للروح الإنسانية ورعايته لها ـــ فضمور القبليات يصب فى النهاية ضد عادة الشـــأر وما تسفكه من دماء وأرواح ، ويحـــض النـــاس على الاحتكام للقانون بدلاً من شرعة الغـــاب ، بـــذلك حفـــظ الإسلام للروح الإنسانية قداستها وحماها من نيران الثارات .

* * *

رأينا كيف أن القرآن المجيد قد جعل لنا فى القصاص حياة ، لأنه بالردع الخاص وبالردع العام يرد الناس عن الاقتداء بالقاتـــل أو القتلة ، ويغلق أبواب المحاكاة فى الشـــــر والقتـــل والاســـتهانة بالأرواح !! ، .. كذلك جعل القرآن لنا حياة فى سعيه للقضـــاء على القبليات ، مثلما جعل لنا حياة فى سياسة " العفـــو " الـــذى أباحه للمجنى عليه أو ذويه فى جرائم النفس .. لتطبيب وتضـــميد الجراح . تطبيب الجراح والتصالح عن رغبة وإرادة يغلـــق بـــاب الثارات ، ويحافظ على حيوات النـــاس ، دون إخـــلال بحســـاب الجانى عند الله فى الآخرة .. فى المجتمعات القبلية وهى موجـــودة فى أنحاء المعمورة .. لا تنغلق أبواب ولا ويلات الثارات ، ونتيجتـــها سفك الدماء وحصد الأرواح .. يقتلون العدد بالواحد ، ويأخذون

الإنسان بالبهيمة ، ويستهدفون بالثأر من لا وزر له ولا ذنب ولا جريرة ما دامت وجيعة القبيلة الأخرى فيه أشد من وجيعتها فى سواه من أبنائها .. هذه الثارات ويلات ودمار وإعدام للحياة .. غلقها هو بعث للحياة وحرص عليها من هذا الانفلات الأعمى الذى لا يبقى ولا يذر .. والعفو الذى أباحه الإسلام للمجنى عليه أو ذويه سياسة تنبع من فهم حكيم عميق لعصبيات القبليات وعماها الضرير .. هى سياسة تخير بين القصاص والعفو .. والخيرة ترضى وتضمد وتطبب الجراح ..

مع حرص الإسلام على الترهيب من وزر وكبيرة القتل ، فى عقاب الدنيا - بالقصاص ، وفى جزاء السماء .. فتح الإسلام بسياسته الحكيمة أبواباً لحقن الدماء حفاظاً على الروح الإنسانية التى يستخرج القرآن المجيد والسنة المطهرة أطيب ما فيها لارتضاء الصلح وبذل العفو .. فمع قول القرآن : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى " .. (البقرة ١٧٨) ..، وقوله : " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ " .. (البقرة ١٧٩) .. فإنه يحث على الصلح والعفو ، ويدعو إليهما .. يقول القرآن المجيد : " فمن عُفى له من أخيه شىء فإتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة " (البقرة ١٧٨) .. فى

السنة الشريفة أنه صح عن أنس رضى الله عنه أنه قال : " ما رفع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أمر فيه قصاص ، إلاّ أمر فيه بالعفو " .. العافى الذى يصلح أجره وثوابه على الله - " فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه" (الشورى ٤٠) .. فى عموم العفو كسجية عامة .. " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ.. (الأعراف /١٩٩) .. " وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " .. (البقرة/٢٣٧) .. " وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " .. (التغابن /١٤) .. " إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا" .. (النساء / ١٤٩) .. " وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ "(النور/٢٢) ..وقد وصف القرآن المؤمنين بأهم العافون عن الناس فقال فيهم : .."وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ " (آل عمران /١٣٤) ..

العفو فى جرائم النفس ، فرع على سجية عامة هى سجية " العفو " التى أخذ بها الإسلام فى مواضع كثيرة حرصاً على بث السلام وحفاظاً على الوشيجة والآصرة الإنسانية ، على أن العفو فى جرائم النفس يلتئم مع القصاص فى غاية كبرى هى الحفاظ على الحياة الإنسانية .. جعل الله لنا فى القصاص حياة ، وجعل لنا أيضاً فى العفو حياة ، بغلق باب الثارات وحصد الأرواح وسفك الدماء

.. دون أن يهمل النذير للجانى بأنه إن أفلت من عقـاب النـاس والدنيا ، فلن يفلت من عقاب الآخرة .. بل هو عند الله تعالى آثم ومغضوب عليه وملعون .. يقول القرآن المجيد : " وَمَـن يَقْتُـلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَـهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا" . (النساء /٩٣) .

* * *

الجفاة الغلاظ ، كانوا قبل الإسلام يسـتخفون بـالروح الإنسانية ، حتى فى بنيهم وفلذات أكبـادهم ، يئـدون البنـات كراهةً لإنجابهم أو مخافة لحاق العار بهم ، ويقتلون أولادهم خشية الإملاق والفاقة ونضوب القدرة على إعاشتهم والإنفاق علـيهم .. إلى هؤلاء نزل القرآن الحكيم مقدساً للروح الإنسانية ، آمـراً باحترامها .. يقول للوائدين منـذراً ومحـذراً ومرّهبـاً .. " وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ" . (التكوير/ ٨، ٩) . هـذا البيان القرآنى إنما يرد على سبيل التبكيت والتقريع للوائـدين .. لافتا منبها إلى أن الموءودة لم ترتكب بداهة ما يبيح أو يبرر قتلها؟! .. هؤلاء ضعاف العقول والأفهام الذين فيهم قـال القـرآن : "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّـهُ فِـي

التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ" (النحل ٥٨، ٥٩) .. ويقول القرآن لفاقدى الثقة والإيمان ، القاتلين لأولادهم خشية الفقر والإملاق .. " وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيرًا " (الإسراء /٣١) (الأنعام ١٥١) .. الخوف من الفاقة هو ضعف فى الإيمان .. المؤمن الحق يعلم أن الله تعالى هو الرزاق .. ما من مخلوق إلاّ ويوافيه سبحانه برزقه ، حتى الدواب .. " وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا " (هود /٦) .. لاتنتهى الآية الكريمة فى نهيها عن هذه الجريمة الكبرى التى نهت عنها ، دون أن تقول إن ما مضى من هؤلاء الجفاة الذين استحلوا قتل أولادهم إنما كان خطأً كبيراً !!

من هذا الحرص الحريص على الروح الإنسانية وعلى الحياة ، ما روى عن رسول القرآن .. كان صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار " .. فقيل هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال صلى الله عليه وسلم : "إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " .. بل إن الإسلام فى حرصه على الروح وعلى الحياة الإنسانية نهى عن الانتحار ، وعده قتلاً لنفسٍ حّرم الله تعالى قتلها .. حتى على صاحبها .. وفى حديث

رسول القرآن : " من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه ، فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا .. ومن قتل نفسه بسم ، فسمه فى يده ، يتحساه فى نار جهنم ، خالداً مخلداً فيها أبدا .. ومن تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو مترد فى نار جهنم ، خالداً مخلداً فيها أبدا " .. وروى الشيخان عن جندب البجلى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كان من قبلكم رجل به جرح فجزع ، فأخذ سكيناً فَحَزَّ بها يده فما رقأ الدم (أى لم يتوقف عن النزف) حتى مات ، قال الله تعالى : " بادرنى عبدى بنفسه حرمت عليه الجنة " ..

الأسير ، مع أنه قد يكون مقاتلاً آذى وقَتل ، إلاَّ أن روحه مصونة ، بل هو مرعى محفوظ يُطعم الطعام .. فى القرآن المجيد : .. " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" (الإنسان /٨) ، والمن عليه بإطلاقه من الأسر سابق على الفداء .. "فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا " .. (محمد /٤) .. الإسلام الذى يحترم روح الأسير ولا يمسها ، يحترم أيضاً روح المعاهد الذى هو أصلاً من أهل دار الحرب الذين شنوا الحرب وقاتلوا وقَتلوا .. روى عن عبد الله بن عمر ، عن رسول القرآن صلى الله عليه وسلم قال : " ومن قتل معاهداً لم يرح

رائحة الجنة " .. وعنه عليه الصلاة والسلام أيضاً : " ألا من قتل نفساً معاهدة ، لها ذمة الله ، وذمة رسوله ، فقد أخفر ذمة الله ، ولا يرح رائحة الجنة " ..

* * *

تقرير مبدأ شخصية المسئولية فى الإسلام ، يصب فى النهاية فى صالح الروح الإنسانية وعدم جواز المساس بها ووجوب احترامها والنأى بها عن أى عقاب إلاّ لوزر شخصى ثبت فى حقها ثبوتاً مؤكداً معدوداً يستوجب عقابها حقاً وعدلاً .. بغير ذلك فإن الروح مصونة لا تُمس .. فى شرعة الإسلام أن المسئولية شخصية .. لا يسأل الشخص إلاّ عما فعل ، لا محل لمساءلته ـــ شرعاً عن فعل سواه مهما كانت درجة قرابته أو انتمائه إليه ..المسئولية فى شريعة الله شخصية .. فى القرآن الحكيم : " وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ " (الإسراء/ ١٣) ، " كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ" . (الطور/٢١) .. وفيه أيضاً : " ولا تزر وازرة وزر أخرى " . (الأنعام ١٦٤ ، فاطر ١٨) .." أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى" . (النجم ٣٨ / ٣٩) .. " فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" . (الزلزلة ٧، ٨) .. ـــ فلا يلحق العقاب ، ولا يجوز أن

يلحــق ، إلاّ بمــن ارتكــب الجــرم وثبت فى حقه ثبوتاً يقــره الشرع والقانون ، بغير ذلك تكون المساءلة ظلماً ، " وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ" . (غافر / ٣١) ..

أينما يطوف المسلم ، وغير المسلم ــ فى رياض الإسلام ، يجد دوحة أظلت الروح الإنسانية بكل رعاية وأقامت سياجاً عالياً لحفظها .. الدين الذى يقدم هذا كله ، حرصاً على الروح الإنسانية ، وحمايــة ووقاية لها ، ليس دين عنف ولا دين سيف ولا خنجر ولا مــدفع ولا قنبلة .. آخر ما يمكن أن يتهم به الإسلام أن يقال إنه يبيح الاســتهانة بالأرواح .. إن الدين الحنيف الذى يقيم هذه الترسانة الحكيمة لوقايــة الروح الإنسانية واحترامها وحمايتها والحفاظ عليها ـ لا يســتهين ولا يمكن أن يستهين بها .. هذا ادعاء باطل أظهر ما فيه بطلاناً تعمده خلط الدفاع الشرعى بالاعتداء المؤثم .. الدفاع عن النفس والعرض والمــال مباح فى كل شرائع السماء وقوانين الناس ، ولكن يبقى للإسلام أنــه قدس الروح الإنسانية تقديساً لا مثيل له فى أى دين مــن الأديــان أو شريعة من الشرائع .. هذا الدين الجامع الذى أنزله الله تعــالى رســالة للعالمين .

دوحة المساواة في الإسلام

تنتمي حقوق الإنسان فى الإسلام وفى مقدمتها مبدأ " المساواة " ـــ إلى شجرة باسقة ، فى دوحة ظليلة .. تمثل ركناً ركيناً من أركان هذه الدعوة العالمية التى أراد لها الله ألاّ تكون محدودة بحدود مكان ، أو مقصورة على أقوام ، أو مطوية فى زمن واحد من الأزمان .. عالمية الإسلام تعنى أنه دين العالمين من يوم نزلت الرسالة وإلى يوم الدين .. لا تحده أرض ، ولا ينقضى بزمن ، ولا يستأثر أو يختص به قوم دون أقوام ، ولا جيل دون أجيال . هذا الاتساع الكونى للدعوة ، جعلها تطوى فى حناياها كل الرسالات ، وأوجب أن تتسع لكل الناس .. هذه الدعوة يتجه خطابها إلى الناس كافة .. أمس ، واليوم ، وغداً .. على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وظروفهم وأحوالهم !! .

وتنوع الخلق لا حدود له ، وتفاوتهم - من ثم - تفاوت واقع حادث لا حد لأشكاله ولا موقف لسننه .. خطاب الدعوة العالمية يتجه إلى معمورات وحضارات ، وإلى فيافى وصحارى وقفار .. إلى بقاع باردة ، وأخرى حارة .. إلى أراض غنية ، وأخرى بلقع .. يتجه إلى الذكور ، وإلى الإناث .. إلى الشيوخ والكهول ، وإلى

الشباب والأطفال .. إلى المرضى،وإلى الأصحاء ، .. إلى الفقراء ، وإلى الأغنياء .. إلى الضعفاء وإلى الأقوياء ، وتفاوت هؤلاء وأولاء حقيقة كونية ، فكيف تكون بينهم " مساواة " ، وكيف يلتئم هؤلاء جميعاً رغم هذه الاختلافات الهائلة والتفاوت الحتمى : الخلقى ، والمكتسب - .. كيف يلتئمون جميعاً فى شجرة واحدة عمودها " المساواة " ؟!

عبقرية الإسلام ، هذه الدعوة العالمية ، أن تحل هذه المعضلة ، فتتعامل مع واقع الاختلاف والتفاوت ، ولا تنزع عن الآدمى – فى الوقت نفسه — إحساسه بالانتماء ، وعلى قدم المساواة ، إلى هذه الشجرة الإنسانية التى عمادها الإخاء والحرية والمساواة !

الآدمى – أى آدمى – ليس نسخة مكررة من باقى الآدميين ، إنما يختلف بالضرورة عنهم ويختلفون عنه ، يتفاوت وإياهم ، ويتفاوتون وإياه على قدر حظ كل فرد من " المواهب " الخِلقيّة (بكسر الخاء) – أو من المزايا المكتسبة بالتعلم والدراسة والخبرة والاجتهاد ، من المحال أن يكون الآدميون جميعاً نسخاً كربونية متماثلة ، فالتنوع حتمى فضلاً عن أنه ضرورى لتدافع

الحياة وتقاسم الأدوار فيها .. فكيف يمكن أن تتحقق المساواة بين غير المتساويين ؟!

وكيف يمكن أن تجرى سنن الأحياء ، وتستقيم حوافز الناس ودوافعهم وبواعثهم إذا تساوى العالم والجاهل ، والنشط والقاعد ، العامل والكسلان ، المجاهد والمتخاذل ، الجاد والهازل ، الساعى والخامل ؟!!

ثم كيف تكون " المساواة " - الشجرة الباسقة التى أرادها الإسلام بعالمية دعوته ، لهؤلاء الناس جميعا على اختلافاهم التى لا تبديل لسننها !!

إنكار الواقع غفلة غبية من المحال أن تقع فيها الدعوة الإلهية العالمية ، ثم إن هذا الإنكار للواقع لن يقود إلى شىء ، ويحمل فى ذاته معاول هدمه .. الناس متفاوتون — ولا بد أن يتفاوتوا — بالعلم والفضيلة ، فلم ينكر القرآن ذلك ، وقال " هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (الزمر /٩) " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ " (المجادلة/١١) .. والناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - فى العمل والبذل والعطاء والكد ، فلم يشح القرآن المجيد عن ذلك ، وقال :

"أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" . (الأنفال ٤) .. " ولكل درجات مما عملوا " (الأحقاف/١٩ ، (الأنعام /١٣٢) .. والناس متفاوتون – ولابد أن يتفاوتوا – فى الجهاد ، فلم يتجاهل القرآن الكريم ذلك وقال : " " لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ". (النساء٩٥) .. والناس متفاوتون – ولا بد أن يتفاوتوا – فى أنصبتهم من الرزق وأسباب المعيشة .. وفى القرآن الحكيم : " نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ " (الزخرف ٣٢) ..

بيد أن هذا التفاوت الذى يشير إليه القرآن ، لا يحظى من القرآن بصك أو موافقة أو دعم أو تأييد تقوم به العلاقات أو تجرى التمييزات بين الناس ، أو يصنفون به إلى " طبقات " !.. فأنت تلحظ أن القرآن المجيد لم يستخدم بتاتا لفظ " طبقة " أو " طبقات " – وإنما حرص على أن يحدد العبارة فى لفظ " درجة "

أو " درجات " .. فلا طبقات فى الإسلام ، ولا تمايز فى الإسلام بين طبقة وأخرى ، أو بين عرق وأعراق أو بين جنس وأجناس ، أو بين عصبيات ، أو بين أغنياء وفقراء ، أو بين أقوياء وضعفاء .. وإنما هى شجرة واحدة ، لأسرة واحدة ، يجمعها رباط واحد ، لا فرق فيه بين إنسان وإنسان ، و .." إنما المؤمنون إخوة " .

وليس أجزى للإنسان ، حيث كان ، من دين يطوى الناس فى أسرة إنسانية واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلاّ " بالعمل " ، لا بالحسب ولا بالنسب ولا بالأعراق ولا بالأموال .. الإسلام أقر بوجود التنوع والاختلاف والتفاوت ، وأعطى فى الوقت نفسه للمساواة حقها .. فى القرآن الحكيم فى خطاب موجه إلى الناس كافة ، لا إلى المسلمين خاصة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات/١٣) ..

هذه الآية الجامعة ، تلفت الأنظار إلى أصل الإنسانية الواحد ، والخطاب فى هذا متكرر فى القرآن المجيد ، وهو لفت الإنسان إلى حجر الزاوية الأول فى مبدأ المساواة بين الناس ، وهو أن الناس جميعاً ينتمون إلى أصل واحد .. " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ

الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا " (النساء /١) .. "وهـو الـذى أنشأكـم مـن نفس واحدة " (الأنعام ٨٩) .. " هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا" (الأعراف ١٨٩) .. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد ، تنهدم به دعاوى العنصرية والعصبيات ، وينفسح الطريق ممهداً واسعاً على مصراعيه للأخوّة التى لفت القرآن الأنظار إليها بين الناس جميعاً .. هذه الأخوّة ، عماد المساواة ، تسلس إلى الركاز الثانى فى مبدأ المساواة .. هذا الركاز ينصب فى مناط المفاضلة التى لا تكون إلاّ " بالعمل " لا بالأعراق والأحساب والأنساب (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) – حين ترتد المفاضلة إلى هذا الميزان فإنها تجمع بين العدل وبين الحكمة جميعاً ، فلا تخذل النشط العالم الساعى المجاهد التقىّ الورع ، ولا تغلق فى الوقت نفسه أبواب الرجاء أمام غيره وإنما تبقى الباب مفتوحاً – وفى إطار الأخوّة التى تحدث عنها القرآن – لارتياد سبل التنافس والتبارى على نول المكانة التى معيارها الوحيد "التقوى والعمل الصالح " .. "وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" (المطففين ٢٦) ..

عظمة وحكمة " المساواة " فى الإسلام أنها لا تبطل سنن الحياة ، ولا تبطل سباق الأحياء فى صوالح الأعمال .. فلن ينقطع سباق الحياة بين الناس ، مثلما لم ولن ينقطع التفاوت بينهم .. ولا معنى للتفاوت ولا للمساواة إذا تساوى القادر والعاجز ، وتساوى العامل والخامل ، وتساوى النشط والكسلان وأصبح الكسلان يكسل ويقعد ولا يخاف على وجوده ، والعامل يعمل ويكد ويتعب ولا يأمل أو يطمح فى أفضلية أو رجحان .. لذلك فإن المتابع للفلسفة القرآنية يرى أن تقرير " الأخوة " و " المساواة "الإنسانية لم يمنع من التفاضل بين الناس ، بيد أن هذا التفاضل لا يرتد إلى منصب أو جاه أو سلطان أو عصبية أو أعراق أو قوة أو بطش أو جبروت ، وإنما مناطه الوحيد هو "العمل الصالح " .

أدلة معيار المفاضلة ،.وانحصارها فى " العمل " لا فى العرق أو النسب أو الجاه أو السلطان ، أدلة متعددة أيضا فى السنة المحمدية .. معيار المفاضلة بين الناس إنما هو فى أعمالهم لا فى " أنسابهم " .. وفى الحديث : " ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على

أحمر – فضل إلاّ بالتقوى " – .. يتحدث النبى عليه السلام إلى قومه بنى هاشم فيقول لهم : " يابنى هاشم لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ".

هذا المعيار – معيار " العمل " لا الحسب ولا العرق ولا النسب ولا الجاه – الذى إليه مناط المفاضلة ، يفسر ما يظن البعض أنه ينطوى على " شبهة " " عدم مساواة " فى الإسلام .. فهذه المفاضلة المردودة إلى " العمل " ، هى جوهر " المساواة " ، فالمساواة بين غير المتساويين ظلم ، وإبطال فى الوقت نفسه لسنن الحياة وتدافع الناس لترتقى بهم وبأعمالهم الحياة .. فحكمة التفاوت ظاهرة فى تكامل الحياة فى الكون ، كما أن آفة التماثل أو التطابق بين الناس أظهر ، لأن الحياة ستظل أبدا تحتاج وتفتقر إلى "المزايا " – إذا قصرت حركتها – فيما يقول العقاد – على تكرير صورة واحدة ونسخة واحدة تتطابق فى جميع الأفراد !

معيار " العمل " كمناط للمفاضلة ، وبث حوافز الحياة ، ودفع حركتها – يتماس معه أيضا ما يكون مرده إلى اختلاف الأحوال أو الظروف فيحسبه البعض دالاً على عدم مساواة فى الإسلام ، بينما هو

لب وجوهر " المساواة " التى يتوجب عليها أن تدخل فى موازينــــها هذه الفروق الناجمة عن اختلاف الظروف والأحوال لترد الجميــع إلى "المساواة " التى منبعها " الأخوّة" الإنسانية وتساند وتكافل الناس . إن الفاهم المدرك لقضية المساواة ، سوف يدرك أن الإسلام قفز بالبشـــرية كلها إلى الأمام إعلاءً لهذا المبدأ ، وسوف يفهم أنه سبق الشرائع جميعاً فى تقرير المساواة بين المرأة والرجل ، وسيفهم أن " قوامــة " الرجـــل المقررة فى القرآن ليس مردها إلى تفرقة وتمييـــز ، وإنمـــا إلى تقســـيم واجبات وأعباء ، وتقنين لما تستقيم به أحوال وشئون الأسرة .. مـــن يتأمل معنى وغاية الحديث النبوى :"الضعيف أمير الركـــب "ســـوف يدرك أنه ليس تمييزاً لضعيف وإنما هو تقريـــر لواجـــب الأصـــحاء أو الأقوياء فى رعاية الضعفاء .. فليس يســـتوى الضـــعيف والقـــوى فى الركب، القوى قادر بينما الضعيف لا يقدر ، لذلك كانت "المســـاواة" تعنى لـــدى الإســـلام – فى معناها السامق – أن يكون الضعيف هو أمير الركب ، ليجبر الصحيح القوى – ضـــعف المـــريض أو الضعيف ، ولتكون " المساواة " المقصودة المرعية هى التى ترد الناس إلى "الأخوّة الإنسانية" فى صورها الرفيعة السامقة !

" القدرة " فى شرعة الإسلام ، تكاليفها ثقيلة ، وأعباؤها جسيمة ، لذلك فإن الإسلام حين يفرض واجبات أو قوامة أو أعباء أو مهام على القادر ، إنما يفرضها رعايةً لمبدأ المساواة وتحقيقاً له فى صورته السامية لإعادة السواء — بروح الأخوة الإنسانية — لما ينبغى أن يكون بين الناس ، وهذا المَعْلم الإسلامى ، هو من أهم خصائص عالميته التى يفهم منها الناس جميعاً على اختلاف خلقهم ومواهبهم وحظوظهم وملكاقم وقدراقم وعلمهم وفهمهم وطاقتهم — أنهم سواء فى واحة الإسلام ، لافرق بين غنى ولافقير ، ولا قوى ولا ضعيف ، ولا تفاضل بالأعراق ، ولا بالأحساب والأنساب ومنازل الآباء ، وإنما كل بقدر عمله وبذله ، فإن قعد به عجز ، أو مرض ، أو ضعف ، أو غير ذلك ، تداركته المساواة الإسلامية بروح الأخوة الإنسانية التى تبذل له ما يعينه على مرضه أوضعفه أو عجزه أو غير ذلك من العوارض !

من اللافت ، الجدير بالاستشهاد ، أن هذه المعانى السامقة العميقة لم تغب عن بعض الدارسين للإسلام من غير المسلمين .. فى مؤلف للبروفيسور روشبروك وليامز (*RUSHPROOK WILLIAMS*) عن دولة باكستان ، يقول عن

تقاليد الإسلام : " إن هذه التقاليد تشمل مبادئ المساواة بين الأرواح الإنسانية أمام الله وتقرير أواصر الأخوة العالمية بغير نظر إلى العنصر أو اللون ، كما تقرر فريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجورون عليه ، وإغاثة المعوزين والمحرومين وبذل الحياة نفسها فى سبيل الصراط المستقيم .. "

أما الكاتب الشهير هـ . ج . ويلز *WEILLS* ـ فيقول فى كتابه الشهير " موجز تاريخ العالم "(***Short History of the world***) ما نص ترجمته عن الإنجليزية : " وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن فى إصرار المسلمين على أن المؤمنين جميعا إخوة متساوون تماما أمام الله مهما اختلفت ألوانهم وأصولهم أو مراكزهم " .

هذه " المساواة " التى رفعها الإسلام ، كانت أول ما شق على الأرستقراطية القرشية والعصبية الجاهلية المخلوطة بالثراء والمكانة .. كان أعظم ما استهولته قريش وكبارها ، أن يجمع النبى عليه السلام - فى مجلس واحد - بينهم على ثرائهم وشرف أنسابهم وكريم محتدهم ، وبين العبيد والفقراء والمستضعفين ، فيتقدم رءوس القرشيين إلى النبى عليه السلام معارضين طامعين فى حل .. كيف يجلس إليه ، ويريدهم معهم ، أمثال بلال الحبشى ،

وعمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان ، والعبيد وعامة الناس .. يريدون منه أن يطردهم وينحيهم عنه ، أو يخصص لهم يوما وللقرشيين آخر رعاية لحسبهم ومنزلتهم وأعراقهم وجاههم .. فيأبى عليهم النبى ما يريدون ، ويتنزل فى ذلك من الذكر الحكيم ما يقول للنبى تأكيدا لما قاله لهم : " وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ" . (الأنعام ٥٢) .

هذه المساواة الإسلامية ، فى شجرتها الباسقة ، لم تقف فقط عند المعانى والمقاصد التى تتوقف عندها دساتير اليوم ، وإنما جاوزتها إلى ما يلحق بها كل مساندة أو عون أو جبر أو كفكفة عن مريض أو ضعيف أو عاجز ، ولتلحق الجميع بالمجتمع الإسلامى - فى دوحة يتساند الكل فى ظلها بأخوّة وتكافل ومساواة وتحاب وسلام .. هذه الأخوّة الإنسانية التى عبر عنها نبى القرآن بقوله : " من آذى ذمّيا فأنا خصمه يوم القيامة " .. هذه الأخوّة التى تنتمى إليها المساواة التى لا مفاضلة فى رحابها إلاّ بالتقوى وصالحات الأعمال .. الكل أمام القانون وأمام القضاء سواء ، والكل فى الأعباء العامة وفى الضرائب

سواء ، والكل فى تولى الوظائف العامة وفى العطاء سواء ، والكـــل فى الخدمة العسكرية سواء !

إن شجرة حقوق الإنسان فى الإسلام ، تقوم على جناحين . الأول : مبدأ المساواة ، والثانى : وحدة الأصـــل البشـــرى .. لم يعبر كتاب من كتب الأديان عن وحـــدة الأصـــل ـــ مـــدخل المساواة ـــ كما عبر عنه القرآن المجيد ، ولا اعتبر الناس إخوة فى أسرة إنسانية كبيرة كما اعتبرهم القرآن الحكيم . لذلك لم تمـــس الاختلافات بين البشر ، وهذه سنة كونية ، ما بينهم مـــن أخـــوة وانتماء إنسانى تذوب فى أخوته الإنسانية الشاملة كل فـــوارق .. الإنسان الفرد ، أمام الإسلام ، قيمة فى ذاته لا ينتهكها استعلاء ولا تجبر ولا مال ولا هيلمان .. الكل سواء أمام الله ، والكل سواء أمـــام القانون .. من حرص الإسلام على هذه المساواة ، ورفضه الطبقيـــة بشتى صورها وأشكالها ، أنه لم يجعل للدين أو رجاله طبقـــة ، ولم يقبل أن يكون لهم طبقة .. فلا كهانة فى الإسلام ، ولا واسطة بين العبد وربه .. باب السماء مفتوح لكل إنسان بلا كـــاهن ولا حبر إلاّ اتجاهه إلى الله تعالى بإخلاص وقلـــب منيـــب .. إن أعياه التعرف على شيء ، فأمامه أهل الذكر والعلم ، يلجـــأ

إليهم - بلا كهانة - ويتلمس لديهم ما قصر عنه علمه أو فهمه .. فالقرآن المجيد يقول :" فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" . (النحل ٤٣) .. فلا مصادرة على المؤمن فى النظر والتأمل والتفكر ، ولا سلطان عليه غير سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة .. فضيلة أهل العلم ليست فضيلة طبقة ولا سلطة ، وإنما فضيلة اتساع علم وقدرة على البيان والتوضيح والإرشاد والموعظة الحسنة ..

لا فرق بين المسلمين فى أداء الفرائض والعبادات والنوافل .. يحجون بإزار بسيط واحد ، ويؤدون صلاة واحدة على نسق واحد وصفوف واحدة .. يتجاور فيها الفقير والغنى ، والضعيف والقوى ، والمحكوم والحاكم ، يكبرون جميعاً ويركعون ويسجدون على نسق واحد وقلب واحد ..

المساواة أمام القانون ، فرع على هذه الشجرة الوارفة التى يتساوى فيها أفراد الأسرة الإنسانية ، يعبر عنها نبى القرآن عليه السلام فى حديث بالغ الدلالة ، محدد العبارة ، قاطع الحكم ، يمتد بصريح عبارته إلى الناس كافة لا إلى المسلمين خاصة .. يقول عليه الصلاة والسلام : " الناس متساوون كأسنان المشط " ..

فى دوحة القرآن لا تحل الكلمات محل الأعمال ، فلا قيمة لكلام مزخرف لا يقابله واقع حاصل مطبق .. فى القرآن الحكيم : "كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ" . (الصف ٣) .. من يراجع السيرة المحمدية ، وسيرة الراشدين ، يرى صورة مثلى لمصادقة الأفعال والأعمال للأقوال .. فى مرضه الأخير ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم متحاملاً على نفسه إلى المسجد ليقول للناس : "يا أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فيأخذ منه . ولا يخشى الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى ، ألا إن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقاً إن كان له أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس . ".. وهو هو - عليه السلام - الذى رفض غاضباً وساطة حبه أسامة بن زيد لإعفاء فاطمة المخزومية القرشية من حد السرقة ، وقال للناس :" إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . " !! .

على سنته عليه السلام فى " المســاواة " ، جــرى خلفــاؤه الراشدون .. كانوا يعطون " القود " من أنفسهم .. غضب عمــر بن الخطاب لصنيع رجل فامتدت يده إليه بالضرب ، فقــال لــه الرجل : " إنما كنت أحد رجلين : رجل جهل فعلم ، أو أخطــأ فعفى عنه . " .. هنالك قال لــه عمــر فى صــدق وتســليم : " صدقت .. دونك فامتثل (أى اقتص) " ..

إلى عمر بن الخطاب ، شكا أحد أقباط مصر من ابن الوالى عمرو بن العاص أنه ضربه ، فما توانى عمر أن إستدعى عمــرو بن العاص وابنه ، ومكن القبطى من القصاص بضرب ابن عمرو بالدرة كما ضربه ، قائلاً لعمرو : " متى إستعبدتم النــاس وقــد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟!! "

من فرط احتياط عمر بن الخطاب وتحرجه ، هاله أن امــرأة استدعاها فهابته ومن شدة هيبتها ألقــت ما فى بطنها، فأجهضت به جنينا ميتا .. استفتى عمر الصحابة مخافة أن يكون مسئولاً عما ألم بها ، فقالوا له : " لا شيء عليك " .. بيد أن الفاروق أشــاح عن فتواهم وأخذ برأى علىّ بن أبى طالب أن يعتق رقبة ــ احتياطاً

وتعبـــــيراً (زائداً) عن المساواة التامة بين الحـــاكم والمحكـــوم أمام القانون !

في مجلس قضائه ، وقد أجلس عليّ بن أبي طالب قبالة يهودى اختصما إليه ، وظن أن علياً قد غضب ، فإذ بعليّ يصحح مظنته ويوضح أنه إنما كره أن أمير المؤمنين لم يسو بينهما حـــين كرّمـــه فناداه بكنيته ــــ والنداء بها تكريم ، بينما نادى اليهودى باسمه ! .. وهذا هو عليّ أمير المؤمنين ، الذى قبل فى تسليم وبلا أى غضاضة حكم قاضيه شريح ، الذى رفض دعواه ضد أعـــرابى خاصـــمه عليّ فى سيف طلحة التى أخذت غلولاً يـــوم البصرة ، رغم أنـــه أشهد على دعواه ابنه الحسن سبط النبى وغلامه قنـــبر .. قضـــى شريح برفض الدعوى ، عملاً بحديث الـــنبى عليـــه الســـلام : " لا تقبل شهادة خصم ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة . " ..

إحساس الناس ، فى واحة الإسلام ، بأنهم متســـاوون أمـــام القانون ، نابع من منظومة قرآنية تعاضدها السنة النبوية ، ونـــابع أيضا من تطبيقات متتالية كرست لدى الناس أنهم أمـــام القـــانون سواء ، وأن هـــــذا هو حقهم جميعاً فى الإسلام الذى لا يجامـــل فى هذه المساواة أحداً مهما بلغت مكانته أو اشـــتدت عزوتـــه أو

ثارت خشية أو مخاوف من معاداته للإسلام أو نكوصه عنه .. من هذه المساواة البالغة السواء للناس أمام القانـــون ، ما كان من أمر جبلة بن الأيهم - أحد ملوك جفنة ، بعد أن أسلم ، وأتى إلى المدينة فى ولاية الفاروق بخمسمائة من قومه يزدان بهم الإسلام ، ولكنه ثار حال طوافه بالكعبة على رجل من بنى فزارة داس على إزاره عفوا فلطمـــه فحطم أنفه ، وأذهله أن أمير المؤمنين عمر يقول له : " إمّـــــا أن ترضى الرجل ، وإمّا أن أقتص منك " .. لم يستطع جبلة أن يستوعب هـــذه المســـاواة ، فقال محتجاً : " وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وهـــو سوقة وأنا ملك " ؟!! .. بيد أن الفاروق يجيبه فى وضوح وتصـــميم : "إن الإسلام قد سوى بينكما ، فلست تفضـــله بشـــىء إلاّ بـــالتقوى والعاقبة " .

ليس يعنينا هنا أن نتابع باقى قصة جبلة بن الأيهم ، ومـــاذا كان رد فعله ، وإنما الذى يعنينا - أن نؤكد كيـــف أن الإســـلام حريص على تأكيد وترسيخ مساواة الناس أمـــام القـــانون .. لا يستثنى من هذه الواحة أحداً لضعفه أو مرضه أو فقـــره أو قلـــة حيلته أو تواضع قدراته !

والمساواة أمام القضاء فى الإسلام ، فرع على المساواة فيه عامة ، وعلى المساواة أمام القانون ، ولم يكن موقف على بن أبي طالب والرجل اليهودى أمام عمر ، إلاّ صورة من صور المساواة أمام القانون وأمام القضاء أيضاً .. كذلك خصومة على والأعرابى فى سيف طلحة أمام القاضى شريح الذى لم يتحرج من رفض دعوى أمير المؤمنين ، وابن عم النبى عليه السلام ، وزوج فاطمة ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، مع أنه أشهد عليها حفيد النبى وآخر ، وهذا القضاء صورة ناطقة لاحترام هائل لمبدأ المساواة أمام القضاء دون نظر لجاه ولا لمكانة ولا لحسب ولا لنسب ولا لمنصب ولا سلطان ! .

فى كتاب الأم للإمام الشافعى ، أن عمر بن الخطاب أخذ فرسا من رجل على سوم فحمل عليه فعطب فخاصم الرجل عمر، فقال عمر : " إجعل بينى وبينك رجلاً " ، فقال الرجل : إننى أرضى بشريح العراقى . نظر شريح فى الخصومة ، ولم يأنف أن يقول لعمر : " أخذته صحيحاً فأنت له ضامن حتى ترده صحيحا سليماً ، فأدى عمر ثمنه للرجل . والأعجب من هذا أن عمر لم يغضب بل وعين شريحاً قاضيا وظل شاغلاً لهذا المنصب حتى خلافة على بن أبي طالب .

ومن اللافت أنه على ما اعترى الحكم فى فترات الركود من بُعد عن روح ومبادئ الإسلام ، إلاّ أن المساواة أمام القضاء ظلت محل احترام فى كثير من الأحيان . ادعى جماعة من الناس حقاً ضد الخليفة المنصور العباسى أمام القاضى محمد بن عمر الطلحى ، فلم يجد بأساً فى استدعاء الخليفة إلى مجلسه أسوة بخصومه ليقضى فيما بينهم بما يراه محققا للعدل والإنصاف . حين حضر الخليفة لم يميزه القاضى فى مجلسه ولا ميزه فى نظر الخصومة ، ثم لم يتحرج من الحكم فيها ضد الخليفة . لم يغضب المنصور بل وقال للقاضى : "جزاك الله عن دينك ونبيك وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء" .

فى عناية الإسلام بالمساواة أمام القضاء ، سن قواعد لمجلس القضاء ترعى الشكل ضمانا لرعاية الموضوع ، وفى الحديث : "إذا ابتلى أحدكم بقضاء فلا يجلس أحد الخصمين مجلساً لا يجلسه صاحبه ، وإذا ابتلى أحدكم بقضاء فليتق الله فى مجلسه وفى لحظه وفى إشارته " .. وفى رواية : " فليسوِّ بينهم فى النظر والمجلس والإشارة ، ولا يرفع صوته على أحد الخصمين أكثر من الآخر . "

لايكتفى الإسلام من القاضى أن يعدل فى حكمه ، وإنما يوجب عليه أيضاً أن يكون مجلسه عنوانا للمساواة

والعدل ، حتى يطمئن الخصوم إلى عدل القاضي ومساواته بينهم بغير ميل ولا هوى !

يساوى الإسلام بين الناس فى تولى الوظائف العامة ، لا يميز أحدا لنسبه أو لعرقه أو لحسبه أو لماله ، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم من المحاباة فى اختيار الولاة وأرباب الخدمة العامة ، فيقول : " من ولى أحداً محاباة فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين ". لا إيثار لأحد لجنسه ولا لقبيلته ، والطاعة للولاة الراشدين لا تفرق بين أبيض وأسود ، والناس مأمورون بطاعة ولى الأمر مادام يرعى الله ـ ولو كان عبداً أسود !!

هذه المساواة فى تولى الوظائف العامة تنطلق من المبدأ العام لمعنى المساواة فى الإسلام .. ليس معناها أن يُقدم الجاهل على العالم فى ولاية الوظائف ، ولا أن يُقدم الفاسد على الصالح ،فولاية الوظائف أمانة ، والاختيار لها يخضع ويجب أن يخضع لمعايير ضمانا لحقوق الناس الذين تبذل الوظائف العامة من أجل رعاية مصالحهم .. وفى القرآن الحكيم : " إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ" - ويقول أهل الفقه والنظر إن كل ولاية بحسبها ، فإن كانت الوظيفة للمال قدمت الأمانة ، وإن كانت لقيادة الجيوش قدمت القوة .. وفى جميع الأحوال فإن الاختيار أمانة للصالح

العام .. من أجل ذلك لم يتحرج رسول القرآن عليه السلام من أن يقول لأبي ذر الغفارى على حبه وإيثاره له حين طلب ولاية :"يا أبا ذر إن بك ضعفا ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة - إلاّ لمن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها " .

هى إذن ليست مساواة حسابية وإنما مساواة قانونية لا تفرق بين الناس لجنس أو حسب أو لون أو جاه ، وتختار الأصلح بغض النظر عن أى اعتبار من هذه الاعتبارات - فى السيرة المحمدية ولى عليه السلام بلال بن رباح ، وزيد بن حارثة، بل وجعل أسامة بن زيد قائداً على كبار الأنصار والمهاجرة حينما تأهبوا لقتال المرتدين .. وحين طعن عمر بن الخطاب وأعجزته إصابته عن الصلاة بالناس ، انتدب "صهيب الرومىّ " ، وهو من الموالى ، ليصلى بالناس .

وصاحب الوظيفة ذاته ، لايتميز على الناس ، ولا يفضلهم بشىء ، حتى وإن كان أميرا عاما للمؤمنين .. يسمع الناس فى الإسلام ، أبا بكر الصديق يقول للناس يوم ولوه الخلافة : " لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ! وإن أسأت فقومونى ".. ومن بعده سمع الناس للفاروق رضى الله عنه يقول لهم : " إنما أمير المؤمنين رجل منكم ولكنه أثقلكم حملا " ..

فهم هؤلاء من إمام مدرسة النبوة صلى الله عليه وسلم أن ولاية الوظائف العامة واجب وحمل وتكليف وليست تسلطاً ، وأن قوامها العدل والحق والمساواة ، وليس السيف أو السوط أو هوان عباد الله !

هذه المساواة الإسلامية ، امتدت إلى كل المظاهر - فى العطاء ، وفى واجب الجهاد أو ما يصطلح الآن على تسميته بالخدمة العسكرية ، وفى الضرائب ، وفى نصيب الناس من حمل أعباء الجماعة ، وفى حق كل منهم فى بيت المال .. لا تميز السياسة العامة للمال فى الإسلام بين الأفراد فيما يستحقون وفيما يأخذون كل بحسب عطائه وبحسب نصيبه ، لا يُمنح أحد ويُحرم آخر ، ولايفرق بين ذكر وأنثى ، أو بين مسلم وذمّى .

من أبلغ روايات المساواة فى أعطيات بيت المال ، ما روى عن زيادة الخيرات وتنامى العطايا فى خلافة أبى بكر الصديق حتى أشار عليه البعض قائلين : " ياخليفة رسول الله ، إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس من لهم فضل وسابقة وقدم . فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم . " فقال لهم أبو بكر : " أما ماذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفنى بذلك ؟ ، إنما ذلك شىء ثوابه على الله

جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة " . أما النظام الذى وضعه عمر من بعد ، وراعى فيه منازل السابقين والمجاهدين ، فإنه تقيد بالمساواة فى كل منزلة دون تمييز بين فرد وآخر !

ولا يستبعد الإسلام من واحة المساواة أهل الذمّة الذين يقيمون فى دار الإسلام .. فهم أحرار فى عقائدهم وفى إقامة شعائرهم وفى ممارسة نشاطهم وفى ولاية الوظائف ، ولهم أيضا نصيبهم فى بيت المال ، ويتمتعون بمظلته التى تقيهم العوز والحاجة . روى عن الفاروق عمر عليه الرضوان أنه صادف شيخاً يهوديا ضريرا يتكفف الناس ، فأخذه بيده إلى بيت المال يقول لعامله عليه : " انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ! "

يحترم الإسلام حقوق أهل الذمة فى الملكية كما يحترم حقوق المسلمين ، وفى مدونات التاريخ أن امرأة ذمية فقيرة أبت أن تبيع لأحد الأمراء الكبار بيتاً لها أراد أن يوسع به مسجداً ، ولم يرقها أنه احتجز البيت لهذه الغاية فى الله مع أنه سيؤدى إليها ثمنه ، فرفعت الأمر إلى الخليفة فأمر برد بيتها إليها وقرّع الأمير ولامه لوماً شديداً على ما حدث منه !

وأمثلة المساواة لأهل الذمة فى تولى الوظائف والمناصب العامة فى الدولة الإسلامية ، ومنها الوزارة وقيادة الجيوش ، لاتقع تحت حصر .. بل وكان من الذميين من تولى قيادة الجيش إبان الحكـــم الإسلامى فى الأندلس ، ووضعت جميع المدارس فى عهد هـــارون الرشيد تحت رقابة أحد النصارى وهو حنـــا مســـنية (الإســـلام والنصرانية للشيخ الإمام محمد عبده) .. وفى حضارة الإســـلام - الدين العالمى - من نبغوا فيه من اليهود والنصارى فى شتى العلوم .. وما كان ذلك ليكون لولا واحة المساواة الوارفة التى لم تستبعد من مظلتها أهل الذمة .. نجد الحضارة الإســـلامية ، مثلمـــا نجـــد التاريخ الإسلامى ، مرصعاً بنجوم من أهـــل الذمـــة ، يهـــوداً ونصارى ، تساووا مع المسلمين فى كل شىء .. نبغ منهم علماء وكيماويون وأطباء - فتح الإسلام بابه بغير تفرقة إلى هؤلاء جميعا دون اشتراط جواز مرور بإنتماء دينى أو عرقى .. فى حجة الوداع أمر النبى عليه السلام - الحارث بن كلده ، وكان على غير ديـــن الإسلام ، أن يعالج سعداً بن أبى وقاص .. وكثر اشتغال اليهـــود والنصارى بالطب فى ظل الدولة الإسلامية بأقطارها المختلفـــة .. ونبغ أطباء فيها من نصارى الشرق فى ظل هذه المساواة فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة الغربية تحـــرم صـــناعة الطـــب .. وفى

موسوعة الحكماء للقفطي عشرات الأسماء التي نبغت من ذميين فى ظل المساواة التي شملت الحضارة الإسلامية .. من أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية موسى بن ميمون اليهودى وغيره ، ولم يتح لليهود من انخراط فى النسيج العام للبلاد التي يعيشون فيها مثلما أتيح لهم فى الأندلس الإسلامية فى ظل هذا المبدأ الوارف الذى يظلل ربوع دار الإسلام .. فى عصر الخلافة الفاطمية إستوزر العزيز بالله الفاطمى (٩٧٥ ــ ٩٩٦م) واستناب فى الشام رجلا يهوديا يدعى منشّا بن ابراهيم .. صحيح أن الوزير مال وظلم وأثار السخط ، ومع ذلك تبقى دلالة استخدامه آية على عالمية الحضارة الإسلامية التي بذلت المساواة والفرص المتكافئة للجميع .. ممن بزغوا من اليهود والنصارى فى رحاب المساواة الاسلامية إسحق بن حنين الطبيب المترجم النصرانى (٩١٠ / ٩١١ م) .. وإسحق بن سليمان الاسرائيلى ، الفيلسوف اليهودى المولود بمصر عام ٨٥٠م .. واسحق بن عمران الطبيب البغدادى (أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى) .. وليس ببعيد عن الأذهان موسى قطاوى باشا ــ اليهودى المصرى ــ الذى تولى وزارة المالية فى مصر فى القرن الماضى !

من أبرز أصداء " المساواة " فى الإسلام ، المساواة أمام الضرائب والأعباء العامة .. فى الزكاة على سبيل المثال — يتساوى المسلمون فى إخراجها بنسبة واحدة فى النقد والثمار والغنم والزرع والركاز وغير ذلك . ولأن الزكاة فريضة مالية تعبدية ، فلا تفرض على غير المسلمين ، فلم يتذرع الإسلام " بالمساواة " ليفرض الزكاة على غير المسلمين ، وإنما أعفاهم منها ، بينما لم يجز لمسلم أن يتحلل أو يتميز عن باقى المسلمين فى نصيبه المقدور من الزكاة طبقا لما لديه .. فلا يجوز الإعفاء من اخراج الزكاة ما دام المكلف يملك النصاب .. "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا " . (التوبة ١٠٣) .. كما لا يجوز تخفيضها عن تقاديرها التى يتساوى الناس فيها كل بقدر نصيبه المقدور .

النبع المستقى منه هذا وغيره من أحكام المساواة ، يرجع إلى واحة ظليلة وارفة ، وضعها القرآن المجيد ، ونهض عليها الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم .. يأبى عليه السلام على الناس أن يعظموه ، ويقول لهم : " لا تقوموا لى كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا " .. " إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس " .. يقول حانيا رفيقاً لمن أخذته

الرعدة من هيبته : " هون عليك يا أخى ، فإنى لست بملـــك ولا جبار ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة " .. يجـــالس عليه الســـلام أصحابه من العبيد والفقراء والمســـاكين ، يحنـــو عليهم ويؤاكلهم ويعود مرضاهم ويرفض دعـــــوة قـــريش للتعالى عليهم .. يخصف نعله بيده ، ويكنس بيتـــه ، ويحلـــب شاته ، ويعقل بعيره ، ويؤاكل خادمه أنس بن مالك ، ويرفض أن يتميز على أصحابه .. يسبقهم فى حفـــر الخنـــدق ونقـــل الأحجار فى غزوة الأحزاب حتى عفر التراب جبينه ، ويسبقهم إلى تحضير الطعام ولا يأنف من جمع الحطب والوقود ، ويـــأبى دعـــوة أصحابه إليه أن يحلوا محله ، ويقول لهم : " أعلم أنكم تكفونى ، ولكن الله يكره من العبد أن يكون متميزاً على أصحابه " .. يسبق صـــحابته إلى مواطن الخطر فى الجهاد ، حتى قال على بـــن أبى طالـــب نجيـــب مدرسة النبوة : " إنا كنا إذا اشتد البأس ، وحمى الوطيس ، واحمـــرت الحدق ، احتمينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه " .. فى بناء المسجد بالمدينة يراه المسلمون يده مع أيديهم فى البناء ، يجمـــع ويحمل معهم الأحجار من هنا وهناك ، ويشاهده أحد المسلمين عارضاً لبنةً على بطنه ، ويظن أنها شقت عليه ، فيطير إليه يقـــول لـــه : يـــا رسول الله ناولنيها .. بيد أنه صلى الله عليه وسلم يأبى عليـــه ويجيبه :

" خذ غيرها ، لاعيش إلاّ عيش الآخرة" ، فلما ألحّ عليه ، قال له عليه السلام " اذهب فاحتمل غيرها فإنك لست بأفقر إلى الله منى ! " .

هذه الواحة الوارفة للمساواة فى الإسلام ، معلم أساسى من معالم عالميته التى تتسع لكافة الناس جميعاً على امتداد المكان والزمان !.

الأديان المتجهة إلى أقوام ، أديان مغلقة ، لاتعطى للآدمى ما يعطيه الإسلام من إحساس عميق بآدميته وبانتمائه والناس طراً إلى أصل واحد ، وإنضواؤه وإياهم فى أسرة واحدة — لا يتمايز فيها أحد بجنسه أو عرقه أو لونه أو حسبه أو نسبه أو عمله أو منصبه أو جاهه أو ماله أو ثرائه .. هذه " المساواة " هى رسالة الإسلام إلى الدنيا وإلى الناس كافة ، أنهم فى ظل دوحته الوارفة ، يلتئمون جميعاً فى شجرة واحدة عمودها المساواة ، وأنهم فى رحاب هذا الدين العالمى ينتمون إلى شجرة الإنسانية التى يتساوى فيها الجميع فى رحاب الله وفى إطار دعوته العالمية إلى الناس كافة وعمادها الإخاء والحرية والمساواة !

سماحة الإسلام

سماحة الإسلام فرع على معالم عالميته ، وعلى خصال وشمائل فيه عديدة ، أو هى خصلة جامعة لخصاله ، صـدى لها ، ومعـبرة عنها ، ثم هى تلتئم مع كل هذه المعالم والسمات فى اتساع الإسـلام للعالمين إلى يوم الدين ، وامتداد واحته إلى من لم يؤمن به مثلما هـى للمؤمنين به .. الدين العالمى دين يحمل بـذوره وقـدرة الامتـداد الواسع العريض ، فى الزمان والمكان .. لا تحده أرض ، ولا ينقضـى بزمان ، ولا يستأثر أو يختص به قوم دون أقـوام ، ولا جـنس دون أجناس ، ولا بلد دون بلدان ، ولا عرق دون أعـراق ، ولا جيـل دون أجيال ، وإنما هو دين يخاطب العالمين ، وبخطاب صـالح لكـل الأزمنة والأماكن والعصور .. يخاطب الناس كافة على سنن الهدايـة والبيان والإقناع الذى يخاطب الألباب والضمائر والوجـدان ، ولا يغلق دون أحد بابه ، ولا يوصد واحته أو يعطى ظهره فى وجه أحد .. الاتساع الكونى لرسـالة الإسـلام جعل بابهـا مفتوحـا للعالمين ، واستلزم منظومة معطرة من الأخـلاق والسـجايا والخصال جعلت من واحة هذا الدين عنوانا للتسامح ، سـواء بين بنيه المؤمنين به ، أم بينهم وبين باقى الناس ، كل النـاس ، علـى

اختلاف أديانهم ونحلهم ومللهم وعقائدهم ومذاهبــهم وأعــراقهم وأجناسهم وبلدانهم .. تسامح الإسلام هذا الشامل ، تسامح ينبع من أنداء عطرة وخصال رحمته وعدله وإحسانه وعفوه وغفرانه .. عدل الإسلام ، عدل مع الناس كافة ، يتجه إليهم بسواء موازينه دون مـا تفرقة لأديان أو ملل أو نحل أو أعراق أو أحســاب أو أنســاب .. منظومة الأخلاق الإسلامية ، تلك البديعة الرائعــة، الشاملة الجامعة المانعة ـ أرادت للمسلم ورسمــت له وحضته وأكدت عليه وأرشدته أن يكون فى الدنيا ينبوع خير ومحبة وألفة ورفق وعطاء وتواصــل .. سماحة الإسلام مع منظومة سجاياه رسالة إلى الــدنيا فرقــت بــين عهدين .. تسالم وتبث المحبة والإسماح ولا تبادئ بعداء ، ولا تلفــظ من رحابها أبناء الملل والديانات الأخرى ، بل هى تؤمن الكافر وتجيره حتى يسمع كلام الله ثم تبلغه مأمنه .. فى القرآن المجيد : "وَإِنْ أَحَــدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَــهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ. "(التوبة ٦) .. كفر الكافر وشــركه دال على جهله وانعدام أو فقر علمه ، فإن علم كان العلم كفيلاً بهدايتــه .. لذلك لا ييأس الإسلام قط من الدعوة إلى ســبيل الله بالحكمــة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن .. ولا تنسلخ دعوته بتاتــاً من سعيها الدائم الرفيق إلى البيان والإقناع والهداية .. الإسلام ديــن

مفتوح ، جاذب جامع كالعدسة اللامة .. يتعانق مع الدنيا ، ويفتح أبواب رحمته وعطائه للناس جميعاً فى حب وإسماح .. دين أراد لبنيه أن يكونوا نفحة عطاء وعطراً للآخرين ..

بدأ الإسلام فرفض كل أنواع العصبية وهى عدوة السماحة والإسماح .. " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات ١٣) .. " كلكم لآدم .. وآدم من تراب .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم . " يتسامح الناس ، ويتسامح المتدينون ، حين يدركون أن أصلهم واحد ، وأن انتماءهم إلى شجرة واحدة .. إلى ذلك لفت القرآن الحكيم ، حين نوه فى العديد من آياته إلى أن الناس جميعاً ينتمون إلى أصل واحد ونفس واحدة .. " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء "(النساء /١) .. "وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ " . (الأنعام ٩٨) .. " هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . " (الأعراف ١٨٩) .. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد ، تنهدم به نعرات العنصرية والعصبية ، وتتسع

الباحة الإسلامية الوارفة إلى الناس جميعا على سنة الهداية والإسماح .. لا معيار للمفاضلة إلاّ بالعمل والتقوى .. " وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى " (النجم ٣٩ ، ٤٠) .. غاية الإسلام أن يهدى من لم يهتد ، وهذه الهداية قوامها الإقناع بالحجة والبيان ، بالحكمة والموعظة الحسنة وائتلاف الناس بالحب والرفق والإسماح .. " المؤمن آلف ومألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ." .. " ما دخل الرفق فى شيء إلا زانه ، وما خرج من شيء إلا شانه . " .. الهداية الإسلامية لا تفرض بالقسر والإرغام ، وإنما هى دعوة هادية بالمحبة والبيان .. " مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . " (الإسراء/١٥) .. "قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ " (الأنعام /٩١) ..

لا يسعى الإسلام لفرض دين ، ولا يجبر على هداية .. سماحته فى الدعوة عنوان لمتانة بنائه واستقامة عناصره .. " ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (النحل ١٢٥) .. رسول القرآن عليه البلاغ والإرشاد لا الفرض ولا الإجبار .."إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ

"(الشورى ٤٨) .." إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا " (فاطر ٢٣، ٢٤) .. " لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء . " (البقرة / ٢٧٢) .. " إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء ."(القصص ٥٦) .. لا يتعقب الإسلام ولا يطارد أحداً أو يفرض نفسه عليه .. " لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ " (البقرة ٢٥٦) .. " أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ . " (يونس ٩٩) .. " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . " (يونس ١٠٨) ..

المسلم غنى بهدايته ، لا يفقره ولا يضره ضلال غيره .. " عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . " (المائدة/١٠٥) .. الإسلام يمد يده بالسلام والمحبة والإسماح .. السماحة خصلة أصيلة وشميلة رفيعة من خصاله وشمائله .. يصدر عنها المسلم فى علاقته بالمسلمين ، وفى تعامله مع غير المسلمين .. فى بيعه وفى شرائه ، وفى استئدانه وفى أدائه .. فى الحديث النبوى : " رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا

قضى ، سمحاً إذا اقتضى . " .. المسلم مـأمور بالأخـذ بـروح الإسلام ومهجته وتسامحه .. " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ." (الأعراف ١٩٩) ..

على كثرة وضخامة وجسامة ما تعرض له المسلمون من أذى شديد من الكفار ، أمروا بالاعتصام بالصبر والإسماح .. وصبروا .. " وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ . " (آل عمران ١٨٦) ..

الإسلام لا يبادر ولا يبادئ أحداً بعداء ، ولا يأذن بقتال إلاّ لضرورة صد العدوان وإيقاف التجبر والعتو والافتئات .." أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهَ .." (الحج ٣٩ ، ٤٠) .. فإذا جنح المعتدى للسلم لبى الإسلام وقابل السلام بسلام لأن الإسلام دين محبة وسلام .." وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . " (الأنفال ٦١) ..

أيادى الإسلام ممدودة إلى الدنيا بالمحبة والإسماح والسلام .. لا يجزع الإسلام ولا يخشى السلام ثقةً منه بقوة الحق الذى هو عليه .. لفظ "السلام" هو تحية الإسلام .. ولفظ " الإسلام " ذاته منحوت من مادة " السلام " .. نبى القرآن "رحمة مهداة " ، وهدية من السماء إلى العالمين .. " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ. " (الأنبياء ١٠٧) .. يقول رسول القرآن : إن الله جعل السلام تحية لأمننا ، وأمانا لأهل أمتنا . " .. " السلام قبل الكلام " .. " لا تؤمنوا حتى تحابوا : ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم . " .. السلام والإسماح ، مهجة وروح الإسلام .. تحية الله تعالى للمؤمنين تحية سلام : "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ . "(الأحزاب ٤٤) .. ومستقر الصالحين هى دار الأمن والسلام : " وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ " (يونس ٢٥) .."لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ . " (الأنعام ١٢٧) .. وأهل الجنة الموعودة لا يسمعون لغوا من القول ولا يتحدثون بغير لغة السلام : " لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا . " (الواقعة ٢٥، ٢٦) ..

من أعجب العجائب أن يُتهم الإسلام الذى أفرز حضارة عالمية تآخت فيها الأديان ــ بأنه دين إرهاب وعنف .. كيف ؟! .. إنه على ما لقى المسلمون من إعنات وأذى المشركين ، أُمـــروا فى القرآن المجيد بحسن معاملة وبرّ من لم يقاتلوهم أو يخرجــوهم .. " لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ." (الممتحنة ٨) .. فأين هذا الإسماح مما ورد فى التوراة بالإصحاح العشرين (١١ ــ ١٧) من سفر التثنية : " حين تقــرب مــن مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح . فإن أجابتك إلى الصــلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير (!!) ويستعبد لك (!!!) . وإن لم تسالمك بل عملــت معــك حربــاً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يــدك فاضــرب جميــع ذكورها بحد السيف (!!) وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفســك (!!!) وتأكــل غنيمــة أعدائك (!!!) التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المــدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . أما مدن الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً !!! ".. أو ما جاء فى الإصحاح /١٣ (٦ ـ ١٧)

من سفر التثنية عن المدن التـــى لا تـــدين بديانـــة إســـرائيل :
"فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف (!!) وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف (!!) تجمع كـــل أمتعتـــها (!!) إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار (!!) .. المدينة وكل أمتعتـــها كاملـــة للرب إلهك ، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعده " !!

ليس مرامنا هنا أن نهاجم أحداً ، أو نعرض بـــدين ، ولكننـــا نورد فقط بعض ما ورد فى العهد القديم الذى يحلو للبعض أن يفتروا على الإسلام ورسول الإسلام ، ـــ فى سفر الخـــروج ، الإصـــحاح /٣٢ (٢٥ــ٢٩) أن بنى اللاوى قتلوا ثلاثة آلاف رجل من الشعب لعبادتهم العجل .. وفى سفر العدد ، الإصحاح/٣١ (١ ـــ ..) أن النبى موسى أرسل اثنى عشر ألف مقاتل لمحاربة أهل مدين ، " فقتلـــوا كل ذكر ، وقتلوا خمسة من ملوك مدين بالسيف " ، " وســـبى بنـــو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم ، وأحرقـــوا جميـــع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار . وأخذوا كل الغنيمة وكـــل النهب من الناس والبهائم " ، .. وأنهم لما رجعوا قوبلوا بالغضب على استبقائهم النساء والأطفال ، ثم أمروا بقتل كل طفل ذكر ، وكل امرأة ثيب، وأبقوا الأبكار ، وكان عددهن اثنين وثلاثين ألفـــاً " !

.. وفى سفر صمويل الأول ، الإصحاح/٢٧ (٩ ـــ ١٢) ـــ أن النبي داود " ضرب الأرض ولم يستبق رجلاً ولا امرأة وأخذ غنماً وبقراً وحميراً وجمالاً وثياباً وجاء إلى أخيش فقال أخيش إذن لم تغز اليوم . فقال داود بلى " . وعاد داود فلم يستبق رجلاً حتى أتى إلى جات " . .. وفى سفر صمويل الثانى ، الإصحاح/١٢ (٣١) أن النبي داود كان يمثل بمن يقتلهم أشنع تمثيل .. " فجمع داود ... وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم فى أتون الآجر (موقد كبير من الآجر) وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون " .

المسلمون لا يستغلون هذا الذى ورد نصاً فى العهد القديم ليهاجموا الديانة اليهودية ، أو النبيين موسى وداود .. بل احترم الإسلام كافة الديانات والرسالات ، ووقر جميع الأنبياء والرسل ، وجعل الإيمان بهم وبرسالاتهم شرطاً من شروط الإيمان .. فى القرآن المجيد : " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ " (البقرة ٢٨٥) .. " قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ

وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " . (البقرة/١٣٦) .. موسى فى القرآن هو كليم الله ، " وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا " (النساء ١٦٤) .. " وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ " (البقرة ٥٣) .. " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا " (مريم ٥١) .. داود عليه السلام وقره القرآن وبجله ، وقال فيه: " وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ " (ص ١٧) .. " وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا " (الإسراء ٥٥) •

يجتزئ الافتراء والمفترون على الإسلام نتفاً وشذرات يخرجونها من سياقها ليتهموا الإسلام كذباً بالعنف والعدوان والإرهاب .. مع أن القرآن المجيد يقول فى صراحة ووضوح وجلاء : " وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ " . (المائدة /٢) ..

يعلم المسلم من قرآنه المجيد أن السيد المسيح جاء بالمحبة والسلام ولم يجئ بالعدوان .. لذلك لا يتوقف المسلم أمام نتف أو شذرات يجتزئها من الأناجيل لينسب العنف للمسيح أو المسيحية على خلاف الحقيقة الواضحة التى تنضح بها رسالة عيسى

عليه السلام .. فى الإصحاح العاشر (٣٤) من إنجيل متى : " لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض . ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً " .. وفى الإصحاح الثالث عشر (٤٩–٥٢) من إنجيل لوقا : " جئت لألقى ناراً على الأرض . فماذا أريد لو اضطرمت ولى صبغة أصطبغها وكيف أنحصر حتى تكمل . أتظنون أنى جئت لأعطى سلاماً على الأرض . كلا أقول لكم . بل انقساماً " .

لم يحدث أن انتزع مسلم هذه العبارات أو تلك ليفصلها عن السياق العام وروح ومهجة المسيحية ليفترى عليها أو يتهمها اتهاماً طائشاً لا ظل له من الحقيقة أو الصواب .. لم يتحدث القرآن المجيد عن المسيح عيسى ابن مريم إلا بكل حب وتوقير وإجلال ..فيه يقول عز من قائل :"وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ " (المائدة ٤٦) .. " وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ "(البقرة ٢٥٣،٨٧) .. ولم يتحدث كتاب من كتب الأديان عن المسيح بمثل الحديث البليغ الرائع الذى ورد فى القرآن المجيد :"إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ

الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ " (آل عمران ٤٥ ، ٤٦)

إن استقراء الأديان واستلهام رسالتها وعناصرها مهمة كبرى محكومة ويجب أن تكون محكومة بالاحترام والموضوعية والوقار ، وبحسن المقاصد والغايات .. بيد أن هناك من أسف من يتجرأ ويفترى كذباً ويستيسر التجنى على الإسلام ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ، ولا يلتفت فيما يفتريه ويتجناه إلى جوهر وروح وعناصر ومعالم الإسلام ـــ الدين العالمى ، الذى عم المعمورة حاملاً للناس كافة رسالة الهداية والإسماح والمحبة والسلام .

التهجم البذىء الضال على الإسلام ورسول الإسلام - والمسلمين ، مرض قديم .. صُنفت فيه المؤلفات والكتب ، وساهم فيه فلاسفة وأباطرة ، وزاد شناعة مع اتساع الأطماع فى أرض وخيرات المسلمين .. تدبج فيه المقالات ، وتبث له المواقع على شبكات الإنترنت .. تفترى كذبا على الإسلام ورسوله ، تتهمهما بالعنف والتعطش للدماء ، وتتجنى عليهما بأنكر الاتهامات ، بينما سماحة الإسلام تكف المسلمين عن الرد بالمثل .. نعم ، قاوموا ويقاومون الصهيونية ، ولكن كمذهب سياسى عنصرى

عدوانى ، مثلما دفعوا الموجات الصليبية كعدوان يتشح بالصليب والصليب منها براء ، ولكن المسلمين لم يتورطوا قط فى الرد بالمثل على هذه البذاءات المتجنية التى تمس دينهم ورسولهم وعقيدتهم .. احترموا ولا يزالون الشريعة الموسوية ، مثلما احترموا ولا يزالون ديانة المسيح عليه السلام .. هذه " السماحة " الإسلامية ليست غفلة ولا ضعفا ، وإنما هى خلق وسماحة الإسلام وعرفان المسلمين بدينهم الذى احترم الرسالات والنبوات السابقة ، والأنبياء والرسل الذين وقرهم قرآنهم وحض على توقيرهم .. ويخطئ خطاب الآخرين حين يعزو تعفف الإسلام عن الرد بالمثل إلى الضعف أو الغفلة ، أو يبنى حساباته على أن هذه " السماحة" عجز لا حيلة فيه ، أو ضمان أبدى لا تحول عنه .. فى كل الديانات حركات غالية ، لم ينج من ذلك دين ، ماذا لو ضاقت الصدور ونفد الصبر وانفلت العيار.. إن دخول الغلاة أو الغاضبين إلى ساحة المقارعة قد يكون ثمنا فادحاً لشطحات المتغولين المتجنين على الإسلام والمسلمين .. يومئذ يفقد العالم ، وتفقد الإنسانية ، ما نجح الإسلام للآن فى الحفاظ عليه فى توفير الوقار والاحترام للحوار حول الأديان ، فهدم

الأديان - أيـــا كانت ! - هو هدم للسقوف الـتى حفظـت وتحفظ الإنسانية من شطحات وضلالات لا يســتطيع أحــد حسبان تداعياها حين تدهس الأديان فى حوار طـائش يمـس الناس ـــ عموم الناس ـــ فى أدياهم ومعتقداهم .. يومها لـن يكون على الدنيا سلام !!!

عاش الإسلام معطرا بباقة ما تحلى بـه مـن سـجايا وخصال وشمائل ، موصولا بالناس - كل الناس ، المسلم وغير المسلم ، بسماحته التى صاحبت رسالته منذ نزلت ولـلآن - ومن اللافت أن سماحة الإسلام لم تتوار حتى فى فترات الهبوط والانحدار أو استبداد وبطش بعض الملوك والحكام والأمـراء والولاة .. وهذه حجة مضاعفة لسماحة الإسلام التى لم تستطع صور البطش التى سقطت فيها بعض فترات الحكـم فى هـذا القطر أو ذاك ، دون حضور سماحة وإسماح الإسـلام ، وإلى هذا الحضور سر الحضارة الإسلامية التى مضت متسامقة رغـم كل شيء ، تتسع بقيم ومبادىء وسماحة الإسلام للمسلم وغير المسلم ، وتفسح لكل قادر أيا كانت ملته أو ديانتـه ليصـب عطاءه فى نهر هذه الحضارة التى ظلت دافقة متدفقة لعدة قرون.

انطبع فى نسيج المسلمين ، ما تــوالى فى ســـنة رســـول القرآن ، قولية أو فعلية أو تقريرية ، وما اقتدى به خلفــاؤه الراشدون وصحابته الأبرار من صور الإسماح ... لم يفلح طغيان قريش فى إخراج النبى عليه السلام عن سماحته ، فكان يقابـــل أذاهم بدعائه الضارع إلى ربه : " اللهم اغفر لقومى فــإنهم لايعلمون . " .. يأبى على عمر بن الخطاب أن يمثل بسهيل بن عمرو أسير بدر لقاء ما سلف منه فى إيذاء الإسلام ورسوله .. يقول لعمر فى إسماح رائع : " لا ياعمر .. لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ." .. يطلق أبو عزه عمرو بن عبـــد الله الجمحى من أسر بدر بغير فداء ، رعاية لعياله الذين يعـــول برغم ما سبق منه من نكاية وأذى .. يمضى عليه الســـلام فى إسماحه حتى يقبل فداءً من فقراء أسرى بدر أن يعلم الواحد منهم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة .. لم يثنه حزنه الشديد على عمه حمزة أن يوصى فيقول : "إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور" ، ولم ينسه ألمه الهائل على التمثيل بجثة حمزه فى أحد ـ ما تطبع به خلقه وتعطر به الإسلام من عفو وإسماح .. ينتظر الناس يوم فتح مكة أن يبحث ويثأر من " وحشى " الحبشى قاتل حمزة الممثل به ، بيد أنه عليه السلام يصفح عن

الجميع فى عفو وإسماح .. يقول لهم " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .. يجيئه وحشى بالمدينة "مستجيرا " ، فلا يزيد عن أن يقول له : " قد كنت أحب أن أراك على غير جوار ، فأما إذا كنت مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله تعالى " .. ولا يزال عليه السلام يمهله ثم يمهله حتى يهتدى قلبه إلى الإسلام دون أن يمسه سوء .. ولا يزال عليه السلام يدعو المسلمين إلى التسامح الكريم ويقول لهم : " من سَرَّه أن ترفع له الدرجات (عند ربه) فليعف عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه .. "

حمل عليه السلام إلى الناس شريعة فارقة بين الظلام والنور، وبين الضلال والهداية ، وبين التعصب والسماحة .. لم تكن للأسير قبل الإسلام حقوق .. جميع الأسارى والسبايا كانوا يقتلون أو يستعبدون ، فإذا بالإسلام يأتى فى قرآنه المجيد فيوقف استرقاق الأسرى ، ويخير بين المن وبين الفداء ، ويجعل المن سابقا على الفداء ،فيقول عز من قائل :فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا " (محمد /٤) .. يضيف الأسير إلى من تجب لهم الصدقة والرحمة والإطعام ، فيقول عز وجل فى صفات المؤمنين

الصالحين : " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا " (الإنسان /٨) ..

يعتنق الإسلام ، ويعرف المسلمون من قرآهم المجيد ، أن الناس قد خلقوا مختلفين فى عقولهم وقدراتهم ، وفى فهمهم وعقائدهم .. هذه السنة الكونية تحدث عنها القرآن الحكيم فقال : " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ." (هود ١١٨) .. لا يقابل الإسلام هذا الاختلاف بالازدراء أو بالعداء ، وإنما يمد له الهداية والإسماح .. لا يجبر الإسلام أحداً على اعتناقه ، وليس صحيحا أن الجزية للإكراه على الدين أو مقابل لعدم الإسلام ، وإنما هى ضريبة لا تحميل فيها .. فغير المسلم يتمتع بكافة مرافق ومنافع وحماية دار الإسلام التى يتمتع بها المسلم ، ولا يؤدى الزكاة التى يؤديها المسلم ، لأنها تعبدية فكان من سماحة الإسلام وعدل وسلامة منطقه أن لا يلزم بها غير المسلم .. الجزية إذن ضريبة يؤديها غير المسلم الذى لا تفرض عليه الزكاة لأنها فريضة تعبدية ، ومن ثم كانت الجزية مساهمة اجتماعية فيما يعود على مؤديها من حماية ونفع من العدل أن يتساند المجتمع كله - المسلم وغير المسلم - فى الوفاء بمستلزماته ، ومع ذلك فإن الجزية

ـ على عكس الزكاة ـ ترد إلى دافعها إذا حال عائق يحـول دون الدفاع عنه ، وتسقط عن المرضى والضعفاء والمسـاكين وغـير القادرين .. الذمى مصون فى ماله ودمـه ، محفـوظ فى عرضـه وشرفه ، متاح له نصيبه من بيت المال ومـن الوظـائف العامـة والخاصة .. " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ " (المائدة /٥) .. فى عهد الـنبى عليه السلام لأهل نجـران : " ولنجران وحاشيتها جـوار الله وذمة محمد النبى رسول الله .. ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخـر . " .. الذميون فى الحديث : " لهم مالنا وعلـيهم مـا علينـا ." .. أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم .. ينتصـر لهـم رسول القرآن فينهى عن أذاهم أو ظلمهم أو التعرض لهم .. يقول للمسلمين : " من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنـت خصـمه خصمته يوم القيامة . ".. ويقول : " ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئا بغير طيـب نفسـه فأنـا حجيجه يوم القيامة . ".. غير المسلم على دينه ، لا يلويه أحد ولا يجبره على ترك دينه .. فى كتاب النبى عليه السـلام إلى عاملـه باليمن : " من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتن عنها .. "لا يبيح القتال إن أبيح وقامت ضرورته ما استباحته الشرائع الأخرى

من قتل وحرق وتدمير وسبي واسترقاق .. بل ويحرص الإســلام على صيانة حقوق المتعبدين وما يدينون ويؤمنون به .. فى وصــية أبي بكر لأسامة بن زيد : " لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلــوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمـــرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلاّ للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . " .. وفى خلافة الصديق عاهــد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصراً ، وعلى ألاّ يمنعوا من ضرب نواقيسهم أو إخراج الصلبان فى عيدهم ، وعلى أن يعفى من الجزية (الضريبة) من أصابته آفة أو افتقر ، بل ويعال هو وأولاده من بيت المال مـا أقـام بـدار الإسلام.

لم تكن الصورة الرائعة التى قدمها الصحابة والتـابعون ومن تلاهم – حتى فى فترات الانحـدار ، إلاّ صـدى وفهمـا مطبوعاً فى نسيجهم عن روح ومهجة وسماحة الإسلام – لا ينظر أحدهم خلفه مستحضرا صفحات السيرة ، إلاّ طالعته مواقـف رائعة موحية ، تضيف إلى شجرة التسامح الباسـقة ، حبـات

للعقد الفريد الذى اكتملت به منظومة الإسلام التى ضربت للبشرية أعظم وأحكم المبادئ والأمثال لحقوق الإنسان حيث كان .

منذ عهد الراشدين ، عاملوا الصابئة عبدة الكواكب فى شمال العراق معاملة أهل الكتاب ، واتسعت سماحتهم حتى للمجوس عبدة النار الذين ظلت معابدهم تملأ أراضى الإسلام لقرون فى بغداد وفارس وكرمان وسجستان وخراسان وأذربيجان ، مثلما إتسعت سماحتهم لأهل الكتاب ..عاش أهل تلك العقائد والأديان، على تنوعها واختلافها ، مستقرين آمنين فى دوحة الإسلام .. هذا الأمان طمأنهم إلى حاضرهم وغدهم ، فأقبلوا طائعين مختارين على تعاطى الحضارة الإسلامية ودراسة لغتها ثم الإسهام فيها .. فى جميع العهود الإسلامية ، قديمها ووسيطها وحديثها ، ظلت شجرة التسامح الباسقة جاذبة لهؤلاء جميعا فضرب كل منهم بسهم فى هذه الحضارة ، ومنهم من بزغ نجماً لامعاً فى سمائها ! .

لم تميز الحضارة الإسلامية بروح إسماحها ، بين المسلم وغير المسلم ، نعم فيها اليهود بكل الحقوق والمزايا ـــ رغم ميلهم إلى العزلة وحرصهم بفكرة " الجيتو " على التمايز وعدم الانخراط

فى النسيج العام .. لم يتح لليهود فى حضارة من الحضارات ما أتيح لهم فى واحة الحضارة الإسلامية .. وهيأ الإسماح الإسلامى أن يبزغ منهم نجوم .. منهم تمثيلا لا حصرا ، موسى بن ميمون الطبيب الأندلسى الشهير ، وإسحق بن سليمان الإسرائيلى المولود بمصر ٨٥٠ م ، حيث تنقل بينها وبين القيروان ونبغ فى الطب والفلسفة والحساب والهندسة وتأليف اللحون وعلم النجوم ، وصار من أعلام من نبغ من اليهود فى الفلسفة فى بلاد المغرب ، ومعاصره إسحق بن عمران الطبيب اليهودى الذى بدأ ببغداد ونبغ وذاع صيته فى المغرب العربى وصنف الكتب والمؤلفات ، من هؤلاء اليهود هبة الله بن جميع ، الطبيب المصرى اليهودى المتوفى ١١٩٨م الذى كان طبيبا للناصر صلاح الدين الأيوبى .. استوزر الخلفاء منهم ، فاستناب الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٩٧٥ ــ ٩٩٦م) .. استناب فى الشام رجلا يهوديا يدعى منشّا بن إبراهيم . صحيح أنه مال وجنح وظلم وأثار السخط ــ ومع ذلك تبقى دلالة استخدامه آية على إسماح الإسلام وإتساع دوحته لجميع أهل الأديان .. فتحت الأندلس الإسلامية مصاريعها لليهود على مدى ثمانية قرون .. احتموا فى ظلها من اضطهاد الغرب .. وهاهو " حسداى بن شبروط " يصير

وزيرا (٣٣٤هـ/٩١٦م) لعبد الرحمن الناصر الأمير الأديب الأموى وأبرز حكام الأندلس .. لم يُصادَر على هذا الوزير اليهودى ، ولا ضيَّق عليه أحد ، فانطلق يبعث حركة للدراسات التلمودية ، مضت نشيطة متخففة حتى صارت الأندلس برضاء الحكم الإسلامى مركزا للدراسات العبرية .. حين أزيح المسلمون من الأندلس بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) وانطلق الإسبان يعيثون فى اليهود إيذاء وإضطهاداً بعد غياب شمس الإسلام عن البلاد ، لم يجد اليهود فرارا من طغيان واضطهاد الملك فيليب الثالث لهم ، إلاّ النزوح إلى ديار الإسلام فعبروا مضيق جبل طارق هاربين لائذين بتسامح الإسلام والمسلمين فى المغرب العربى .. إلى هذه النزوح يعود العدد الكبير نسبيا الذى لليهود فى المغرب العربى حتى الآن .. فيها واصلوا العيش دهورا فى دوحة التسامح الإسلامى ، فاغتنوا وأثروا وشكلوا جالية كبيرة لا تزال آية على إسماح الإسلام .

سماحة الإسلام مع النصارى وأتباع السيد المسيح ، سماحة لازمت نزول الذكر الحكيم .. " لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ

قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ " (المائدة /٨٢،٨٣) .. هؤلاء أوصى رسول القرآن هم خيرا فقال لأصحابه: " إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما ." .. فى كتاب النبى عليه السلام إلى عامله باليمن ألا يفتتن نصرانى عن ملته .. عاش هذا كله فى نسيج وحنايا المسلمين حتى شاهد العالم صورة للتسامح الإسلامى فى معاملة النصارى تجل عن أى وصف .. ها هو عمر بن الخطاب يتحرج من الصلاة فى كنيسة القيامة مخافة أن يطمح المسلمون فى اتخاذها مسجدا .. ويوصى المسلمين من بعد ، ألا يصلوا على " الدرجة " التى صلى عليها إلاّ واحداً واحداً غير مؤذنين للصلاة وغير مجتمعين .. يكتب لصفرونيوس حين تصالحا على بيت المقدس كل ما طلبه من أمان وضمان لعدم مساكنة اليهود لهم مخافة الإيذاء الشديد الذى يلاحقوهم به .. يتراجع عمر بن الخطاب على صرامته عما كان قد شرع فيه من نهى عن استقبال النصارى له بالشام باللعب بالسيوف والريحان أمامه كما تعودوا فى احتفالاتهم بالعظماء .. ما يكاد أبو عبيدة بن الجراح يلفت نظره إلى أن هذه عادتهم

وأهم قد يعدون ذلك النهى نقضا للعهد الذى أعطاه لهـم ـــ حـتى يرجع عمر عما شرع فيه من نهى ، ويقـول فى سماحـة ومـودة : "دعوهم ..عمر وآل عمر فى طاعة مارآه أبوعبيدة " .. وهـذا هـو عمرو بن العاص ، يدخل مصر فيعطى أقباطها الأمان على كنائسـهم وصلباهم ولايمد يده قط إلى شيء من أملاك الكنائس ولا يتدخل فى شأن من شئونها .

القضاء عنوان العدل ، والعدل فى الإسلام لا يقتصر على ما بين المسلمين ، . لا تحجبه عداوة ، ولا ينحيـه " شـنآن " : " وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْـدِلُواْ هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْوَى " (المائدة /٨) .. هذا السواء هو الـذى ظـل يحكـم القضاء فى الإسلام شكلاً وروحاً وموضوعاً .. يذهب على بن أبى طالب مخاصما يهوديا من عامة الناس إلى عمر ، فلا يغضبه أن عمر أجلسه قبالته ، وإنما يكره أن يناديه عمر بكنيته والنداء بها تكـريم ــ بينما ينادى اليهودى باسمه .. هذا السواء هو الـذى رد بـه القاضى أبو دؤاد جموح إبراهيم المهدى ابـن الخليفـة المهـدى وعم الخليفة المأمون عندما تنازع أمامه هو وبختيشـوع الطبيـب

النصرانى ، فلا يغضب إبراهيم المهدى وإنما يندم ويعتذر للقاضـــى عن زلته ! .

أين هذا العدل الإسلامى من الشرائع والأنظمة الأخـــرى .. المسلم مأمور فى القرآن بأن يمضى العدل ولو على نفسه وأقـــرب أقربائه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ . " (النساء ١٣٥) ـــ هذا العدل والتسامح الإسلامى الذى امتـــدت مظلتـــه إلى أهـــل الكتاب والأجانب أو أهل الذمة ، لفت نظر الأجانـــب الـــذين لم يلمسوا شيئا كهذا فى الشرائع والنظم الأخرى .. فدبجوا فى ذلك الكتب والمؤلفات .

ليس فى مقصود هذه الكلمات حصر مواقـــف التســـامح الإسلامى ، ولا تعقب صوره فى مراحل التاريخ الذى قامت فيـــه دول ودالت دول .. هذه الدول قد تلمـــح فى تطبيقاتهـــا نـــزرا لايتفق ظاهره أو باطنه مع التسامح الإســـلامى ، ولـــو تعقبتـــه لوجدت له تفسيراً أو علة اقتضت موقفاً أو تصرفاً عارضاً لأسباب محكومة بواقعتها ، أما غير ذلك فليس من الإسلام ولا يحسب على الإسلام .. الإسلام قيمته فيه وفيما يدعو إليه ويحـــض عليـــه ..

يصيب من يلتزمه ، ويعتل ويخطئ من يخرج فى التطبيق عنـــه .. إن سماحة الإسلام التى لاتخطئها عين لمن يتعقب صـــورة فى مراحـــل التاريخ تعاقبت فيها دول ، وبادت دول ، سماحة صـــدرت عـــن الإسلام وخلق وشريعة ومهجة وتعاليم وروح الإسلام .. إليـــك الأندلس الإسلامية .. صورة ناطقة باقية على السماحة الإسلامية التى عم عبقها فلم يتوقف فقط على ما هيأه لرعايا الأندلس مـــن اليهود والمسيحيين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخـــرى مـــن إخاء ومساواة ، وإنما أسلسلت هذه الســـماحة بمـــا إفرزتـــه الى أنفراج الباب الذى تسربت منه الحضارة الإسلامية إلى أوربا وإليها الفضل فى النهضة الأدبية فى العصر الوسيط ..

سبق الإسلام إلى إسبانيا ، صفحات سوداء مـــن العســـف والطغيان والإذلال والاضطهاد على أيدى القوط الـــذي طـــردوا الوندال والروم ، وتعقبوا اليهود بالاضطهاد على مدار أكثر مـــن مائتى عام .. مع دخول الإسلام للأندلس رحل الإضطهاد وعمت شرعة الإسماح ، تمتد مظلته للمسلم وغير المسلم ، وتساوى بين الجميع فى صيانة وحفظ الملك والمـــال والعـــرض ، وفى ولايـــة الوظائف ، وفى تحمل الأعباء العامة ، وفى المســـاواة فى الحقـــوق

والواجبات ، وأمام القضاء .. لم تكن هذه المعالم قصراً على الأندلس ، وإنما هى صورة الإسلام حيث كان .. عمت جميع البلدان والأقطار التى دخلها الإسلام .. فى الأندلس صار حال اليهود غير الحال الذى كانوا عليه فى عهد القوط .. رفع الإسلام عن كواهلهم هذا الاضطهاد المقيت ، وشملهم بسماحته ، وعادت لهم حرية التجارة التى كانت قد حظرت عليهم ، وحرية الامتلاك التى كانوا قد حرموا منها ، فانطلقوا يشمون أريج الحرية وينعمون بإسماح لا عهد لهم به ، وينخرطون فى واحة الحضارة الإسلامية يساهمون مع المسلمين ومع المسيحيين فيها ، حتى نبغ من هؤلاء وأولاء نجوم وأعلام تزهو بهم الحضارة الإنسانية .

فى الأندلس ، كفل المسلمون للمسيحيين واليهود حريتهم الدينية ، لم يجبر أحد على ترك دينه ، أو يُقسر على اعتناق الإسلام .. وكما صان المسلمون فى الأقطار الأخرى المعابد والأديرة والكنائس ، حتى معابد المجوس عبدة النار فى شمال العراق وفارس .. صانوا وحفظوا المعابد والأديرة والكنائس فى الأندلس ، واحترموا الشعائر والأحبار والقسيسين والرهبان ، وأفسحوا للجميع فى مناصب الدولة ، حتى لترى "قومس بن أنتنيان "واليا للحاكم محمد عبد الرحمن

الأموى (٢٣٨ـ٢٧٣هـ) فى جمع الضرائب من أهل الذمة وكاتبا يشارك فى إدارة شئون الدولة .. لم تكتف السماحة الإسلامية فى الأندلس ببسط الفرص الكاملة الواسعة لأداء شعائر الأديان الأخرى ، وإنما أعفوا المسيحيين من العمل أيام الآحاد ليقوموا بصلواقم فى كنائسهم .. إلى هذه البحبوحة السمحة التى نعم بها الجميع ، إقبال كثيرين بكامل طواعيتهم وحريتهم على اعتناق الإسلام ، وإقدام الكل ـــ من أسلم ومن لم يسلم ـــ على المساهمة فى صنع الحضارة الإسلامية ، وفى بعث حركة كبرى للترجمة من العربية إلى الإسبانية لعلوم وفكر العرب ، وامتدت إلى ترجمة القرآن الكريم ، وتعددت المدارس فى المدن الأندلسية التى تسهم فى هذه النهضة وفى حركة الترجمة الكبرى .

هذه الصور الرائعة ، التى عمت الأندلس ، وعمت الأقطار الأخرى التى دخلها الإسلام ، بهرت وجذبت عديدين من الأجانب .. صنفوا فى ذلك الكتب ودبجوا البحوث والمقالات .. تجد جانباً كبيراً من الإشارة إليها فى كتاب " سماحة الإسلام " للعالم الجليل الدكتور أحمد شلبى ، وغيره ، وتعرف من خلال هذه المصنفات على أسماء ومؤلفات مخلصين احترموا الإسلام وسماحة

الإسلام من واقع ما درسوه .. سوف ترى فى مؤلفات لكثيرين كتبوا عن الحريات العامة وحقوق الإنسان فى الإسلام ، إشارة لأسماء ومؤلفات السير/ أرنولد توماس الذى كتب بحثا رائعا عن انتشار العقيدة الإسلامية ترجمه إلى العربية الأساتذة الدكتور حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى . سترى استشهادات بكتاب " الإسلام " للكونت هنرى دى كاسترى ، وأهل الذمة فى الإسلام " لمؤلفه " تريتون " ، ومؤلفات للأساتذة "جروهمان " و " ميتز " صاحب مؤلف " الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى" ـ ذكرنا هنا بعض هؤلاء لأن شهادهم بما انفعلوا به وكتبوا عنه تأتى ممن لا شبهة أو ميل فى شهادتهم لأنهم لا يدينون بديانة الإسلام التى يدين بها عشرات من أساتذة المسلمين الذين كتبوا وأجادوا فى هذا المضمار.

هذه الشجرة الباسقة للتسامح الإسلامى ظلت فروعها ممتدة إلى العصر الحديث .. اتخاذ صلاح الدين طبيبا مصريا يهودياً له ـ هو هبة الله بن جميع ، من مئات السنين ، له أمثلة حية فى عصرنا الحاضر .. موسى قطاوى باشا ، اليهودى المصرى ، وُلّى وزارة المالية المصرية فى القرن الماضى ، ووُلّى نوبار باشا الأرمنى

الأصل ــ (١٨٢٥ ــ ١٨٩٩) رئاسة الوزارة المصرية ، ومكرم عبيد كان شعلة حية للعطاء بلا فوارق دينية سواء فى مرحلته مع الوفد المصرى ، أم بعد خروجه وتأليفه حزب الكتلة الوفدية .

المزارات المسيحية فى مصر الإسلامية ، مزارات للمسلمين أيضاً .. مزارات سانت كاترين ، والقديس مار جرجس ، والقديسة دميانة بالدقهلية ، وسانت تريز بشبرا ، ودير المحرق بأسيوط وغيرها ، مزارات يوقرها ويزورها ويتبرك بها المسلمون .. هذه الصورة الرائعة للتآخى بين الأديان ، محال أن تراها فى غير الإسلام .. الغرب الذى يتغنى بالحرية والإخاء ، محال أن يتخذ أحد منه مزاراً إسلاميا يتبرك فيه رعاياه .. لم يحدث ، ولا أظنه يحدث ، أن يتسمى أبناء اليهودية أو المسيحية باسم محمد عليه السلام ، أو باسم من الأسماء الإسلامية التى ارتبطت بالصحابة والتابعين وأعلام الإسلام ، بينما أقبل المسلمون بسماحة الإسلام ، على تسمية أولادهم بأسماء أنبياء الأديان والرسالات الأخرى لا يستثنون من ذلك أنبياء بنى إسرائيل .. فى البلدان الإسلامية ترى فى المسلمين أسماء نوح وموسى ويعقوب وعيسى وداود وسليمان ويوسف واسحق وهود ويونس وهارون وعمران ومريم وشعيب

.. يكثر المسلمون من تسمية أولادهم بهذه الأسماء ، ولا يجدون فى ذلك غضاضة ، بل ولا يلتفتون إلى ذلك لأنه صار جزءاً من نسيجهم طبعوا عليه من سماحة الإسلام وتوقيره وإجلاله لكل الأنبياء ولجميع الأديان والرسالات .

تناولنا فى فصل سابق : " المساواة فى الإسلام " .. كملمح رئيسى من ملامح عالمية الإسلام .. زاد هذا الملمح ثراء وعطاء تعانق " السماحة " الإسلامية معه .. للمساواة فى الإسلام ملمح خاص فحواه أنها لم تتوقف عند المعانى والمقاصد التى تتوقف عندها دساتير اليوم ، وإنما جاوزتها إلى مساحة انسانية خاصة ، تجعل من هذه المساواة عطاء إيجابيا يمتد فى ظلها إلى مساندة وعون وجبر المريض والعاجز والضعيف ، لا تكتفى بأن تتخذ من الجميع موقف سواء ، وإنما شرطت لهذا السواء أن يكون قوة إيجابية فاعلة لجبر ومساندة الضعفاء ليلتئموا فى دوحة الإسلام فى ظل أخوة وتكافل ومساواة وتحاب وسلام ..

عظمة التئام التسامح مع المساواة فى الإسلام ، أن السماحة الإسلامية لم تستبعد أحداً من ظل هذه الدوحة لدينه أو جنسه او عرقه أو لونه .. مساندة وعون وجبر المرضى والعجزة والضعفاء

والكفكفة عنهم تحقيقا للفلسفة الإسلامية فى المساواة ، تمتد بسماحة الإسلام إلى غير المسلمين .. لا تحجب السماحة الإسلامية هذا العطاء الإنسانى عن أحد أيا كانت ديانته وملته !.

هذا التعانق الفريد ، بين " المساواة " و " التسامح " فى الإسلام ، يشكل ملمحا ناصعا من ملامح عالمية هذا الدين .. لا يطلب الإنسان .. أى إنسان .. من دين لا يدين به ، أكثر من أن يحس فى كنفه بالمساواة مع الجميع .. قد خلق الناس مختلفين ، والاختلاف بين الأحياء سنة كونيّة .. تتسع الديانة للعالمين حين تراعى هذا ، فتفتح قلبها بالمساواة والتسامح ليحيا الجميع فى دوحتها فى مساواة لا تمييز ولا تعالى ولا اضطهاد فيها .. عبقرية الإسلام أن " الأمان " الذى تبنى دوحته ، يؤمه ويستظل به غير المسلم مع المسلم ، لا يصادر على أحد فى دينه أو ملته أو معتقده.

عاش الإسلام ، وسيعيش ، بهذه الباقة التى ضمت التسامح إلى جانب ما فيه من جميل السجايا والشمائل والأخلاق والخصال، ويخطىء من يظن أن التسامح تفريط أو يؤدى إلى تفريط .. تسامح الأديان والمتدينين معلم أساسى من معالم

الدعوات المفتوحة .. الدعوات المفتوحة دعوات جامعة تـــدعو وتشد وتجذب جـــذبا قوامـــه الحـــب والإعجـــاب والاقتنـــاع والارتياح.. لم يكن التسامح فى الإسلام محض دعوة توردها آيات القرآن المجيد أو ترددها السنة النبوية المطهرة أو تلهج بها ألسنة الصحابة والتابعين .. وإنما كان منهاجا عاما وشـــاملا آياتـــه وأمثلته فى التطبيق أعلى وأغزر بكثير من الـــدعوة إليـــه فى الأقوال أو النصوص المكتوبة أو الحكايات المروية .. ولم يحدث قط أن خسر الإسلام أو خسر المسلمون من هذا التســـامح . خذ مثلا تسامح رسول القرآن يوم فتح مكة مـــع طواغيـــت قريش الذين أذاقوا المسلمين صـــنوفا هائلـــة مـــن العـــذاب والإعنات .. يقول لهم النبى من موقف القدرة على الحســـاب على ما كان .. " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .. هل خسر الإسلام والمسلمون بهذا التسامح ؟ أم كان أساسا لمراجعة اجتاحـــت نفوس وعقول وألباب وضمائر ووجدان هؤلاء الطغاة الـــذين بثوا سالفاً عداءهم للإسلام.. هذه المراجعة كانـــت لصـــالح الإسلام ــ الدين العالمى الجاذب ، وليست ضـــده .. يومهـــا اهتدت قلوب هؤلاء وأفئدهم إلى نور الإسلام ، ــ ودخلوا فى دين الله أفواجا على الصورة التى يرويها القـــرآن المجيـــد فى

سورة النصر .. " إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا " . (النصر) ..

انظر تسامح الرسول عليه السلام يوم صلح الحديبية .. لم يتوقف فى الصلح عند أى شكلية ـ حتى ولو كانت مما يهتم به الناس ! .. قبل فى صبر وحلم وسماحة أن تشترط قريش فى العهد المكتوب أن يرد إليها من يأتيه من قريش بغير إذن وليه ، وألا تلتزم قريش بأن ترد إليه من يأتيها ناكلا مرتدا من المسلمين.. وأن يعود بالمسلمين فى عامه لا يدخل مكة ، ولا يأتيها إلا فى العام القابل .. يومها صعب الأمر على المسلمين ، وبالغ عمر بن الخطاب فى غضبه واعتراضه ، فما زاد النبى على أن قال له فى صبر وحلم " أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى . " لم يخسر الرسول عليه السلام ولا خسر المسلمون بهذا التسامح .. فما كان للمسلمين نفع ولا غاية فيمن يغادرهم ناكلا مرتدا .. فذلك لا خير فيه ولا رجاء منه .. ولا بأس على المسلمين إن تركوا لدى قريش ـ لحين ـ من آمن وأسلم منها .. فلعل بقاءه أن يكون سبيلا لدعوة الإسلام وانتشاره بين طواغيت وكفار قريش .. وقد

كان .. فما هى إلا فترة وجيزة ، حتى أثمر التسامح رطبه الجنيه وانتشر الإسلام ليس فقط بين القرشيين أو شبه الجزيرة العربية ، وإنما انطلق بهداه يعم الدنيا وينشر النور والضياء فى العالمين .

لم يكن التسامح فى الإسلام ، محض دعوة تقال لحض الناس على الإسماح والتراحم والتواضع والإنسانية ، ولم يتوقف قط عند مجرد كلمات يلقيها أو يدعو إليها المخلصون أويتشدق بها المتفاصحون لا تتجاوز حناجرهم ، وإنما قيمة التسامح الإسلامى أنه صار فى نسيج المسلم - تندح به شخصيته وسلوكه ..يغمر حياته ويفيض فيضاً حقيقياً على كل من حوله .. علم المسلمون الأسوياء أن الإسلام يكسب وهم يكسبون بهذه الباقة الفواحة من منظومة الأخلاق الإنسانية .. وعلم هؤلاء ويعلمون أن الإسلام لا يعرف العنف ولا يرتضيه ، ولا يقر الإيذاء أو يسكت عليه .. يتقدم الإسلام ويتقدم المسلمون حين تنطبع صفحات وعيهم ووجدانهم بسجايا الإسلام وشمائله ، بإنسانيته وإسماحه .. يجتذب إلى رحابه ، الآلاف تلو الآلاف ، حين يلمس المتلامسون مع المسلمين ما فى طبعهم وخلقهم وسلوكهم من

إنسانية فياضة وتسامح وارف جاذب وشمائل فواحة ســتظل تغمر العالمين إن شاء الله إلى يوم الدين .

الإسلام ، والعلاقات الدولية

لا يستغنى مجتمع من المجتمعات ، عـن تنظـيم علاقاتـه ـ واحتكاكاته أيضا ـ بالآخرين ، ولا تستغنى دولة من الدول ، بالغـة ما بلغت قوتها عن الاتصال بالدنيا ، وتنظيم ما ينشأ وتفرضه الظروف من علاقات وتعاملات ، وحروب أيضا !! .. مهما اجتهد النـاس ، أو اجتهدت الدول ، سيبقـى الصراع آفـة تجـر البشـرية ، أفـرادا وجماعات ، إلى اشتباكات ضيقة أو واسعة ، محدودة أو شاملة ، محكومة أو جامحة .. تحتاج الدول ، كما تحتاج المجتمعات ويحتاج الأفـراد ، إلى إدارة دفة علاقاتهم بالآخرين سلما أو حربا ..

دخل الإسلام منذ كان ، فى ساحة العلاقات الدولية ، بحزمة ما لديه من سجايا وخصال وشمائل ، وملامـح ومعـالم ، وقواعـد وأحكام ، طبعت سلوك الجماعة فى علاقاتها بالجماعات أو المجتمعات أو الدول الأخرى ، بما طبعت به سلوك وأخلاق الفرد الذى يحمل بذور وروح هذا الدين فيما يصدر عنه ، سواء كان فيه ممثلا لنفسه قائما بأمره ، أم كان نائبا عـن جماعـة .. مسلك الإنسان فـى دوائـره العامـة لا يمكن أن ينسلخ من مطبوعه الشخصى ، حتى وإن فرضت الاحتكاكات العامة ملابسات وظـروف واعتبـارات

تختلف كل أو بعض الاختلاف عما يدور فى العلاقات أو الاحتكاكات الخاصة .. هناك خيط مشترك ، قد يتسع هامشه يميناً أو يساراً تبعا لاختلاف طبيعة العلاقات العامة أو الدولية عن طبيعة علاقات الأشخاص .

الدول كشخصيات اعتبارية ، غير محكومة بما ينضبط ويُلزم به الأشخاص الطبيعيون ، ولا حتى الحكومات قبل محكوميها .. الدول مهما اجتهدت المجتمعات فى وضع وتأسيس المنظمات والمحاكم الدولية ، تبقى مالكة لمقاديرها متحكمة فيما تريد ، مادامت لا توجد قوة تستطيع أن تلزمها جبرا بما يجب أن تلتزم به ..

أيا كانت الاجتهادات ، فإن غيبة الجزاء الرادع فى المعاملات الدولية ، يجعل الوفاء بالعهود والمواثيق ، عاملا حاضراً ومطلوبا يجب أن يحكم العلاقات الدولية مقرونا بخلوص النية فى التزامها .

ليس آية على عالمية الإسلام ، وقدرته على الامتداد فى الزمان والمكان بغير حد ، من أن ما حمله من نيف وأربعة عشر قرنا لا يزال صالحا كأساس يبنى عليه فى شأن العلاقات الدولية فى زماننا ــ لم تغمض عيون الإسلام

قط عن أن الناس خُلقوا مختلفين ، وأن هذا الاختلاف يجرى بين الأفراد فى عقولهم وقدراتهم وملكاتهم وفهمهم وعقائدهم ومذاهبهم ، ويجرى بالضرورة — والتبعية — بين الجماعات أو المجتمعات ، صغرت أم كبرت .. فى القرآن المجيد بيان لهذه السنة الكونية : "وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . " (هود ١١٨) — . هى إذن أمم لا أمة ، والاختلاف محتدم فى جميع الأحوال : "ولا يزالون مختلفين " .. عبقرية الدين العالمى أن يلتفت — وقد التفت الإسلام - إلى هذه الحقيقة الواقعة وما تقتضيه أو تفرضه من علاقات بين الجماعات أو الأمم يجب أن تعالج وأن توافى بما تستلزمه ..

زبدة القول ، أو قانون الأساس ، أو " المحز " فى علاقات ومعاملات الدول — أنها تقوم على العهود والمواثيق والوفاء بها مع خلوص النية فى التزامها .

فماذا فعل أو قدم الإسلام ؟

احترام العقود والمواثيق بعمومها ، فردية كانت أو جماعية ، خلق وواجب إسلامى .. عنيت منظومة الإسلام بأن تتناوله من شتى

نواحيه وغاياته . مبدأ عام فى الإسلام ما أوصى به القرآن المجيد : " وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً " (الإسراء ٣٤) .. الوفاء بالعهد خصلة من خصال الإيمان بالله .. فى صفات المؤمنين ، يقول عز من قائل : " وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ " (البقرة /١٧٧) .. العهد المتغيا هو كل عهد .. فى أى صورة من صوره ، وبأى شكل من أشكال إبدائه أو إثباته .. العهد الشفوى كالكتابى ، والعهد بصيغته العامة وبأى عبارة يقال، كالعقد الذى يبرم ويعقد بين أطراف.. فى القرآن الحكيم : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ " (المائدة /١) .. والوفاء بالأمانة وفاء واجب بالعهد من صفات المؤمن : " وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ " (المؤمنون ٨) .. يمتد هذا الوفاء المأمور به إلى وجوب أن تصادق الأفعال الأقوال .. مجرد القول واجب الاحترام والوفاء .. التقصير فى الوفاء به يوجب المقت فضلاً عما فيه من إثم : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ . " (الصف ٢ ، ٣) .. أخبر رسول القرآن فى حديث الإسراء والمعراج أنه سأل عن أناس رآهم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فأجابه جبريل عليه السلام بأنهم خطباء أمته الذين يقولون ولا يفعلون ! .

حق العهد والوفاء به مقدم فى الإسلام على حق الدين .. فى القرآن المجيد : " وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ " (الأنفال ٧٢) .. قدم القرآن بصريح وآمر لفظه ، احترام ورعاية الميثاق على نصرة من يستنصر المسلمين فى الدين .. وفى الحديث النبوى : " إن حسن العهد من الإيمان " .

دل الإسلام على أن الوفاء بالعهد هو خلق الأنبياء والرسل الصالحين : " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا . " (مريم ٥٤) .. الجنة هى ثواب الوفاء بالعهد : " وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . " (المؤمنون ٨ ــ ١١) .. أنظر كيف احترم النبى العهد الذى أعطاه لقريش فى صلح الحديبية ، حين أتاه أبوجندل مستغيثاً مستجيراً وقد أسلم ويريد مفارقة قريش واللحاق بالمسلمين ..كان الصلح قد أبرم للتو ..ونُص فيه على أنه " من أتى محمداً

من قريش بغير إذن وليه ردوه عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه إليه ." .. فور إبرام الصلح بين الفريقين ، إذ يتسامع الناس بصوت أبي جندل وهو ابن سهيل بن عمرو الذى ناب عن قريش فى عقد الصلح ، يرسف فى الحديد وقد انفلت إلى الرسول يستجير به من قريش ، فينقض عليه أبوه سهيل بن عمرو فيأخذ بخناقه ويوسعه ضربا .. استغاثة أبي جندل بالرسول وبالمسلمين تهز القلوب والأسماع ، فيخشى أبوه سهيل أن لا يفى النبى عليه السلام بعهده الذى عقده لتوه .. يقول له : " يامحمد ، قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك ولدى هذا " .. بينما يتصايح أبو جندل وهم يجرونه ليردوه إلى قريش مستغيثا بالرسول عليه السلام وبالمسلمين يقول : " يا معشر قريش ، أأرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ." .. انظر كيف كان وفاء النبى عليه السلام بالعهد الذى قطعه فى الصلح ، فيقول لأبي جندل مواسيا " يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم . "

ما كانت هناك عصبة أمم ، ولا جمعية عامة لأمم متحـــدة ، ولا مجلس أمن ، ولا محكمة عدل دولية حين أنفذ النبى عليه الســـلام ــ برغم حرج وشجون الموقف ــ شـــروط الصـــلح المعقـــود مـــع قريـــــش : ـ " عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم عهدا وإنا لانغدر بهم . "

هذا الوفاء النبوى باتفاق أشبه بالاتفاقات الدوليـــة هـــذه الأيام، ينطلق من خلقه وطبعه العـــام .. روى عبـــدالله بـــن أبى الحمساء فقال : " بايعت رسول الله صلى الله عليه وســـلم ببيـــع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية (من ثمن البيع) فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ، فنسيت . ثم ذكرت بعد ثلاث . فجئت فإذا هـــو فى مكانه " (لم يغادره وفاء بعهده فى الموعد المضروب) . ومع ذلك لا يغضب عليه السلام ولا يثور ، ولا يزيـــد عن أن يقـــول لأبى الحمساء معاتبا على إخلاله بعهده : " يا فتى لقد شققت علـــىّ . أنا هنـــا منـــذ ثلاث أنتظرك . " !

فى نقض اليهود للعهد الذى أبرم بينهم وبـــين الـــنبى عليـــه السلام ، أنزل الله عز وجل : " إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّـــذِينَ

كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْـدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُـــمْ لاَ يَتَّقُونَ . " (الأنفال ٥٦،٥٥) .

الإخلال بالعهد ، هو فى نظر الإسلام أشر أنــواع النفــاق .. عاهد ثعلبة ربه إذا أغناه من فضله ، أن يعطى لكل ذى حق حقه ، لا يغدر ، ولايخون ، ولا ينكث .. فلما بسط الله تعــالى لـــه فى الرزق، وزاده سبحانه مالاً وثروة ، حدثته نفسه بالسوء ، فنكل ونكث، وبخل بفضل الله على عباد الله ، فأنزل عز وجل فى شأنه: " وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّآ آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُــواْ بِـــهِ وَتَوَلَّــواْ وَّهُـــم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ "(التوبة ٧٥ــ ٧٧) .

ليس أشنع لدى أخلاق وأحكام الإسلام - من نقض العهود والمواثيق ، أيا كانت ، وليس أنكر من النكث بها .. فى خطـــاب عام يعرّض القرآن المجيد بنقض ونكث العهود فيقـــول : " وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـــانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّـــهُ بِـــهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَـــاء اللّـــهُ

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْـدِي مَـن يَشَـاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * " (النحل ٩٢ ، ٩٣) .

لا شيء يبرر – فى أحكام الإسلام – نقض العهود والمواثيق ، حتى خيانة من اتفق وعاهد وخان .. لايزين الإسلام للمسلمين ـــ بل يـأبى عليهم ـــ أن يتخذوا من خيانة المعاهد ذريعة للتردى فى مثلها ، وإنما لهم فقط أن يواجهوا خيانته بما يردها عليه ودون أن يتعدوا ذلـك إلى الجور والتنكيل .. فـى القرآن الحكـيم : "وَإِنْ عَـاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِريـن " . (النحل ١٢٦) .. وفى حديث رسـول القرآن: " من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يحلنّ عهـداً ، ولا يشدنه ، حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم علـى سواء " .

قد رأيت احترام النبى عليه السلام للعهد الـذى أعطـاه لمشركى قريش فى صلح الحديبية ، وكيف احترمه فى موقف هائل يحرك العواطف والأشجان ، فما تردد ولا نكل ولا نكث ، وإنما أنفذ العهد المقطوع بين الطرفين .. ومع ذلك غدر بعض مشركى قريش بصلح الحديبية ، ونقضوه وأخلوا به ، ورغم هذا لم يبطل النبى صلى الله عليه وسلم العهد المعقود مع سائر المشـركين.. لم

يقبل قرشيا مشركا أسلـــم وأتاه والعهد قـــائم ، فكـــان هـــذا الاحترام للعهد بين مجتمعين سابقة غير مسبوقة فى مجال العلاقات بين المجتمعات .. بعد رده عليه السلام لأبى جندل بن سهيل بـــن عمرو على نحو ما رأينا ، تمضى الأيام فتشهد على التزام كامـــل بهذا الميثاق .. أتاه عليه السلام أبو رافع من مكـــة ، موفــــداً إليـــه من قريش ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم واســـتمع إليه ، تغشاه نور الإسلام ، فآمن وأسلم - وأراد أن يبقى بالمدينة مع من هوى إليهم قلبه ووجدانه وعقله ، وقال متوسلاً للبقاء : " يا رسول الله لا أرجع إليهم" ! .. أبى عليه النبى عليه السلام - ما رجـــاه وألـــح فى الرجـــاء ، وقال لـــــه: " إنــــــى لا أخيس (لا أغدر ولا أنكث) بالعهد ، ولا أحبس البرد (جمـــع بريد : حامل الرسائل) . ولكن ارجع إليهم ، فإن كان فى قلبـــك الذى فيه الآن فارجع " .

بل روى فى الوفاء بالعهد ، فيما يقول العقاد ، ماهو أكثر من ذلك ، لأنه عهد بين آحاد فى مثل حالة الإكراه ، كما جاء فى حديث حذيفة بن اليمانى حيث قال : " ما منعنى أن أشهد بدراً إلاّ أننى خرجت أنا وأبى الحسيل فأخَذَنَا كفار قريش ، فقـــالوا :

إنكم تريدون محمداً . فقلنا : مانريده وما نريـد إلاّ يثـرب . فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننطلق إلى المدينة ولا نقاتـل معـه . فأتينا رسول الله فأخبرناه الخبر فقال : " انصرفا (عن بدر) .. نفى لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم . "

لم يحل شرك قريش دون الوفاء بالعهد المعطى لها ، وهـذا فرع على مبدأ عام ورد فى الذكر الحكيم .. يقول عز من قائـل : " إلاَّ الَّذينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَـيْئًا وَلَـمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُـدَّتِهِمْ إِنَّ اللّـهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " (التوبة ٤) .. يمضى الاتفاق أو العهد أو الميثاق ساريا إلى ميقاته وأجله ..

ما استقام المعاهد ، يجد صـدى استقامتـه فـى وفـاء مـن الإسلام والمسلميـن بالمثـل : " فَمَا اسْـتَقَامُواْ لَكُـمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " (التوبة ٧) .. فإن نكثوا وخانوا وغدروا واعتدوا ، حقت مواجهـة الغـدر والخيانـة — لابخيانه .. وغدر ، ولكن بما ينبغي أن يواجـه بـه الطغيـان والعدوان : " وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُـواْ فِـي دِينِكُمْ فَقَاتِلُـواْ أَئِمَّـةَ الْكُفْـرِ إِنَّهُـمْ لاَ أَيْمَـانَ لَهُـمْ لَعَلَّهُـمْ

يَنتَهُونَ " (التوبة ١٢) .. فى القرآن المجيد :" وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ * وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ * وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ " (الأنفال ٥٨ ــ ٦٢) .

إلى هذا الاحترام البالغ حد التقديس ، للاتفاقات والعهود والمواثيق ، وتقريره ورعايته لحقوق الإنسان حيث كان ، ترجع القواعد الإسلامية التى تحكم العلاقات الدولية ، فى السلم ، وفى الحرب – وهى قواعد تضمن سواء هذه العلاقات فى الحالين بما يعود على المجتمع العالمى بالخير والسلام .

فى السلم

لم يدخل الإسلام دائرة العلاقات الدولية شاهراً سيفه ، أو داعيا لقتال أو محبذاً له ، الجهاد المقرر فيه هو جهاد من أجل

السلام لأن غاية الإسلام بث المحبة والسلام ، فلم يكن الجهاد للبغى أو الظلم أو العدوان ، وإنما لمدافعة البغى والجور والظلم والطغيان وإزالة الصد المتجبر الطاغى عن سبيل الله . الجهاد قدر على صاحب الحق حين يجور عليه البغاة ويضيقون عليه الخناق ويتابعونه بالإيذاء والعدوان ، فلا يحقق السلام من لا يقدر على الحرب حين لا تكون هناك مندوحة عنها .

ولذلك فإن شريعة القرآن لم تضع السيف قط فى غير موضعه، ولم تستخدمه قط حيث يستغنى عنه بغيره ، وأحاطت القتال حين لا يكون هناك بد منه بسياج محكم من الضوابط والضمانات وحضت فى الوقت نفسه على قبول السلم إن جنح المعتدى إليه ، حتى وإن كان هناك شبهة مخادعة . فى القرآن المجيد : " وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ " (الأنفال ٦١ ، ٦٢) علاقة الإسلام بمن لا يبادر بعداء وإيذاء ، علاقة سلم وبر ومودة .. "لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ "

(الممتحنة /٨) .. والقتال مكروه فى الإسلام " كتب عليك القتال وهو كره لكم ".. الحرب لا تكون طلبا للنفوذ أو السلطان أو التوسع : " تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " (القصص ٨٣) .. ولاتكون للانتقام أو العدوان : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلآ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " (المائدة ٢) .. ولا للتخريب أو الإتلاف أو الإفساد : " وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ " (الأعراف ٥٦) .. الحرب على اختلاف أسبابها المبررة لها مكروهة لايسوغ للمسلم أن يتمناها وليس أوفق ولا أولى مطلباً من أن يكفيه الله تعالى شرها وشر القتال : " وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا " (الأحزاب ٢٥) .. يقول

رسول القرآن للمسلمين : "لا تتمنوا لقاء العدو ، فإذا لقيتموه فاثبتوا واذكروا الله كثيرا " .

عين الإسلام على السلام إن اضطر لمواجهة الطغيان والعدوان بالجهاد .. فى بيان ذلك مشفوعاً بأدلته جرى الحديث فى فصل الجهاد فى الإسلام من أجل السلام ، وفى فصل سماحة الإسلام .. لاتخطئ العين أن الإسلام فى حرصه على السلام وكراهته للحرب وسعيه لتخفيف ويلاتها - سن أول قواعد عرفتها البشرية لقانون الحرب . يكاد يجمع علماء القانون الدولى، على أن بدايات قانون الحرب وكل ما نما فيه من تضاعيف ، إنما ترتد إلى الإسلام الذى خالف الشرائع السائدة جميعاً فى اهتمامه بوضع ضوابط تحد من ويلات الحرب حين لاتكون هناك مندوحة عنها ، يحدوه إلى ذلك أنه لايقبل الحرب إلاّ وفى وعيه العودة إلى السلام والتأليف بين القلوب والناس فور الفراغ منها ومما ألزمه أو أجبره إجباراً على القبول بها دفعا للعدوان أو الصد عن سبيل الله .

تنبه الإسلام ، ونبه ، إلى أن " العهود " هى السبيل لإستقرار السلام ، وتفادى ويلات القتال .. ويستطيع المتابع

للسيرة النبوية منذ بداية تكون المجتمع الإسلامى فى المدينة ، أن يلحظ أن معظم اهتمام النبى عليه السلام كان بإرسال البعوث إلى القبائل المحيطة بالمدينة لتبادل التعاهد على المسالمة ، وظلت هذه سياسة مرعية فيما تلا ذلك من مكاتبة للملوك أو الأمراء أو زعماء القبائل الحاكمة . فور الوصول إلى المدينة تلازمت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار مع " معاهدة اليهود " بعهد عقده وادع فيه اليهود وأقرهم على دينهم وعبادتهم وأموالهم ووضع أسسا تسير عليها العلاقات بين الفريقين فى سلام وأمان .. فى هذا العهد ، ساوى بين اليهود والمسلمين فى وجوب النصرة : " ومن تبع المسلمين واليهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم " .. يتساوى الفريقان فى الإنفاق على ما قد يتعرضان له من حرب : "وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين " (ولم ينفذ اليهود أبداً هذا الشرط) .. ونص العهد على أن لليهود دينهم كالمسلمين ، لا يعرض أحد لهم فيه .. "وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين " .. وتكررت بالعهد نفس الصيغة لثمانى عشائر لليهود ـ " ولليهود دينهم : مواليهم وأنفسهم إلاّ من ظلم وأثم فإنه لا يملك إلاّ نفسه وأهل بيته . " ..

" وإن بينهم وبين المسلمين النصر على من حارب أهل المدينة "
(وخان اليهود هذا الشرط فتحالفوا سرا مع الأحزاب) !!

هذا العهد وثيقة دولية بكل المقاييس ، قريب منه العهد الذى أعطاه الرسول إلى أهل اليمن فى كتابه إلى عامله هناك :
"من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتتن عنها " .. وفى خلافة الصديق عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألاّ يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرا وعلى ألا يمنعوا من ضرب نواقيسهم أو إخراج صلبانهم فى عيدهم ، وعلى أن يعفى من الجزية (ضريبة الدفاع) من أصابته آفة أو افتقر ، بل ويعال هو وأولاده من بيت المال ما أقام بدار الإسلام . "

فى العقد الذى عقده الرسول مع نصارى نجران : " لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، على ماتحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، وليس عليه دنية ولا دم جاهلية ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم

آخر ، وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبى الأمى رسول الله أبدا ، حتى يأتى الله بأمره . "

إيثار المسالمة يغلب كل شكليات صياغة العهود والمواثيق ، فى صلح أو " معاهدة الحديبية " اعترض سهيل بن عمرو مندوب قريش على استهلال الوثيقة بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم ، فيأمر النبى عليه السلام أن يكتب بدلا منها " باسمك اللهم " .. ثم يعاود سهيل الاعتراض على تدوين أن محمدا " رسول الله " .. ويقول لو شهدت أنك برسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ".. فلا يغضب الرسول ، ولا يفض مشروع الصلح ، وإنما يقول للقائم بالكتابة فى صبر وحلم : " أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو ــ اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال (لا سل للسلاح) ولا إغلال (لا خيانة لنهب أو مغنم) ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده

دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ." ، وقد رأينا كيف احترم الرسول هذا العهد بين الفريقين وكتابته لم تجف بعد !

كان الإسلام فى شبه الجزيرة العربية محصورا بين دولتى الفرس والروم ، مهددا بنفوذهما وبالأخطار التى تتهدد طرق تجارة المسلمين إلى كل من اليمن جنوبا والشام شمالا .. لم يبادر الإسلام أيا من الدولتين ولا غيرهما فى اليمن ومصر والحبشة بعداء ، وإنما آثر أن يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يبث الرسل إلى هؤلاء وأولاء بالهداية والموادعة .. نظر المسلمون يوما فإذا بالرسول عليه السلام يخرج إليهم ليقول لهم : " إن الله قد بعثنى رحمة للناس كافة ، فلا تختلفوا علىّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم . " .. قال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يارسول الله ؟ .. قال : " دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثاً بعيدا فكره وجهه وتثاقل .. وكعادة هؤلاء الصحابة الأبرار أبدوا الرضى والقبول ، فبدأت رسل النبى عليه السلام بعد خيبر فى أرجح الروايات تترى إلى الدول والمجتمعات المحيطة ، بعث إلى

الغساسنة فى الشمال فاستقبل أميرهم الكتاب استقبالاً سيئاً ورد رداً قبيحاً هدد فيه بأن جيشه سيكون الرد على ماجاءه ، بينما كتب الرسول عهوداً لأهل أيلة فكانوا نصارى عليهم يوحنا بن رؤيه ، وأهل مَقْنا وأذْرح ، ووجه كتبا إلى الجنوب إلى ملوك حمير، فالتأمت إجاباتهم وإسلامهم مع من سبق أن أسلم منهم على يد معاذ بن جبل ، وعاهدهم الرسول على أن لا يفتتن أحد عن يهوديته أو نصرانيته ، ونجحت سفارة خالد بن الوليد إلى بنى الحارث كعب فى نجران فأسلموا وأوفدوا إلى الرسول فبعث إليهم بعمرو بن حزم بكتاب فيه معاهدة وبيان لتعاليم الإسلام . بينما رد " هوذة " أحد زعيمى بنى حنيفة فى اليمامة طالبا أن يكون له الأمر بعد الرسول حتى يسلم وإلاّ قصد إلى النبى وحاربه ، ومات هذا الأحمق بعد قليل فأسلمت اليمامة مع أميرها ثمامة ابن أثال .

وبكتابه عليه السلام إلى حاكمى عمان بالشرق ، خرج عمرو بن العاص بعد فتح مكة فاستجاب الحاكم وأخوه وأسلما فأقرهما الرسول على ولايتهما ، أما المنذر بن ساوى والى البحرين لفارس ، فقد رحب بكتاب النبى الذى حمله العلاء بن الحضرمى ، وأسلم مع أهل البحرين ، وكتب إلى الرسول أن

بأرضه مجوساً ويهوداً ، سائلاً ماذا يرى ؟ ـ فكتب إليه النبى عليه السلام بأن يظل كل على دينه مع أداء الجزية (ضريبة الدفاع عنهم) ، فلم يلو الإسلام أحدا على دينه مهما كان ، بما فى ذلك المجوس الذين أحاطهم فى تسامح عظيم بما أحاط به الصابئة وكافة الديانات تاركا الهداية والتصديق بالإسلام لمن يشاء !

ما اتبعه الإسلام من مكاتبة وتعاهد مع الإمارات أو المجتمعات أو القبائل المحيطة بشبه الجزيرة العربية ، إتبعه مع دولتى الفرس والروم ، ومع ملك الحبشة ، قد كان النجاشى صديقاً قديما للمسلمين ، له أياد مع من هاجر إليه ، وبينه وبين المسلمين مودة ورحمة .. فبعث إليه الرسول بكتاب رقيق ينوه فيه بعيسى ابن مريم روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم ونفخه كما خلق آدم ونفخه ، ويدعوه إلى الإسلام . وقد ذكر بعض المؤرخين أن النجاشى رد برسالة أعلن فيها إسلامه ، ولكنه خبر لادليل عليه فيما يبدى العالم الجليل الدكتور شوقى ضيف والذى لاحظ بحق أن الحبشة لاتزال على مسيحيتها ، ولو أسلم لكان لإسلامه أثر ملموس .

إلى هرقل ملك الروم ، بعث النبى بكتاب جاء فيه :ـ

" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ،أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (أو الأكارين يراد إثم الرعية) ." قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (٦٤ آل عمران) ـــ بمثل هذه الصيغة توالت كتب الرسول عليه السلام إلى كسرى ملك الفرس ، وإلى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، فغضب كسرى ومزق الكتاب ، بينما أكرم المقوقس وفادة المبعوث حاطب بن أبى بلتعة وبعث معه بهدية وجاريتين ورد جميل جاء فيه : " سلام ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد كرمت رسلك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة . "

ليس فى المقصود هنا ، دراسة ردود الأفعال ، ولا ماكــان من آثار ، ولاتعقــب مجريات الأحداث ، وإنما غاية المراد بيــان إقبال الإسلام من مهده على سن أصول فى المعاملات والمعاهدات والعلاقــات الدولية .

فروع شجرة العهود والمواثيــق الدوليــة بمســميات اليوم ، فروع باسقة عديدة فى تــاريخ الإســلام .. فى العهــد العمرى الذى أبرمه عمر بن الخطاب مع صــفرونيوس ببيــت المقدس ، أعطى عمر ميثاقاً لأهلها نص فيه على أنه : "أعطاهم أمانــا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها ، وبريئها ، وسائــر ملتهم ، أنه لاتُسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ولاُينقص منــها ولا مــن حيزها ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أمــوالهم ، ولا يكرهــون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن معهــم أحــد مــن اليهود ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فإنه آمن – وعلى من أحب أهل إيلياء أن يســير بنفســه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم إلى أن يبلغوا مأمنهم - ومــن كــان بهــا مــن أهل الأرض فمــن شــاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهــل

أيلياء ومن شاء سار مع الروم - ومن شاء رجع إلى أهله - وانه لا يوجد منهم شيء حتى يحصد حصادهم - وعلى ما فى هذه الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء - وذمة المؤمنين .. يشهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص - وعبد الرحمن بن عوف - ومعاوية بن أبى سفيان .

العهد الذى عقده عمرو بن العاص للقبط فى مصر ، لم يقرهم فقط على دينهم ، ولم يلتزم فقط بحماية كنائسهم وحرية عبادهم وشعائرهم — وإنما أقرهم على قضائهم ، فكان لهم قضاة من القبط يحكمون بينهم حسب شريعتهم . كما أنه كتب أمانا وبثه وأعلنه للبطريق بنيامين الذى كان مطارداً من الروم ثلاثة عشر عاما ، وكتب عمرو بهذا العهد والأمان إلى جميع أقاليم مصر قال فيه : " الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمنا مطمئنا ، ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته " .. فلما أمن البطريق بنيامين واطمأن وعاد ، استقبله عمرو بالحفاوة ، ورده إلى كرسيه ، وأمضى كافة شروط المعاهدة أو العهد فى حماية الكنائس وحرية العبادات حتى

أعطى البطريق بنيامين كامل الحرية فى الاشراف على الكنائس ورعاية أحوال الأقباط فى إطار هذه المعاهدة .

مركز الأجانب

ومركز الأجانب فى دار الإسلام ، صورة لافتة من صور العناية الباكرة بهذا الفرع الذى يتصل بأحكام القانون الدولى . وللعالم الجليل الأستاذ الدكتور حامد سلطان مؤلف ضاف فى أحكام القانون الدولى فى الشريعة الإسلامية يلاحظ فيه أولاً أن الإسلام دين وجنسية معاً ، وأن الأجانب فى المنظمة الإسلامية العالمية هم غير المسلمين الذين يقيمون فى دار هذه المنظمة إقامة دائمة أو مؤقتة على أساس عقد الذمة أو عقد الأمان ، وأن الشريعة الإسلامية أفردت لهم معاملة خاصة قفزت قفزات هائلة صعوداً بأوضاعهم وحقوقهم ومعاملتهم بعدما كانوا يعاملون به من معاملة عدائية ، على سبيل المثال نظر اليونانيون القدماء إلى الأجانب على أنهم " برابرة " أعداء أعدهم الطبيعة ليكونوا خدماً وعبيداً لهم ، فكان للشريعة الإسلامية ، أثر هائل فى تطور معاملة الأجانب والاعتراف لهم بمركز قانونى منظم عومل به " الذميون " و"المستأمنون" معاملة متميزة قوامها : العدالة ، والمعاملة بالمثل ، والوفاء

بالعهد ، والأخلاق ، ونصر الضعيف دون الالتفات إلى جنسه أو لونه أو دينه .

عدالة الإسلام مع الجميع ووفائه بالعهد سبق فيهما حديث مستفيض نحيل إليه ، أما المعاملة بالمثل ، فقوامها العدل ، وبوصلتها حديث الرسول : " عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به" .. ، يلتئم ذلك مع إضافة إسلامية الأصل والإطار ، وهى "الأخلاق " .. نلمح فى العالم اليوم تغولا هائلا على الأخلاق ، ومفارقة دامية لسننها فى معاملات الدول ، بيد أن الإسلام اعتنق أن العلاقات الدولية فى السلم أو فى الحرب ، يجب أن تسودها الفضيلة ، لأن أخلاق الإسلام وشمائله قانون عام شامل يحكم الحياة جميعا . تجد القرآن المجيد ، كلما أمر أو أذن بالجهاد ، قرنه بالتقوى . هذه التقوى التى قوامها الفضيلة هى التى دعت الرسول فور زوال غضبه على التمثيل بجثة عمه حمزة فى أحد ، لأن يقول للمسلمين محذرا : " إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور".. تلحظ أن هذه الأخلاق السامقة ، والفضيلة الوارفة ، تجاوزت "رخصة المعاملة بالمثل " إلى واحة " ادفع بالتى هى أحسن " .. ، نصر الضعفاء من الأجانب فى دار الإسلام ، فرع على أخلاق الإسلام

الذى دعته لأن يتخذها مبدأ وسبيلا حتى فى العلاقات والمعاملات الدولية وإزاء الأجانب .. مبادئ وأخلاق الإسلام لا تقر ظلم الضعفاء ولا البغى عليهم .. يقول الحكم العدل فى قرآنه المجيد : " وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ " (القصص/٥) .. الضعيف مرعى فى دوحة الإسلام دون نظر إلى جنسه أو لونه أو دينه أو ملته ــ فى القرآن الكريم : " لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ" (التوبة ٩١) .. الضعيف مستثنى من الحرج والتكليف، ومستبعد من العقاب والجزاء .."إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ " (النساء /٩٨) .. الضعيف مرعىّ فى جميع الأحوال مقدم فى رعايته على الجميع ، حتى قال نبى الرحمة عليه السلام : " الضعيف أمير الركب " .. هذه الرعاية الإسلامية الحانية للأجانب فى ديار الإسلام ، فرضت حمايتهم وإسقاط الجزية ــ وهى ضريبة الدفاع لقاء الزكاة التعبدية التى لا يؤديها غير المسلم ــ عن الضعفاء والمساكين وغير القادرين ، لأن غياب قدرتهم يسقط عنهم مهمة الدفاع ، فكان خليقا بالمجتمع الإسلامى أن يحملها عنهم بغير ضريبة .. بل إن هذه الضريبة ترد للقادر الذى دفعها إذا قام عائق يحول دون

الدفاع عنه . هذه الرعاية الحانية كفلت فى الإسلام حرية الاعتقاد للأجنبى ، وفرضت حماية حريته الدينية فى عباداته وشعائره ، وقد رأينا كيف حرصت العهود والمواثيق الإسلامية على النص عليها واحترامها .. فى هذه العهود التى ألممنا بجانب منها ، لا مساس برجال الدين ، ولا مغالبة لأحد أو افتتانه عن دينه ، ولا مصادرة فى أداء الصلوات والعبادات والشعائر .. بل ولا ضيق باللعب بالصلبان والريحان على سنة النصارى فى الاحتفال ..

الأجنبى فى دار الإسلام " ذمى " أو " مستأمن " ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، محفوظ مرعى فى حياته ودمه وممتلكاته وماله وعرضه وشرفه ، ومكفول له أن تحكم شريعته أحواله الشخصية بتعبيرات العصر الحديث ، فى علاقاته الأسرية ودينه وزواجه وطلاقه .. فى العهد الذى عقده الرسول عليه السلام لنصارى نجران : " لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليه دنية ولا دم جاهلية ، ولا يخسرون ولا

يعسرون ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا بينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين .. ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، ويملى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبى الأمى رسول الله أبدا ، حتى يأتى الله بأمره " .

اعتراف الإسلام للأجنبى بالشخصية القانونية ، أى بالأهلية القانونية ، كفل له فى واحة الإسلام إجراء جميع الأعمال القانونية اللازمة لحياته أو لنشاطه أو أعماله ..واقترن ذلك بحمايته وبالاعتراف له بالحريات اللازمة التى تتطلبها الشخصية الانسانية كحرية العقيدة وحرية ممارسة عباداها وشعائرها علنا فى حدود النظام العام الذى يلزم به المسلم وغير المسلم ..

لم يصل أى نظام قانونى فى أية دولة متحضرة للآن – فيما يقول العالم الجليل الدكتور حامد سلطان – إلى ما سبق أن وصلت إليه الشريعة الإسلامية من الرقى والسمو فى هذا النطاق . بل نقول ما قاله العقاد : " ليس من مانع يعوق الوحدة العالمية عند أصحاب دين يصدقون الرسل جميعا ويعتبرون الناس كلهم أمة واحدة كما جاء فى القرآن الحكيم : "شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ " (الشورى /١٣) .. " يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ " (المؤمنون ٥٢،٥١)

فى الحرب

الحرب فصل للأسف حتمى من فصول الدراما الإنسانية ، صاحبت البشرية منذ بداية الخلق ، حتى بين الأخوين اللذين غمط أحدهما أخاه فقتله وحار كيف يواريه .. لم يوقفه عن الشر الذى اجتاحه وتملك منه أن أخاه وقف فى مشهد القتل يقول له: "لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ " (المائدة ٢٨) .. وقف القاتل حائرا لا يدرى كيف يوارى جثمان أخيه المقتول ، وبقى فى حيرته حتى أطلعه غراب – بأمر الله – عمّا يفعل .. " فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ " (المائدة ٣١) .. من نسل هذا القاتل قابيل انحدرت

البشرية وظلت الحرب صراعا إنسانيا لازم مراحل نحو الخليقة وتطورها ، وتطور معها ، وتصاعد الصراع من صراع بين أفراد إلى صراع بين جماعات وقبائل ثم بين أحياء ومدن فدول .. لم يتوقف الصراع ، لأن الشر ملازم لرحلة الحياة التى تلازمها الأثرة فى الأفراد وفى الجماعات وطلب الغلبة تحقيقاً للمطامح والمطامع وإشفاء للمآرب والأغراض !

ولأن الحرب قوامها الشر ، لم تعرف فى ممارستها حدودا ولا ضوابط ، فتحللت فى نظر الأفراد والمجتمعات من أى قيد ، وجرت بلا أى ضابط ، تستبيح القتل للقتل ، ولا تستثنى منه مسالما ، ولا شيخا ولا طفلا ولا امرأة ..السبايا تقتل وتذبح وتحرق ، ولا تستبقى ـــ إن أُبقيت ـــ إلا للاسترقاق بأنواعه وأشكاله وأغراضه وشهواته !! .. مضى هذا العرق الممدود يصاحب البشرية فلا تلتفت بتاتا إلى التخفيف من ويلات الحرب إن لم يكن منها بد ، مثلما لم تلتفت إلى مزالق الاندفاع إليها مع القدرة على تحاشيها ، لأن المطامع والشرور غلبت العقل والحكمة، لم ينجم تحريف كتب بعض الأديان كما رأينا فى الفصل السابق ـــ من تمجيد القسوة وسفك وإراقة الدماء واسترقاق خلق الله وتذبيح وتحريق الأسرى بعد

وضعهم تحت مناشير ونوارج وفؤوس الحديد .. فإن أفلت التقتيل والتحريق أحدا فليكون مطية مستعبدة مملوكة فى حياتها وجسدها وعرضها !!

لم تعرف البشرية قانونا للحرب يخفف ويلاتها قبل الإسلام .. لم يبح الإسلام الحرب إلاّ لضرورة الدفاع أو إزالة الصد عن سبيل الله ، وبقيت فى شرعة الإسلام مكروهة لا تباح إلاّ لضرورة تظل محكومة بها فلا تجاوزها ولا تتعداها ، لا يخوضها الإسلام ـ إن فرضت عليه ـ للتقتيل أو التذبيح أو التحريق ، وإنما لغاية سامية تُوقَفْ الحرب ويُجْنح إلى السلم فور بلوغها .. لاتمضى الحرب ـ إن مضت ولم يكن منها بد ، مسلوخة عن شجرة الأخلاق الإسلامية التى راعى الإسلام أن تحكم حياة الناس حتى فى حربهم .. من الإسلام عرفت الإنسانية أول أساس لقانون الحرب الذى فرض لها الضوابط وقلم الجموح للتخفيف قدر المستطاع من ويلاتها وشرورها .. حسبنا أن نعرف أن الإسلام أول من احترم الأسير وأفسح لنجاته ولمعاملته بالحسنى ولقبول الفداء بل والمن بإطلاقه .. فى غزوة بدر ـ أولى الغزوات فى تاريخ الإسلام ـ لم يكن قرآن قد نزل فى أمر الأسرى ، فدفعت أخلاق الإسلام

إلى التوقف عن قتل من ارتضى الأسر أو وقع فيه مضطرا ... المراجعة القرآنية : " مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * " (الأنفال ٦٧ ــ ٦٩) - هذه المراجعة القرآنية لم تكن لقبول الفداء فى الأسرى ، وإنما لوجوب الشدة والإثخان فى بداية الدعوة للتخلص من طغيان المشركين الذين صدوا ويصدون عن سبيل الله ، ويؤذون الإسلام ورسوله ، آية ذلك أن الرسول لدى نزول الآية أشار إلى ماكان يراه سعد بن معاذ من تفضيل الإثخان مع المشركين ، وآية ذلك ثانيا أن النبى عليه السلام مضى فى قبول الفداء بل وإطلاق السراح منّا بغير فداء مع أن آية : "فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا " (محمد / ٤) لم تنزل إلاّ فى أحد .. ولم يكن الرسول ليمضى فى قبول الفداء والمن بالإطلاق لو كان العتاب عتاباً على قبول الفداء، وإنما كان على تفضيل الأسر على الإثخان فى مرحلة بالغة الدقة والخطر فى بداية الدعوة وماكانت تتعرض له من أخطار .. وآية ذلك ثالثا أنه أعقب نزول الآيات ٦٧ ــ ٦٩ من سورة الأنفال نزول الآيتين

من ذات السورة تقولان : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "(الأنفال ٧٠ ، ٧١) .. هذا البيان القرآنى للتعامل مع الأسرى ينفى تماماً أن المراجعة كانت مراجعة فى قبول الفداء..

تروى كتب السيرة أن النبى عليه السلام أمر فى بدر بحسن معاملة الأسرى والترفق بهم ، وأطلق من ينادى فى المسلمين : " استوصوا بالأسارى خيرا . " .. مَنّ عليه السلام على أبى عزة عمرو بن عبدالله الجمحى ، وأطلقه بغير فداء ، مع أن الآية الرابعة من سورة محمد لم تكن قد نزلت بعد ، فهى لم تنزل إلاّ فى أحد ، أطلقه عليه السلام وبغير فداء رعاية لفقره وأولاده الذين يعول .. قبل الرسول من غير القادرين أن يكون فداؤهم بتعليم الواحد منهم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة ، وسن تبادل الأسرى حين فك أسر عمرو بن أبى سفيان لقاء إطلاق سراح سعد بن النعمان الذى حبسته قريش غيلة وغدرا وهو يؤدى العمرة فى الشهر الحرام .. ثم توج القرآن الكريم هذا

الدستور العظيم فى رعاية وفداء وتبادل الأسرى ، بالآية الرابعة من سورة محمد التى قضت فى شأن الأسرى بقولها : " فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا " (محمد/٤) .. بل وأضاف الإسلام عدم جواز استرقاق الأسير ، فإما المنّ وإما الفداء ، ولا سبيل غير هذا ، ثم أضاف القرآن الأسير إلى من تجب لهم الصدقة والرحمة والإطعام ، فيقول عز وجل فى صفات المؤمنين : " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا " (الإنسان /٨) .

لا كانت هناك عصبة أمم ، ولا أمم متحدة ، ولا مجلس أمن ، ولا اتفاقيات جنيف ، ولا شيء مما جاهدت الإنسانية فيه طويلاً لبلوغ ما بلغه الإسلام من أربعة عشر قرناً حتى صار فقهاء القانون الدولى يسلمون على اختلاف أجناسهم ومللهم وأديانهم بأن الفضل فى سن قواعد لقانون الحرب هو لشريعة الإسلام .

حينما بزغ الإسلام - دين الرحمة والسلام - كانت الحرب بين الأقوام والدول هى القاعدة العادية للعلاقات ، تجرى بلا ضابط ولا رابط ، تتدنى فى أسباب إشعالها مثلما تتدنى فى أسلوب إدارتها وما تكتنفه من وحشية ، وفى نواتجها أغناما وسبايا .. أول

ما عرفت البشرية من ضوابط لشن الحرب أو خوضها ، عرفته من نظرية الجهاد فى الإسلام الذى كان حقاً من أجل السلام كما سلف البيان ومحكوماً لذلك بالغايات والضوابط وبأخلاقيات الإسلام . فى غزوة بدر ، ومن قبل نشوب القتال ، بعث الرسول إلى قريش بعمر بن الخطاب يدعوهم إلى المسالمة ، فأبت قريش إلاّ أن تركب رأسها وترفض دعوة الرسول ونصيحة حكيم بن حزام بقبولها قائلاً لرفاقه من قريش : " فوالله ما تنتصرون عليه بعد ماعرض من النصف ." فيأبى أبوجهل ويأبون ، ويرد أبوجهل بعنجهيته يقول : " والله لا نرجع بعد أن مكننا الله منهم . " !!

الدعوة للمبارزة فى بدر ، كانت دعوة كفار قريش أطلقها عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وشقيقه شيبة ومع ذلك كانت أوامر النبى للمسلمين أن تبقى السيوف فى أغمادها ، وألاّ يقاتلوا حتى يؤذن لهم .. لايبادئون بقتال ، ولا يندفعون إليه .. ظلوا على موقفهم حتى اكتنفتهم قريش ولم يعد من الصدام بد !

لم يعرف الناس قبل الإسلام ضوابط لإدارة وإنسانية الحرب ، ولا التفت أحد لترويض وحشيتها والتخفيف من ويلاتها ، فجاء رسول القرآن ليقول لأصحابه رغم غمه على مقتل

عمه وحبيبه حمزة والتمثيل به : " إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور " ويرفض التمثيل بسهيل بن عمرو رغم إساءاته الشديدة له وللإسلام ، يقول لعمر بن الخطاب : " لاأمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا . " .. يوصى أصحابه إذا ما فرض عليهم القتال الذى هو مكروه فى الإسلام إلاّ لأسبابه المحكومة ، فيقول لهم : " بسم الله ، وبالله ، وعلى بركة رسول الله لا تقتلوا شيخاً فانيا ، ولا طفلاً ، ولا صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تغلوا (لا تنهبوا) وضعوا غنائمكم وأصلحوا إن الله يحب المحسنين " .. عرفت البشرية من الإسلام ألا يُقاتل أو يُقتل أو يُمس إلاّ من يشترك فى القتال .. لا سبيل بتاتاً للمساس بمن تجنب القتال ، وذلك فرع على مبدأ عام نزل به الذكر الحكيم فقال عز من قائل : " فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً " (النساء ٩٠) .. من وصايا رسول القرآن : "أوصيكم بتقوى الله ، ولا تعصوا ولا تغلوا ، ولا تهدموا بيعة ، ولاتحرقوا نخلاً ، ولا تحرقوا زرعاً ، ولا تذبحوا بهيمة ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولاتقتلوا شيخاً كبيراً ، ولا صبيا ولا صغيراً ولا امرأة ، وستجدون أقواما قد حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له . "

يقتدى ويتأسى به وبالإسلام ، صحابته الأبـــرار ، فتـــرى أبابكر الصديق يوصى أسامة بن زيد فيقـــول له : " لا تخونـــوا ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شـــيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخـــلاً ولا تحرقـــوه ، ولا تقطعـــوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلاّ للأكل ، وإذا مـــررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

" .. فى وصية أبى بكر رضى الله عنه ليزيد بن أبى سفيان الموجه إلى الروم بالشام : " .. إنى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطعن شجراً مثمراً ، ولا نخلاً ، ولا تحرقها ولا تخربن عامراً ، ولاتعقرن شاة ولا بقرة إلاّ لمأكلة ، ولا تجبن ، ولاتغلل . "

من وصايا الرسول المتكررة .."لا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم (إن لم يقبلـــوا) إلى التحول عن ديارهم إلى ديار المهاجرين ، فإن فعلوا فاقبلوا منـــهم وكفوا عنهم ، وإلاّ فأخبروهم أنهم كأعراب من المسلمين يجـــرى عليهم حكم ذلك الذى يجرى على المسلمين ، ولا يكون لهـــم فى

الفيء ولا فى الغنيمة إلاّ أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية (ضريبة الدفاع) فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ".

إن القانون الدولى فى عالم اليوم ، قد انتهى بعد مجاهدات طويلة ــ يعود الأقوياء فيهدرونها !!! - إلى أن " إعلان الحرب " واجب قبل بدئها ، وأن المساس بغير المحاربين من المدنيين غير جائز ، مع وجوب العناية بالجرحى والمرضى واستبعاد المستشفيات من أهداف الضرب وصيانة الأطباء والممرضين والمسعفين وتحريم الإجهاز على الجرحى أو تسميم الآبار والأنهار والأطعمة .

الإسلام ، ومن أربعة عشر قرناً ، سبق إلى هذا كله وأكثر

(١) رأينا فيما سبق من اسشهادات أنه برغم وجود الضرورة الملجئة للحرب ، فإن المسلمين لا يبادئون بها ، بل ويدعون إلى خيارات عديدة قبل الشروع فيها ، يقول النبى لأصحابه : " لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله كثيراً . " .. ولا يجيز الإسلام قتال من لم تبلغه الدعوة ، بل ويندب إلى تجديد دعوة من

بلغته الدعوة . وقد قال أبو يوسف " لم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما قط فيما بلغنا حتى يدعوهم إلى الله ورسوله " .. وفى الأحكام السلطانية للماوردى : " ومن لم تبلغهم دعوة الإسلام يحرم علينا الإقدام على قتالهم غرة ، ويحرم أن نبدأهم بقتال قبل إظهار الدعوة " .

(٢) ورأينا فى آيات القرآن المجيد ، وفى السنة النبوية ، ووصايا الرسول والصحابة ـــ أنه لا يجوز قتال ولا قتل ولا المساس بغير المقاتلين، ولا بالشيوخ ولا بالنساء والأطفال ، وزاد الإسلام فنهى عن التخريب والإتلاف وحرم إتلاف الزرع والحرث ، والأشجار والنخيل ، بل ونهى عن ذبح البهائم والشياه (جمع شاه) إلاّ لمأكل ، وحرم فوق ذلك أى تعرض لدور العبادة من كنائس ومعابد وصوامع ، ولا للقسيسين والرهبان والنساك .

(٣) ورأينا فيما سلف ، أن الإسلام ينهى عن المساس بالمرضى والضعفاء ، وعن التعرض للمملوكين والمستخدمين ولمـن لا يشارك فى القتال كالقائمين بإسعاف الجرحى .

(٤) ورأينا كيف عنى الإسلام بالأسرى ، فلم يجز قتلهم ، ولم يبح استرقاقهم ، وأمر بالرفق بهم وخير بين المنّ والفداء أو المبادلة ، وقدم المنّ وحض عليه ، وأوصى بمعاملتـهم خيرا ، وألحقهم بمن تجب لهم الصدقة والرحمة والإطعـام (محمد /٤ ، الإنسان/٨) ..

(٥) زاد الإسلام على ذلك كله قواعد سامية غير مسبوقة ، حين اتخذ من " الفروسية " بأخلاقها وسجاياها سنة واجبة حتى فى الحروب . من تقاليد الفروسية عـدم الإجهـاز علـى الجريـح ، أو قتل المستجير ـ استجار " وحشـى " قاتل حمزة بالنبى عليه السلام فأجاره حـتى يسـمع كلام الله ، وأمهله وزاد فى إمهالـه حـتى اهتـدى للإسلام .. ومن تقاليد هذه الفروسية الامتناع عن قتل من يسقط عن فرسه ، أو يقتل فرسه .. مشاهد هـذه الفروسية فى جهاد الإسلام لا تقع تحت حصر ، لعـل

أشهرها فى معركة صفين ، حين أبى الإمام على بن أبى طالب الإجهاز على مبارزه عمرو بن العاص ، مع ما فى ذلك من غنم ظاهر ، لأنه سقط عن جواده وانكشفت سوءته !

(٦) ثم زاد الإسلام هذه المسحة الإنسانية التى تجلت فى حسن معاملة الأسرى الجرحى والضعفاء وأهل العبادات ، وفى احترام الأديان والملل ، والكنائس والأديرة والمعابد ، وفى تحريم المثلة بالرغم من سوابق الكفار فى التمثيل بقتلى المسلمين !

(٧) أساس هذه كله ، أن الإسلام لم يتغيا الحرب للحرب ، ولا استهدف القتال للقتل ، وإنما قبله كضرورة محتومة حين لا تكون هناك سبيل غيرها للدفاع ودرء العدوان وإيقاف الصد عن سبيل الله ، فبقيت الإباحة مرهونة بضرورتها لا تتعداها ولا تتجاوزها ، فالتأمت إنسانية الإسلام فى الحرب مع إنسانيته فى السلام ، بل إليه الفضل فى وضع أساس القانون الدولى للحرب ، حتى صار هذا الفرع مدينا له فى نشأته وقواعد الأساس فيه ، وبسط الإسلام مائدة وارفة

إليها يرجع كل ما يوفق إليه العقلاء فى وضع القواعد لتلافى الحروب والتخفيف ـــ إن حدثت ـــ من ويلاتها !

اهتمام الإسلام بالعلاقات الدولية ، هو ملمح أساسى من ملامح عالميته ، صدر فيه عن إيمان بلوازم ومسئوليات هذه العالمية فى ضبط وإنماء السلوك الإنسانى ورعاية ما يجب أن يسود بين الدول ، مثلما يجب أن يسود بين الأفراد ، من قدرة على التعايش لإثراء الحياة وتعميرها بالقيم والمبادئ ، وبالسلام والمحبة .. وهذه هى هى رسالة الإسلام منذ كان ، أينما جال البصر فى دوحته ، تطالعه روح ومظاهر وأركان ومعالم عالمية هذا الدين الذى أراده الله سبحانه وتعالى دينا للعالمين إلى يوم الدين ، فحمل لهذه المسئولية الكبرى كل العناصر التى تصلح بها دعوته ، وتمتد ديمومته ، إلى الناس كافة بغير تفرقة لجنس أو لون أو عرق أو حسب أو نسب .. تحمل الخير إلى البشرية ، على تعاقب الأزمان والعصور ، لا تخاصم الدنيا وإنما تدعو وتسعى إلى كل ما تتجمل به حياة الأحياء على هذه الأرض إلى ماشاء الله .

رقم الإيداع ٢٠٠٣/١٧٣٢٥

I. S.B. N. 977- 320-103-1

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

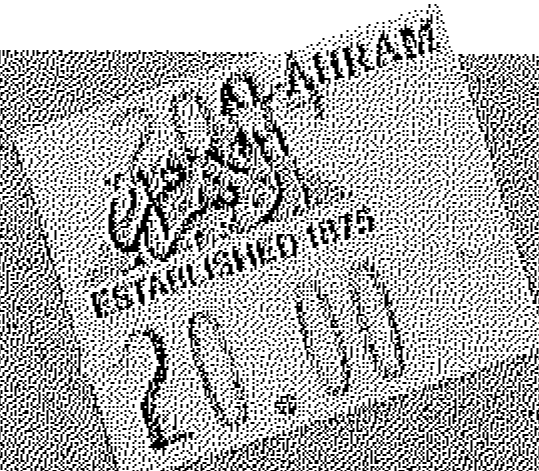
عالمية الإسلام



يتعرض الإسلام فى هذا الزمان لهجوم متوحش جهول، يجاوز فى ضلاله كل ما سبق من هجمات ضالة ساهم فيها كتاب وفلاسفة وملوك وأباطرة، وجيوش. وتبتغى هذه الحملات الشرسة الضارية التى ازدادت ضراوة هذه الأيام وبلغت أقصى درجات السعار، تصوير الإسلام بأنه دين بغى وعدوان، وتصوير المسلمين بأنهم دعاة قنبلة وخنجر ومدفع.

عالمية الإسلام تهدم هذا الافتراء.. هذه العالمية هى الصلاحية والقدرة على الامتداد فى المكان وفى الزمان.. الخطاب فيه من رب العالمين، إلى الناس كافة، لا إلى قوم أو أقوام.. روح الإسلام، هو هذا الجوهر الدائم الباقى، فى روح هذا الزمان وآتى الأزمنة، مثلما كان فى روح الزمن الغابر.. قيمة الإسلام هى فى كونه دينا حيا لحاضر حى ومستقبل أكثر حياة - وليس مجرد جزء من ماض تليد انصرم ننظر إليه بحسرة وإشفاق.

مؤلف الكتاب، هو المفكر والكاتب رجائى عطية - أحد أعلام المحاماة - صاحب حضور بارز متشعب فى الحياة النيابية، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، واتحاد الكتاب، والمجالس القومية المتخصصة، والمجلس المصرى للشئون الخارجية، ومن قبل بجمعية المؤلفين. أثرى المكتبة العربية والإسلامية بالعديد من المؤلفات، منها : من هدى القرآن، من هد
ذلك الكتاب لا ريب فيه، فى مدرسة الرسول، قضية النقابيين، يار
اللهم، بشائر ، نواب القروض، بسم الله، قضية الجمارك الكبر
الغفارى، مواقف ومشاهد إسلامية، إبحار فى هموم الوطن والـ
أقول لكم، من أعماله الكبرى مطول السيرة النبوية فى رحاب التنـ





مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام
مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

التوزيع فى الداخل والخارج
وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة